سونيا بوماد

التفاحة الأخيرة

رواية

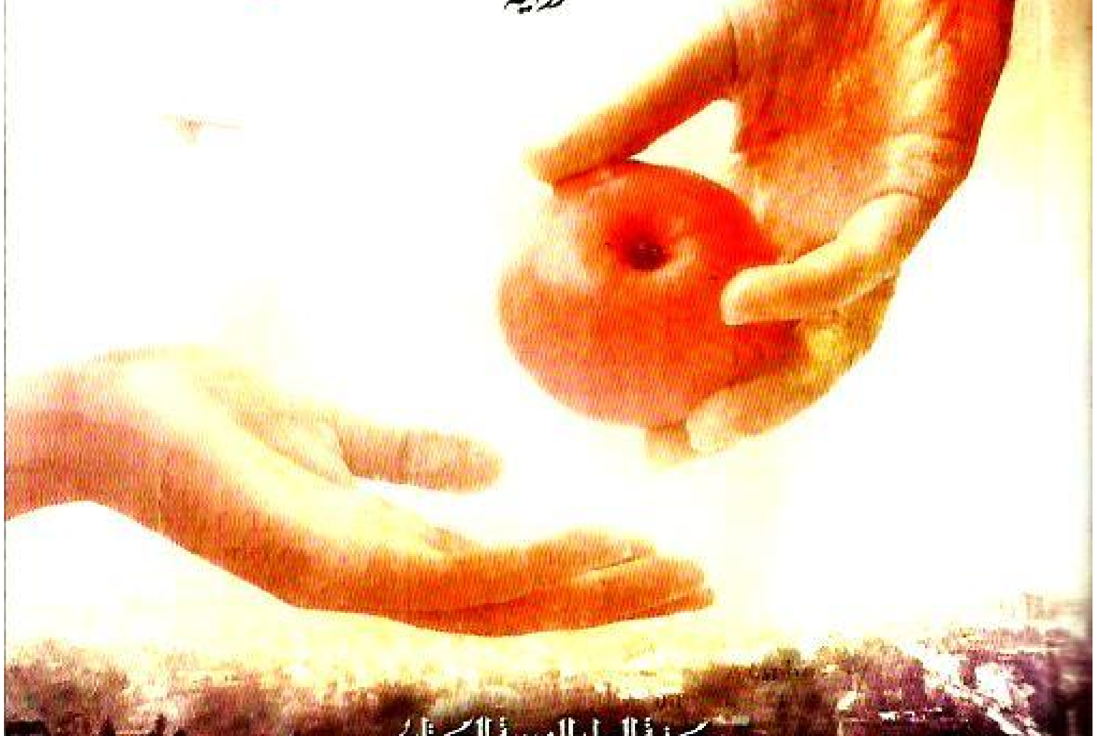

مكتبة الدار العربية للكتاب

التفاحة الأخيرة

رواية

بوماد، سونيا.
التفاحة الأخيرة: رواية / سونيا بوماد .- ط1.
القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2015.
384 ص؛ 20 سم.
تدمك: 1 - 727 - 293 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 10763 /2015

©
مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: رجب 1436 هـ - مايو 2015م

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة الدار العربية للكتاب، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

سونيا بوماد

التفاحة الأخيرة

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

سربرنتسا،

14-07-1995

الطرقـاتُ فارغةٌ إلا مـن بعض المقاتلين الذين يجوبـون المكان بحذر، وبعـض طلقات النار التي تخترق الصمت بين الحين والآخر.. محاصرٌ أنا، وقـد تآمـرَت الذكريات المرَّة على ما تبقَّى من ضميري المنقسـم بين (نعم) و(لا).

يالأبـي المسـكين! ليتهم قتلـوه قبل والدتي وشـقيقتي، فقـد قتلوه بهما آلافَ المـرَّات، وجسـُد حبيبته يُسـتباح وهو مقيَّدٌ لا حولَ لـه ولا قوَّة.. هذا شـعرُها الذي سـرَّحه، عيناها حيث سـكن، هذان خدَّاها اللـذان قبَّلَهما قبل الشـفاه، هذان ثدياها الصغيران اللذان أحبَّهما وتلذَّذ بهما كما الرضيع، هذا حضنُها الذي افترشَهُ سريرًا، هذا مأوى ذكوريَّته، الذي أَفرَغ روحَه ومشاعرَه فيه، تقتحِمُه شهواتُ الكلابِ المسعورة.. حتى فلذةُ كبده التي أنجبَ، وهزَّ مهدهـا وغنَّى لها وبالـت على كتفيه فضحِكَ، وابتاعَ لها السـكاكر وملابس العيـد، ها هي تسـتجديه فيصُـمُّ أذنيـه، تنظرُ فيُطأطـئ رأسَـه، تَودِّعه فيبكي فراقها. ها هو، وها هُنَّ، وها أنا أَلفظُ أنفاسَ روحي دونَ رمقٍ أخير.

ركلـتُ الباب بقدمي وفتحتُ النار على كل من كان هناك بذلك المخبأ، جالـت رصاصاتي فحصـدَت أرواحَهم كصاعقةِ السـماء. شـاهدتُ عينيها

تراقبـان ما يحـدث من تحت الغطاء وقد خطفَ الرعـب منهما بريقَ الحياة. صوَّبتُ بندقيتي أريد أن أطلق رصاصتي الأخيرة بينهما، فلم أستطع.. دارت في رأسي آلافُ الأفكار.. لم يحدث هذا معي في ظروف كهذه أبدًا!

تجَمَّعنا خارج المخبأ ضاحكين، كلٌّ يفاخر كيف أخرسَ رصاصُ بندقيَّته عويـلَ الجثث، خفـتُ أن تُصدر الفتاة أيَّـة حركة، فيتنبَّـه أحدُهم لوجودها؛ فسارعتُ أقول لهم:

- دعونا نذهب إلى حانة المخيم لنشرب البيرة.

سـرنا إلـى الحانة وهُـم يُكملون قصصهـم التي لم أسـمعها، فقد كانت أفكاري مشوَّشَـة.. لا تزال هناك، أخشـى أن تهرب. غافلتُهم، بعدما أذهَبَ السُّكر انتباههم، وخرجتُ من الحانة. أسرعتُ إلى المخبأ، وعندما وصلتُ إلى بابه وقفتُ مشـدوهًا وأنـا أراها هادئةً، راكعةً علـى الأرض، تمرِّرُ يديها على وجهَيْ جثَّتين شاحبتين. اقتربت منها قليلًا وناديتُها:

- تعالَيْ.

ثم رفعتُ إصبعي إلى شفتيّ محذِّرًا:

- لا ترفعِـي صوتـكِ! لو عرفوا أنكِ حيّة لن يسـتطيع أحدٌ إنقـاذكِ من نهايةٍ قذرة.

نظـرَت إليَّ بعينيـن مفتوحتين كمَيِّتٍ بارد.. مددتُ يـدي إليها، فتردَّدَت لبرهـةٍ قبـل أن تعطيني يدَها الغارقـة في الدماء. لامَسَـت أناملي تلك المادة اللّزجة الباردة الحمراء، فشـعرتُ بقشـعريرة وبحقدٍ جارفٍ يغمرُ قلبي. بأيِّ

حال، لم يكن الوقتُ مناسبًا للتأمل، فعليَّ أن أنطلقَ بسرعة قبل أن يلاحظوا غيابي.

كان من الصعب أن نأخذَ الطريق العامّ إلى السيَّارة، فدوريَّاتُ العسكر تجوبُ المكان، لهذا قرَّرتُ أن آخذ طريقًا مختصرًا عبرَ الغابة. أسرعتُ الخطى وأنا أمسكُ بمعصم يدها في قبضتي، وهي تحاول أن تجاري خطواتي السريعة، تئنُّ بفمٍ مُنغلق عندما تخمش الأغصان والحصى قدميها الحافيتين، تقع وتقف من جديد وتكمل رغم الألم.. كانت تدركُ حتمًا خطورةَ الموقف. المكان مقفرٌ ومظلم.. أحكمتُ بندقيَّتي على ظهري، وحملتُ الفتاة تحتَ ذراعي، وسرتُ بها سريعًا إلى حافة الطريق حيث تقف سيَّارتي العسكريَّة. قلتُ لها هامسًا:

- سأخفيكِ في صندوق سيَّارتي، لكن حاذِري أن تُحدِثي صوتًا أو تأتي بحركة دون أن أطلب منك ذلك، حتى وإن فتح باب الصندوق. وإلا فستموتين شرَّ مِيتة.

نظرَت إليَّ باستغراب، فأكملتُ بنفادِ صبر:

- لا تسأليني، فأنا لا أعرف لماذا أفعلُ هذا.. (زفرتُ..) سأحاول أن أخرجكِ من هنا، وإن لم أُفلح فلا تلوميني. ارقُدي بصمتٍ وهدوء، ونَفِّذي الأوامر.

استلقَت في الصندوق بجسدِها الصغير، أخفَيتُها بإحكام بالأغطية العسكريَّة وبعض خزائن الذخيرة الفارغة، أقفلتُ الباب.. ثم انطلقتُ على مهلٍ لكي لا أثير الشُّبُهات. لم تكُن وِجهتي مجهولة، فالحرب قد أشرفَت

علـى نهايتها، بعد كلِّ هـذه المجازر التي فاحت رائحتُها في (سربرنيتسـا)، فمنذ أيّـام وحفلاتُ الإعدام تزاحمُ بعضهـا.. أُدرك أنَّ المجتمع الدولي لن يسـكت علـى ما حصل، خاصّـةً أنه متـورِّطٌ معنا في هذه الجريمة.. سـوف يفرضون علينا وقف الحرب، وسوف تُعلَنُ قريبًا اتفاقيّة سلام بين الأطراف المتنازعـة. عـن أيِّ سـلام واهٍ يتكلّمـون بعدَ بحـور الدماء التي سـالت من الطرفيـن؟! ربما لن أسـتطيع هـذا؛ روحي لـم ترتـوِ، وبتُّ مهووسًـا برائحة الدمـاء، أعشـق اللّون الأحمر الذي يرسـمُ فـي ذاكرتي لوحاتٍ غريبة تشـبهُ أشباحَ الجحيم.. كذبة كبيرة؛ سلامٌ في قلوبٍ تحترقُ من مرارة الموت!

قـدتُ بسـرعة جنونيّة، فالطريـقُ أمامي لا يزال طويـلًا، تحجِبُ دموعي معالِمَـه أحيانًـا، لتعـودَ وتتوضحَ بعـد أن أكفكفها براحتـيَّ كالأطفال. عليَّ الخـروج مـن هذا البئر الفاسـد قبـل أن يوقفني أَحدُهـم ويعيدني من حيث أتيـت. لاحت أضواءٌ كاشـفة من بعيد، خفَّفتُ السـرعة كـي لا أثير الانتباه، ولأتأكَّـد ممّـا أرى. إنهـا نقطـة تفتيـش تابعـة لقوّاتنا. أشـعرني هـذا بالقلق والارتياح معًا.

وقفـوا أمامي في منتصف الطريق شـاهرينَ بنادقهم في وجهي، فأوقَفتُ السيارة ببطء..

- عرّف عن نفسك!

- (إيفان فيدتش) من القوّات الخاصّة، فرقة الإعدام، المهمّة نقل ذخائر.

تابعتُ وأنا أخرج له الأوراق:

- هذا أمر المهمّة، وهذه بطاقتي.

سـلَّطَ الضوء علـى الأوراق، تفحَّصها جيّدًا، ثم أمعـَن النظر إلى وجهي بعينيه المتعبتين.. عاد ودقَّق في الأوراق من جديد، ثم قال بصوتٍ صارم:

- افتح الصندوق!

ارتجفَ قلبي من الخوف لأول مرّة منذ بداية الحرب. صلَّيتُ في سـرّي أن تلتـزم تلك الفتاة بما أمرتُها به، ثم تكلَّمتُ بصوتٍ عالٍ محاولًا تحذيرها أنَّ عليهـا التـزام الهدوء. طالَـت الدقائق المقلقة وأنا أتـوقُ كالآخر -وربما أكثـر منـه- إلى رؤية المشـهد. "لا شـيء!"؛ جـاء صوت المجنَّـد الذي قام بالتفتيش.. لم أصدِّق. وكأنَّ تلك الطفلة قد تبخَّرَت!.. ليتني أجرؤ أن أقلِبَ المـكان رأسًـا على عقب! لكنّي كبحـتُ جماح انفعالاتي، محـاولًا ألَّا أثيرَ شـكوكهم. سـاد سـكونٌ تامّ في ظلام الليل الحالك، في صيفٍ لم يمنَع بردَ نسيمِ الليل أن يلسعَ أجسادنا.

نظرَ الجندي إلى جسدي المرتجف، ثم جالَ بعينيهِ في أرجاءِ الصندوق في شكٍّ سرعان ما طردَه وقال:

- أتشعرُ بالبرد؟ حسنًا، اذهب في رعاية الله.

عـدتُ إلـى المِقـوَد ويداي؛ بـل كلُّ جسـدي، وحتى روحـي ترتعد من وطـأة تلـك المشـاعر المتزاحمـة. أتسـاءل أيـن اختفَـت؟ هل تبخَّـرَت؟! أوقفتُ السيارة بمجرّد أن أصبحتُ بمنأى عن النقطة الأمنيّة، وترجَّلتُ منها والغضـبُ يتطاير من عينيّ.. فتحتُ الصنـدوق، وأضأت المصباح وبعثرتُ الأغطيـة بحثًا عنها دون جـدوى. ثم خطر لي أن رفعتُ الإطار الموجود في الصندوق، فوجدتُها وقد أدخلَت جسدها بينه وبين حديد السيّارة العسكريّة!

أطلقتُ زفرة عميقة أخرجت معها غضبي.. لأنه إطار سيّارة القائد الضخم، فهو لم يدخل في مكان الإطار تمامًا، وترَكَ لها متّسعًا آمنًا. أَطفأ المشهد شيئًا من غضبي، فهمستُ لها:

- آه!! جيّد. ابقَيْ حيث أنتِ إلى أن نصل.

سرى ارتياحٌ غريب في عروقي، وأطلَّ في صدري شبحٌ خبيث يعتريه الكثير من الرضا، وساورتني من جديد العديد من الأفكار المتزاحمة. يجب أن أبتعد الآن عن المكان قدر المستطاع، قبل أن يدركهم خبر فراري.

2

كنتُ هناك بين أمي وأبي، أودِّعُهما وأتحسَّسُ وجهيهما، حين دخلَ من باب المخبأ وظِلّهُ يسبِقُه. ظننتُ أنه عادَ ليقتلني أو يغتصبني، فقد رآني وأنا أراقبه وهو يطلق النار على عائلتي، لكنه مدَّ لي يدَهُ ليساعدني على النهوض. لم أملك إلا النظر إلى تلك اليد التي أَردَت أهلي منذ قليل وسلبَتهُما الحياة، هل أمدُّ لها يدي؟ وأيُّ مصيرٍ ينتظرني إن فعلت؟ في النهاية، لم يكن أمامي غير الانصياع لأوامره، وليفعل بي ما شاء.

أمسكَني من يدي وعبَرَ بي الغابة، بعد أن حذرني من مغبّة الكلام أو الصراخ، فملائكة السماء نفسها لن تستطيعَ إنقاذي إن وقعتُ بين أَيدِي أفرادِ فرقته. كانت الأغصان المتكسّرة والأشواك والحصى تخترقُ قدميّ، فأنزلق وأقع ثم أقف من جديد محاولةً مجاراة خطواته المسرعة دون تذمُّر. توقَّف قليلًا، ثبّتَ بندقيّته على ظهره وحملني تحت إبطِهِ، فتدلَّى جسدي فوق ذراعه القويّة كقطعةِ قماشٍ بالية. أحسستُ أنفاسَه وجسدَه الدافئ فارتجفَت مفاصلي من الخوف. هل يُعقل أنه يُعِدُّني وليمةً لمائدته؟!

وصلنا إلى أحد الطرقات الفرعيّة، حيث فَتح صندوق سيّارة عسكريّة متوقّفة هناك وخبّأني داخلَه. طلب مني ألّا أتحرَّكَ مهما كانت الظروف، وأخفى جسدي بما استطاع من محتويات العربة، ثم أقفَل الباب وأسكنَني

الظُلمتيـن، ظلمـة المكان، وظلمـة النفس. كنت خائفةً، بـل مرعوبة من كل شـيء.. تحسَّسـتُ ما حولي أبحثُ عن سبيلٍ للفرار أو لمزيدٍ من الاختباء.. وجـدتُ إطـارًا احتياطيًّا ضخمًا، فاندسَسْتُ محتضنةً إيـاه وحمَيتُ ظهري بخلفيَّـة الصنـدوق الحديديَّـة البـاردة، والتي خبـا صقيعُها بعـد أن انطلقَت السـيّارة. مع مـرور الوقت ربمـا، أو رتابة الظلام والخوف، غفوتُ! لسـتُ متأكّـدة؛ لكنـي فتحتُ عينيّ مذعـورةً عندما توقَّف المحـرّك، فالتغيير يعني الخـروجَ عن وتيرةِ الخوف التي اعتدتها إلـى وتيرةٍ جديدة، يعلم الله وحده ما ستفعل بي.

فُتـح غطـاء الصنـدوق، فتجمَّدَ الدم فـي عروقي وأنـا أرى بعض خيوطِ النور تتسـلَّل من ثقوبِ الأغطية، حبستُ أنفاسي، وحاولتُ أن أُوقف دقَّات قلبي، والتي اعتقدتُ أنهم قد سمعوها. دقائق طويلة مرَّت، تخلَّلَتها كلماتٌ قليلة لم يتلقَّفها عقلي في حالته تلك، ثم أُغلقَ الباب من جديد.

3

بعد مسيرة ساعات، وصلتُ إلى بيت عائلتي.. عليَّ أن أودِّع المكان قبل رحيلي إلى الأبد. دخلتُ المنزل، وجُلت بعينيّ في أرجائه.. لا تزال صور والديَّ وإخوتي معلَّقةً على الجدار.. أمّي، أميرتي الجميلة.. أبي، الملكُ المتواضع.. ونحن! كم كنتُ أحبُّ هذه الصورَة التي التقَطها لنا أحد المارّة عندما كنّا نُمضي إجازتنا السنويَّة في إحدى المُدن السياحيّة! سمعتُ أصواتَ إخوتي يتشاجرون، يضحكون ويلعبون، ويملؤون المكان بهجةً وفرحًا. كنتُ سأناديهم إليَّ لأحضنهم، لكنهم قد رحلوا!.. حرّكتُ رأسي بعنفٍ، كي أستفيق وأُبعِدَ أشباحَ هذه الأفكار. لو أنَّ ما حدث كان ابن هذه اللحظة، لما تمكَّنَ أحدٌ من إيذائهم، فأنا الآن سفاحٌ عتيد قادرٌ على حمايتهم!

وكأنَّ الذكريات قد تآمرت عليّ.. مازلتُ أذكُر جيّدًا.. صعدتُ إلى مخزن البيت العلويّ، بين السقف والقرميد، في اللحظة التي طوَّقَت فيها مجموعةٌ من الرجال المكان. رأيتهم من النافذة الزجاجيّة الصغيرة وهُم يدخلون، أصابني الخوف بشللٍ حركيّ وحسّي، وبدَوْتُ كأنما لا أعرف عائلتي ولا أنتمي إليها. لم يكن ذلك متعلِّقًا بغريزة الحياة مُطلقًا؛ إنما بالعجز! شاهدتُ تلك المجزرة مجرّدًا من ذاتي ومشاعري، كمن يشاهد السينما ويأكل

الفشار وهو يعلم أنه في مأمنٍ من الخطر والموت. لاحقًا، كرهتُ نفسي وعذبني هذا الشعور، لكني حينها كنتُ وحيدًا أعزَل، ولو عثروا عليَّ لكان اسمي ضمن أسماء الـ"جينيريك" قادوا الجميع إلى الحديقة؛ كأنَّ قدري كان أن أشاهدَ الجريمة بتفاصيلها. ربطوا والدي وإخوتي بالسور الخشبي، عرّوا أمي واغتصبوها كلٌّ بدورِه، أمّا أختي الصغيرة، فقد تفنَّنوا في تعذيب جسدها الصغير، قبل أن تُصبِحَ فريسةً مستسلمةً لقائد المجموعة، والذي ما كاد ينتهي منها حتى باتت جثّةً هامدة تَسبح في دمائها، بينما أغمضَ والدي عينيه وأطلق فمه الصادح بالتوسّلات وقد عادوا إليه وإلى إخوتي، فأفرغوا رصاصهم وحقدهم في أجسادهم.

أفهم الآن جيّدًا بما أحسَّ أبي وهو يرى جسَد حبيبتِه يُستباح وهو مقيَّدٌ لا حوْلَ له ولا قوّة..

وها أنا، أدخُل اليومَ إلى بيتنا المهجور إلاّ من الحنين بعد طولِ غياب، أنظرُ إلى خطواتي الصغيرة وآثار حذائي المغمّس بالوحلِ والتراب بعد أن حفرتُ قبرَ عائلتي في حديقة المنزل الخلفيّة بأظافري، ودفنتُهم وأغمضتُ عيونهم بيديّ. مسحتُ دموعي بقبضتي كما فعلتُ في ذلك اليوم، فاشتَمَمتُ رائحةَ الترابِ ودمائِهم العالقة تحت أظافري. توجَّهتُ إلى غرفتي، بدَّلتُ ملابسي، ثم أخذتُ مفتاح سيّارة والدي من على المنضدة في الرواق، وتوجَّهتُ إلى غرفة حبيبتي الصغيرة وجالت عيناي في أرجائها..

- أين أنتِ يا صغيرتي؟ أفتقدكِ كثيرًا أيّتها المشاغبة!

فتحتُ الخزانة ودمعي يسبقني، مررتُ ببصري على محتوياتها، رائحتها لا تزال عالقةً بكل الموجودات هناك. تناولتُ فستانًا زهريًّا كانت قد ارتدَتهُ

بعيـد ميلادها الثاني عشـر، هديَّـةُ أمّنا لها، ثـم أخذتُ أحـدَ أحذيتها بعد أن عانقته وقبّلتهُ..

- اعذريني يا أختي يا حبيبتي، سـأعيدهما لكِ قريبًا، وسأشـتري لكِ فسـتانًا وحذاءً جديدين.

أخذتُ بطاقتها من حقيبتها الصغيرة، والتي لم تكن تفارقها أينما ذهَبَت، ثم غادرتُ المكان.

كان علـيَّ أن أعبُـر الحدود قبـل حلول النهار تجنُّبـا لأي طارئ. فتحتُ صندوق السيارة، حيثُ كانت قابعةً هناك كدميةٍ ميّتة.

- هيّـا اخرجي. خُذي، اِرتدي هذه الملابـس، ونظّفي يديكِ من الدماء بهذا المنديل الرطب، وتحضري للانطلاق.

أدرتُ وجهـي مودِّعًا المنزلَ بكلِّ ما فيه، أجسـادًا دُفِنَت هناك، وأرواحًا لازالت تسكنُ المكان، فربّما لن أعود إليه مرّةً أخرى.

استقللنا سيَّارة والدي وانطلقنا. لم أستطع أن أمنع نفسي من النظر إليها. كان هنـاكَ حقدٌ عارم يعتمل في داخلي، كبركانٍ يتهيَّأ للانفجار. رحت أقود بسـرعة جنونيّـة، مُبعِدًا نفسـي وتفكيري عـن كل ما يجول فـي خاطري من أفكارٍ وصُوَر.

4

ظـلامٌ حالكٌ فـي صندوقٍ يشـبهُ القبـر، يخترق سـكونَهُ صـوتُ دوران المحـرّك، وأنـا بداخلـه، أتذّكـرُ أمـي وهـي خائفـةٌ ومذعورة وتـدور حول نفسـها، لا تعرف ما تحمل معها وما تترك، بعد أن تناقل الجيران خبر دخول الميليشـيات الصربيّـة إلـى المدينة. أخـذَت حقيبتها ووضعَت فيهـا أوراقنا الخاصَّـة وبعضَ النقود.. كانت تنادينا وتسـأل عنَّا ونحن أمـام عينيها.. لقد نسيَت أن تأخذ الراديو معها، الراديو الذي لم يفارقها لحظةً واحدة منذ بداية الحـرب، تترقَّـب أخبارَ أهلها فـي (سـرايفو)، وتُعلِمُ والـدي إن كان هناك خطـرٌ ما لكـي لا يغادر القرية، وتنتظر بفارغ الصبـر -كالآخرين- نهاية هذه الحـرب اللعينة. سـرنا كالعميان دونَ أن نُتابعَ ما يجـري حولنا من أحداث. لقـد غضب أبي منها كثيرًا، وهي التي كانـت تتجنّبُ إغضابه. كان خائفًا هو الآخـر، والمسـكينة قد أتعَبهـا الخوف والحـرب والترحـال والترقّب. لقد عانينا على مدارِ سنتين من حفلات الموت والقصف والدمار، قبلَ أن تُعلن الأمـم المتّحدة مدينتنا (سربرنيتسـا) محميَّةً آمنة، وبعد أن سـلَّمَ المقاومون أسلحتهم. الآن، وفجأة، عدنا إلى تلك الحالة، وكأنَّ شبح الموت باتَ على أكتافنا. عاد الخطر من جديد، ولم نكن نعرف إلى أين سنذهب ومتى سنعود، وهل سنبقى أحياءً أم لا لم يكن قبوُ بيتنا آمنًا، وبعد أخبار المداهمات أصرَّ أبـي أن يصطحبنا إلى بيت جدّتي، كما كنا نفعل كلما اشـتدَّ القصف، فالقبوُ

هنـاك قديـمٌ وواسـع، يجتمع فيه كل أفـراد العائلة.. أو من تبقّـى منهم. كان يعتقـد أنَّ المسـلَّحين لن يصِلـوا إلى أطـراف قريتنا الآمنة، فسربرنيتسـا في عهدة الأمم المتّحدة، والكتيبة الهولنديّة تقوم بحماية المواطنين. لقد رفَض الرحيل رغم دموع أمي وتوسّلاتنا اليوميّة.. ما نفعله فقط هو الانتظار، انتظار جولات الموت والدمار، وانتظار القادم المجهول..

رفيقـي كان دفتـري، لـم أترُكه يومًا، لقـد كان كلَّ ثروتـي.. آه! لكني لم أُحضـره معـي، لقـد تركته تحـت المخدّة فـي المخبـأ، ربما قد تبلَّـل بدماء إخوتي، ربما سيجده أحدٌ ما ويسـرقه.. انقبضَ قلبي و أردتُ البكاء، لكني لـم أستطع. كيف سـأبقى وحيدةً وأمـي وأخوتي ليسـوا معـي؟ وأبي ذلك الرجـل العنيد! لماذا لم يأخذنا بعيدًا كما فعل الآخرون؟ لم يحبَّنا يومًا رغم أننـا أطفالـه! وأمي أيضًا لم تأبَه لسـلامتنا، كان عليهـا أن تتركه وترحل معنا وحدهـا.. لقد رأيتُ القطة تحمل أطفالها بأسـنانها من مـكانٍ إلى آخر لكي تُؤمِّـن لهـم الحمايـة! أين هي من هذا؟ لقد أصبحَ جسـدُها بـاردًا، لقد أنزل الله عليها عقابَه.. تعبتُ جدًّا من أفكاري، وأنهكني صوت المحرّك ورائحة الإطار، فلم أصمد أكثر من ذلك، واستسلمت للنوم.

بقيـتُ فـي ذلـك القبر، لا أعرف كم مـرَّ عليَّ من سـاعات، كلّ ما أعرفه أنّ شـعورا بالأمان قد تسـلل إلـيَّ، حتى تمنَّيـتُ ألَّا يُفتح البـاب من جديد، فأبقى في مكاني حتى أموت. لكنَّ أمنياتي لم تتحقّق.. فُتِحَ الصندوق ثانيةً، ونـادى عليّ بصوته الغليظ، فرفعتُ رأسـي وقد أعماني نورُ الشـروق الذي مـلأ المكان. رمى إليّ بفسـتانٍ زهريّ وحـذاءٍ خفيف وفوطةً مبلّلـةً بالماء، وطلبَ مني أن أُنظِّفَ نفسـي من آثار الدماء، وأن أرتدي ما أحضَره لي! لقد

فاجأني بذلك، لكن لم يكن أمامي سوى أن أطيعه. كان الفستان جميلًا جدًّا ومناسبًا، كأنه قد صُمِّمَ على مقاسي.

تركنا السيّارة العسكريّة، واستقللنا أخرى.. جلستُ على المقعد الأمامي بقربِه -كما طلب مني- فربط جسدي بالحزام، وحذرني بصوتٍ مرعِب من أنَّ أيّ محاولة للهرب ستُمنى بالفشل، وأن عليَّ أن ألتزم بأوامره وإلّا سيكون مصيري الموت. لا أدري لم يثرثر كثيرا، فأين سأذهب؟!..

كان يقود بسرعةٍ جنونيّة، ويرمقني بين الحين والآخر بنظراتٍ مرعبة، كوحشٍ كاسر، ينهشُ روحَه الحقدُ والكره، ثم لتغرقَ تلكما العينان بعد قليل في حزنٍ جامح ودموعٍ كأمطار الشتاء المتجمّعة بين الرصيف والإسفلت، فرحتُ أتخيَّل ما ينتظرني معه، لا أجرؤ على البوح بما أشعر حتى لذاتي، حتى لجسدي، الذي كان يخشى الحراك وكأنه دمية خشبيّة، لولا تلك الأنفاس المتصاعدة، فمن أطلقَ النار على أهلي والآلاف غيرهم من الضحايا الأبرياء هل سيرأف بي؟

5

عبـرتُ الطريـق السـريع لآلاف الأميـال، مـن بلـدٍ إلـى آخـر، وأجـواء يوغوسـلافيا - أو ما كانت تسـمّى بالاتحاد اليوغوسـلافي - يشـوبها القلق والتوتر. كنتُ أرمُقها بطرف عيني بين الحين والآخر وقد غفَت ملقيةً برأسها على مسـند الباب. الفستان كان يخنقني بحبل الذكريات، وكنت عازمًا على شراء ثوب آخر لها متى وصلنا.. هذا إن لم أقتلها قبلها.

"أقتلها" كلمة زلزلت كياني.. لماذا لم أفعلها حينها؟!

انحـدرتُ بعد طولِ مسير عن الطريق السـريع، وأصبحنـا بأمان، دقائقُ قليلة ونصل إلى هناك.

بعـد زواجها من والدي، ترَكَت أمي قريتها ووالدها، وذهبت لتعيش مع أبـي فـي مدينته الصغيرة. لم يكـن جدّي موافقًا علـى زواجهما، لأنَّ والدي (صربيّ) متعصّب، وأولاد (صربيا) قد قتلوا وليَّ عهد (النمسـا)، وأشـعلوا بتلـك الجريمـة الحربَ العالميّة الأولـى، وأدخلوا المنطقـة كلها في صراعٍ لا نهايـةَ له. غيرَ أنَّ قصّة حبّهما الطويلة انتصـَرت في النهاية، ورحَلا، وبقيَ جـدّي وحيدًا في هذا البيت. كانت أمي طفلتـه الوحيدة، التي رعاها بمفرده بعد وفاة زوجته. وبعد مرور السـنين واظبنا وإيّاها على زيارة الجدّ المريض

في إجازاتنا المدرسيّة، رغم اعتراض والدنا.. لم تكن العلاقة بين الرجلين جيّدة أبدًا.

بعد موت جدّي، آلت كلُّ ممتلكاته إلى أمي -وريثته الشرعيّة والوحيدة- أبلغها المحامي أنها باتت تملك ثروةً كبيرة: منزلٌ، وقطعة أرض، وسيّارة، وبعض النقود. رفضَ أبي أن يأخذ أي شيء من هذه الممتلكات، وحتى والدتي رفضَت السفر لاستلام الميراث، معتبرةً عودتها نزفًا جديدًا لجرحٍ قديم. شعورها بالذنب لوفاة والدها وحيدًا لم يفارقها أبدًا.

مررتُ قبل وصولنا بأحد المتاجر، فاشتريتُ لها بعض الملابس، ثم طلبت بعض الطعام من مطعمٍ قريب، وبين متجر وآخر، كنت أهرول إلى السيّارة خوفًا من هربها، فأجدها نائمةً لا تلحَظ حضوري أو غيابي. الأمور لن تكونَ سهلةً هنا، فنحن في بلدٍ يقدّس حقوق الإنسان وحريّته، فيكفي أن ترفع صوتها، وتستنجد، وعندها لن ينقذني شيءٌ من مصير قذر بين جدران السجن المؤبّد. أربكتني هذه الأفكار، فعطلت رأسي مؤقتًا، كي لا أجهد نفسي أكثر، فدماغي يكاد أن ينفجر. أوقفتُ السيارة في حديقة المنزل، بعد أن اجتزت السور الحديديّ الذي بناهُ جدّي مع تحصيناتٍ أخرى، حتى بات المكان أشبهَ بسجنٍ منمّقٍ وجميل.

- استيقظي يا فتاة، لقد وصلنا.. بإمكانكِ أن تُكمِلي نومكِ في المنزل.

سارت إلى جانبي، فأدخلتها إلى إحدى الغرف، وأعطيتها الملابس والطعام، وطلبت منها أن تبدل ما ترتديه، وبسرعة. أخيرًا، ذهبتُ إلى غرفةٍ مجاورة، وارتميتُ على السرير شبهَ ميّت، وقد شُلَّ عقلي وحواسيّ كما جسدي.

6

أيقظني صوتُه من نومي. لا لم أكُن أحلم، كنتُ نائمةً، ربّما مخدَّرة! قال بنبرةٍ قاسية:

- لقد وصلنا، بإمكانكِ أن تكملي نومكِ في المنزل.

مشيتُ بجانبه وقد لفتَني وجود ذلك الباب الحديديّ الكبير خلفي، والقائم في سور البيت العالي، وكأننا في إحدى القلاع المحصّنَة. صعدنا درَج المنزل العريض، وفتحَ الباب الخشبيّ الكبير وعبرنا منه إلى بهوٍ واسعٍ مشرّعٍ على عدّة أبواب. كانت هناك مكتبة ضخمة تحوي ربما آلاف الكتب، وكانت المقاعد كثيرة، وستائر فخمة تغطي النوافذ ذات الشِباك الحديديّة المزخرفة. عند باب إحدى الغرف، أعطاني تلك الأكياس التي كان يحملها قائلًا:

- بدّلي ملابسكِ. لا أريد أن أرى هذا الفستان عليكِ مرّةً أخرى، وخُذي هذا الطعام، إنه لكِ.

وأكمل بلهجة التهديد -المعتادة- وهو ينظر في عينيّ:

- هناك حمّامٌ مرفق بالغرفة، لن تضطرّي إلى الخروج، سأقفل الباب خلفي، المكان محصّن، وسأجدُكِ أينما ذهبتِ، حتى وإن صعدتِ إلى السماء.

ثم ذهب!

أهرب!!؟ إلى أين، وأنا لا أعرف أين أنا، ولا كيف وصلتُ إلى هنا؟!.. جلستُ على طرفِ السرير، أحاول أن أعي ماذا يريد مني، هل سيتركني هنا، لأشيخ وحدي في هذا المكان؟! ساعدني يا الله!.. حضنتُ نفسي، واستجمعتُ شجاعتي.. يجب أن أنتظر وأتقبل ما ينتظرني، لقد أخبرني أصدقائي في المدرسة عديدَ القصص التي تحكي كيف حلَّت ملائكةُ الله، وأنقذَت المتديّنين الصالحين من الهلاك، ومن المؤكّد أنهم سينجدونني ممّا أنا فيه!

ساعاتٌ مرَّت، استوعبتُ فيها محيطي، وهدأ روعي وقلقي قليلًا. كانت الغرفة نظيفةً ومرتبّة، فيها سرير صغير، خزانة، مكتبٌ ومقعد مريح، لكنَّ أثاثها كان متواضعًا بالنسبة لباقي المنزل. ربّما هي غرفة الخادمة.. ربما.. من يدري؟ يبدو أنه ثري هذا القاتل الحقير..

تذكّرتُه فجأةً! فسارعتُ إلى الحمّام مرعوبةً خوفًا من عودته في أي لحظة. عليَّ أن أستحمَّ وأن أبدّل هذا الثوب كما أمرني. وقفتُ تحت الماء الساخن أنظّفُ جسدي وروحي من رائحة الموت. كنت أراقب التموّجات المتدفّقة تتسرّب داخل ثقوب الصرف حاملةً معها ما تبقّى عليَّ من دماء عائلتي، آخذةً معها كل تلك الذكريات، التي أصبحَت في مكانٍ آخر كأنها حلمٌ أو كابوسٌ بعيد. لم أبكِ بعد، لم يعتصِر قلبي حزنَه ويخرِجْهُ من منبع دموعي.. هل أنا ميّتةٌ، أم أنتظرُ الموت بجسارَةِ الأبطال؟ لا أعرف، لا أحد يعرف. جفَّفتُ جسدي وارتديتُ بيجامةً قطنيّة، وتناولتُ ما أحضرَه لي من طعام. تذكّرتُ أمي من جديد، لقد حضَّرَت لنا العشاء وتناولناه معًا قبل أن

يقتلهـا هذا المجرم. ارتجف قلبي، لكنّي لم أستطع البكاء.. مازلتُ أحاول معرفة ما سيحمله عمري، الذي ربّما سينتهي بعد قليل. لم تشعرني حينها قطع الخبز تلك بالشبع، لكن لم يكن هناك ما نأكله باستثنائها.. لقد وُزِّعَت على الصغار فقط، أما الكبار فكان خوفهم وقلقهم هو خبزهم اليومي الذي لا ينضب. أراد أبي الخروج لكي يحضر لنا ما نحتاج، فلم تسمح له، وأصرت أن نخرج جميعا أو نبقى في المخبأ ونواجه مصيرنا القادم معا. وأخيرا، وبعد قرارها الصارم هذا، وافق على الرحيل، وسمعتُه يقول لها:

- لا تقلقي، غدًا سنغادر المكان. سمعتُ أنَّ جنود الأمم المتّحدة قد فتحوا مخيماتهم ملاجئ آمنة للمدنيين، سنبقى هناك إلى أن نتدبر أمر رحيلنا إلى (توزلا). لا تخافي، سننجو بإذن الله.

لم تجبه، لكنَّ وجهها الشاحب قد أعلمني أنَّ الأمل ضعيف... أخفيتُ وجهي في الوسادة، وقرّرتُ الخلود إلى النوم والهرب من موتي الغائب الحاضر.

7

استيقظتُ بعد وقتٍ لم يُحسب مداه، لا أدرك المكانَ والزمان والأشياء مـن حولـي.. جلسـتُ مذعـورًا أراقب، أيـن أنـا؟ بالأمس كنت فـي ثكنتي العسكرية والآن.....

عدتُ لأرتمي على السـرير منهكَ القِوَى، بعـد أن اتّضحَت قراءاتي لِمَا جـرى. أصبح كلُّ شـيءٍ ورائـي.. الماضي، أهلـي، بيت العائلـة، قبورهم، المعسـكر، أجسـاد الضحايـا، معتقـل النسـاء، الأرض المحروقـة، البيوت المدمَّـرة، الكنائـس المهجـورة، سـيّارات الإسـعاف، الآليّـات العسـكريّة وعربات المدفعيّة، أشـلاء المغدورين التي تنهشـها الـكلاب، فرقة الإعدام والقائـد الصـارم، صوت الراديو ونشـرات الأخبـار. الحرب بـكل ما فيها، أصبحَـت بعيدةً جدًّا. صاحبتني أفكاري في السـرير لسـاعاتٍ طوال، فعليَّ ترتيبهـا تفاديًـا لأي عقبةٍ قد تدمّرني، في بلدٍ غريب ذي قوانين مختلفة بعيدة كلّ البعد عن فوضى الحرب. لن يكون سهلًا مع مقاومتي، التي أضحت لا إرادية، لأدنى مشـاعر الإنسانية والاستسلام.. أرغب في الارتماء في حضنٍ يطهِّرُنـي مـن همومـي وحقدي وعنفـي.. أحتاج إلـى منفى أبكـي فيه أهلي وطفولتـي المسـلوبة وضعفي.. تجتاحنـي رغبةٌ عاصفـة بالتحاف الأرض، بتمزيـق ملابسـي، بالصراخ، بالوصـول إلى مكان أكبـر من ذراعـيَّ اللّذَين أحتضنُ نفسي بهما.

لا أعرف لماذا أتيتُ إلى هنا؛ ما أعرفه أني لم أعد أستطيع البقاءَ هناك. مازلتُ في ربيعي الواحد والعشرين، وروحي، قد تجاوزت المئة، وأنا منقسمٌ على نفسي منذ بدأت الحرب!

حلَّ سكونُ الليل أخيرًا، فأخذتُ مفاتيح سيارتي، ومضيتُ أجوبُ الشوارع. دخلتُ إلى إحدى الحانات، وتناولتُ وجبةً سريعة، ثمّ طلبتُ زجاجة ويسكي. أنا الآن غريبٌ يبدأُ حياةً جديدة، كل ما حولي جديد عليّ.. وجوه الناس هنا، الأسماء، الموسيقى، وكأنني تركتُ كوكبًا آخر بكل ما فيهِ من موتٍ وحرب وأصوات انفجارات ورصاص، لأدخلَ بخطوةٍ واحدة إلى كوكبٍ لن أُقيِّمَه إن كان أسوأ أم أفضل، ولكنَّ هذا الكوكب غريبٌ عني، وأنا غريبٌ فيه. أردت أن أتحرَّر من ذاتي، من تعبي، أن أستريح.. فسكبتُ الكأس تلوَ الآخر مراقبًا ذاك السائل وهو يأخذُ مكانه بين مكعبّات الثلج ليُذيبَها ويتلبّسَ برودتها. هذا تمامًا ما أريده.. أريد لذاتي الذوبان، علّني أخرجُ من صلابتي وأكسر صقيعَ نفسي. شربتُ حتى آخر قطرة، ثم خرجت. لم أعرف كيف وصلتُ إلى غرفتي!.. ما هذا السائل الغريب الذي يمحو كلّ ما فيك، فيجعلُ ما حولكَ عالمًا غيرَ ملموس، وأنتَ فيهِ مجرَّدُ وهمٍ ليسَ إلّا!

8

كلّ مـا أفعلُـه هـو مراقبةُ الصمـت، وحيدةً بيـن جدران تلـك الغرفة، لا أسـتطيع إبعـادَ نفسـي عمّا حـدث، كيـف والدمـاء لا تزال تحـت أظافري، وذكريـاتُ طفولتـي تفتـحُ أبـوابَ خزائنها لتنبعـثَ منها عواصـفُ الماضي بحلوها ومرّها، وربما لن أتمكن من إغلاقها يومًا. لا أشعر أنني أريد العودة إلى هناك، أَقَلُّهُ الآن.. إنني ميّتة، والأموات لا يحلمون ولكن لم لا يتذكّرون أيضًـا؟! لقـد مرَّ يومان على وجودنا هنا، وبدأتُ أشـعر بالجـوع بعدَ أن نفدَ الطعـام الـذي أحضره لي. "لمـاذا أحضَرني إلـى هنا وحمَّل نفسَـهُ كل هذه المشـقّة؟" هذا السـؤال كان يطرح نفسـه فـي داخلي بإلحـاح. رغمًا عني اقتحَمَتني تلك الذكريات.. سرقتي للشوكولاتة من خزانة المطبخ وإنكاري ذلـك عندما سـألتني أمي عنها آنذاك، رغم يقيني أنهـا تعرفُ إني أنا الفاعلة، دون أن تشـكَّ بإخوتـي الثلاثـة الذيـن كانـوا يصغرونني سـنًّا، والذين كنت أتحمّل مسـؤوليةَ سـلوكهم رغم أنني كنت طفلةً مثلهم.. هـل الذي أنا فيه، وهذا الجوع هو العقاب الإلهي عما اقترفت يداي؟

أمي كانت طيّبة السـريرة مع بعض القسـوة، أمّا أبي فقد كان قاسيًا جدًّا، لـم أكُن أحبُّهُ كثيرًا رغم مثاليته كربِّ أسـرة يؤمِّـن كلَّ متطلّبات منزله، طبعًا ليس بسخاء، فظروف الحرب قد أثَّرَت على كلِّ شيء. الخوف ممّا ستحمله

الأيـام فـرض وجوده، فطعامُ اليوم يجب أن يكفـي لليوم والغد، ورزق الغد للأيـام الأخرى.. هل كان ذلك يبرِّر قسـوته؟.. لا أذكر يومًا أنه قد طبَعَ قبلةً علـى وجنةِ أحدٍ منَّا.. كان يعمل كمزارع يعتني بالحيوانات، يحرثُ الأرض ويجني المواسـم، عمله هذا كان منتجًا ولكن ليس كما هو الحال مع عمال المناجم الذين كانوا يتقاضون الكثير من النقود عن كل ساعة عمل، فمعظم مدخول أهل سربرنيتسا متأتٍّ من مناجم الفحم الحجري والفضة والذهب. لـم يحبَّ والـدي العمل هناك يومًا، كان يفضّل أن يبقى حرًّا وقريبًا من أمي، التي يُعنِّفها بسـبب أو بدون سـبب رغم حبّه لها، وهي خانعة خاضعة، تحبه أيضًا رغم تلك المرارة التي كانت تسكن عينيها الباكيتين في صمت، وإذا ما حاولنا أن نأخذ موقفًا أو أن نبدي رأينا في موضوعٍ ما، كانت تؤنّبنا..

- إنـه والدكـم، وهـو دائمًـا على حـقّ، لا يجـب أن نعارضهُ فهـو من يتعب ويشقى لأجلنا..

لم أستطع يومًا أن أستوعب إن كانت تحبّه إلى ذلك الحدّ، أم أنها كانت تخافـه، أم تخـاف علينا، أم تخاف من مواجهة الحيـاة بدونه، أم هي الحرب قـد جعلَته المرسـى الآمن رغم خطـورة قراصنته. كثيرًا ما تمنيـتُ موته، أو موتهمـا معًا، وكثيرًا مـا ندمتُ -إن مرض أحدهما أو تأخـر أبي بالعودة من العمل- وشعرت بالخوف من فكرة فراقهما.

أيقَظنـي من شـرودي صوتُ بـاب البيت وهـو يفتح ويقفل مـن جديد. اسـتمعتُ إلى وقـع خطواته إلى أن أقفل باب غرفته. لقد خرج أول المسـاء وعاد الآن عند بزوغ الفجر، ولم يمرَّ عليّ ولم يحضر لي طعامًا! يبدو أنه قد

نســيَ أمر وجودي تمامًا. الشمس ستشــرق عمّا قريب، سأصلّي وأحاول أن أخلد إلى النوم، ربما يُسكت هذا جوعي، وربما يحمل لي هذا النهار القادم ما يغيّر حياتي، أو يُنهيها.

9

أرخت الشـمس أشـعّتها على سـريري فأدخَل نورها بعـض الدفء إلى جسدي المنهك. فتحت عينيّ، فأدركتُ فورًا مكان وجودي، فتسلّل الهدوء إلى داخلي.. اقتحم اسـترخائي فجأة أن تذكرتُ تلك الفتاة.. مسكينة! لا بد أنها قد ماتت من الجوع..

ماهـي إلا دقائق قليلة، حتى كنت أتجوّل في الأسـواق مسـرعًا، أبتاع ما نحتاجه من طعامٍ وشـراب ومسـاحيق تنظيف وأشياء أخرى. بدأَت خططي تتبلور رغم ضبابيّة الموقف؛ لكني لن أستبق الأمور، سأسـير مع ما أنا فيه، ومع كل ما يريحني وما يخرجني من أزمتي هذه إلى النهاية، فأنا حقًا مريض وأريد أن أشفى.. أريد أن أُطفئ ناري هذه.. لست أعلم كيف، لكني سأترك ما فيّ يخرج من باطن أرضي، وربما سـيُكتب لي بعدها بعض السكون. من باب المنزل إلى غرفتها خطوات قليلة ثقيلة.. كانت نائمةً تحتضن الوسادة، فأخذت فرصتي الأولى في تأملها قليلًا، حتى همَّت بعضُ بذور الشـفقة في حقولي المقفرة بالإنبات، سـرعان مـا حرقتها في داخلي آلاف الرصاصات التـي لم أطلقها بعد، وكأنَّ كل ذلك المـوت الذي فرضته على ضحاياي لم يشفِ غليلي حتى الآن!

ناديتها صارخًا:

- أنتِ! استيقظي!

هبَّت من سباتٍ ملائكيّ إلى فزعٍ لم تتوقعه، موقِعَةً الوسادة التي كانت تحتضنها، وموقِعَةً معها كبريائي وجبَروتي وآلاف الضحايا الذين سقطوا على قارعة بندقيتي، أمام اتّساع عينيها وسيل اللعاب من فمها المفتوح وهي تنظر إليّ كمن شاهد فجأة أحد شياطين الجحيم.

- لا تخافي، فلم أقرّر مصيركِ بعد، على الأقل لن تموتي قريبًا.. خذي الأكياس إلى المطبخ وحضري لنا الطعام،! فلم أحملك كل هذه الأميال لتجلسي في السرير وأكون خادمكِ، وكما ترين البيت بحاجة إلى تنظيف، عندما تنتهين من تحضير الطعام انصرفي إلى مهمّتكِ الجديدة.

مشت أمامي بذهولٍ وخوف، وتركتها هناك أمام أكياس المشتريات وعدت إلى غرفة الجلوس. أحضرتُ مسدسي وشرعتُ في تنظيفه وتلميعه.. لمّعت حتى الرصاصات، إنه أغلى ما لدي، إنه مسدس والدي، كل ما تركه لي بعد أن قتلوه، وكان قد اشتراه عند بداية الحرب، حين كانت مشكلتنا في البداية مع (الكروات)، بعد إعلان استقلال دولتهم، فأخذَتهم مطامعهم نحو (البوسنة) بحجة ضم الكروات البوسنيين إلى الدولة الكرواتية.. (راقبت تفاصيل الغرفة من ماسورة المسدس) أي غباء -أو شيطان- جعلهم لم يتوقعوا أن يتصدّى لهم الجيش؟! أتذكر عندما اشتعلت شرارة الحرب ذلك اليوم، في حفل زفاف في سراييفو، حين أطلق مسلّحون بوسنيّون النار على المحتفلين، فسقط واحد من رجال صرب البوسنة قتيلًا، وجُرح كاهن الكنيسة، ثم أصرَّ أهل الضحيّة على الانتقام رغم عدم معرفتهم بالفاعل، وانتقلَت شرارة القتال إلى العاصمة، وأصبحَ جيرانُ الأمس أعداءَ اليوم. عندها قرّر والدي أن يبتاع هذا المسدس لكي يحمي نفسه ويحمينا،

لكن للأسف لم تصل إليه يداه المقيدتان، فقُتل قبل أن يطلق منه ولو طلقةً واحدة. على أية حال، فقد مات نظيفًا، دون أن تُلوّث الحرب بقذارتها يديه؛ بعكسي أنا المنغمس في صراخ الأبرياء من رأسي حتى أخمص قدمي.

وضعَت ما حضَّرَته على طاولة الطعام بعد ما يقارب الساعة، ووقفَت بعيدًا تنتظر الإذن بالجلوس. جلستُ، وشرعتُ في تناول الغداء وأنا أراقبها.

- ما اسمكِ؟

- نوريستا.

- اسمٌ قبيح.. تعرفين أني أكرهكِ؟

نظرَت إليّ باستغراب وفي عينيها ألف سؤال.

- أنتم لم تولدوا إلا لتكونوا عبيدًا عند أعراق أسيادكم؛ أسمعتِ؟ أتفهمين ما أقول؟ أنتِ وجذوركِ البالية.

أردفت:

- لقد انتهيت، يمكنكِ أن تتناولي ما تشائين.

حملَت قطعة خبز وأخذَت تنهشها بشراسةٍ مع ما تبقى من طعام، بينما خطوت مبتعدًا، قبل أن أعود مسرعًا لآخذَ مسدسي من فوق الطاولة خوفًا من أن يقع بين يديها فتغدر بي. يجب أن أكون أكثر حذرًا، فهي ثمرة جذورِ الخيانة، ولو وصل المسدس إلى يدها ستقتلني به؛ هذا مؤكّد.

رأسي يؤلمني، وضميري أيضًا، وكلُّ الأخبار التي وصلَتني من بلادي تنذر بما لا تحمد عقباه.

10

عيناه كانتا تلمعان حتى تخيلتُ أنه سيمزقني، ولكني فوجئتُ به يطلب مني أن أتوجّه إلى المطبخ لأحضر الطعام. عندما مررت من أمامه اكتفى بتلك النظرات الثاقبة التي تنذر بقدوم الأسوأ، وتلك الأنفاس التي تخرج متسارعةً كأنفاسِ حيوانٍ هائج.. كم هو غريب، ممتلئٌ بالحقد والعنف، يفوق طبع والدي بأضعاف! كنت أتمنى أن يأتي فارسٌ جميل ذو ابتسامةٍ ساحرة ليأخذني من والدي ومن دوامته البغيضة، ويحملني إلى البعيد، لكن لم أتوقّع أن أسجن في مكانٍ كهذا، وأن أنتظر المقصلة وهي تُحضر لي دقيقةً بدقيقة.. ما هذا القدر البغيض يا نوريستا، ماذا فعلتِ لتستحقي كل هذا؟ هل لأنكِ سرقتِ قطع الشوكولاتة، وأقسمتِ باسم الله كذبًا؟؟

دخلتُ إلى المطبخ الذي كان بحاجة فعلًا إلى تنظيف، يبدو أنَّ المكان لم يدخُله أحد منذ سنينَ طويلة. مسحتُ الغبار من على الطاولة، ووضعتُ عليها بعضا ممّا أحضَره في تلك الأكياس. لم تكن أعمالُ المنزل جديدةً عليّ، فأنا الابنة الكبرى، ولطالما كنتُ أشبه الخادمة في بيتنا، لوالدتي وإخوتي، ومساعدة لأبي في قَطع جذوع الأشجار وتجهيزها لفصل الشتاء البارد، وفي جني المواسم الزراعيّة والعناية بالحيوانات التي نقتات من إنتاجها.. لقد كان يعتمد علينا أنا وأمي وإخوتي في عمله، أما المدرسة

وواجباتها فكانت المتنفس الذي يرفعُ عنا عبء تلك الأعمال المتعبة. مسكينٌ هذا المجرم يعتقد أنه بهذه المهام سيُتعبني ويُهينني! مسكين هو، لا يعرف ماضيَّ! لا يعرف كَم تمنيتُ أن أموت بين أب ظالم متسلّط وأم منكسرة تكره أطفالًا يجسدون ضعفها، ثم تجيء الحرب بكل قلقها ومخاوفها لتكمل الصورة وتقضي على أي أملٍ في التغيير. ماذا فيما سيأتي سيكون أسوأ مما فات؟ لقد لمحتُه وهو ينظّف مسدّسه في الصالة، وما أرحم هذه الرصاصة القادمة، وما أقسى تلك الرصاصات حين حادَت عن جسدي لتُردي عائلتي! ليتني سقطتُ بدلًا منهم! لقد كانوا وبرغم من كل تلك الظروف، من يربطني بهذه الحياة. آه! كم أتمنى أن لا يطول انتظاري لتلك الرصاصة، فروحي بحاجةٍ إلى الحرّية وبحاجة إلى بعض الطمأنينة.. يجب أن أتحرّر من قيود الحياة بعد أن تحرَّرتُ من الزمان ومن المكان.

11

قبـل خروجي إلى الحانة، قمتُ بتوضيب ملابسـي داخـل الخزانة، مما أدخَل بعض الاستقرار إلى نفسي، فهنا سيكون منزلي ومقري.. غريب هذا، كيف تحفر الأماكن الجديدة في نفوسنا تفاصيلَها؟

أتذكّـر جيّـدًا عندما دخلـتُ إلى تلك الغرفـة في بيت إحـدى العائلات البوسنيّة، والتي حوَّلها المقاتلون الصرب إلى ثكنةٍ عسكريّة.. كنتُ منكسرًا أشـدُّ من عزيمتـي، لكي أغمض عينـيّ وأرمي كل ما في روحـي من أحزانٍ وألم في أحضان فرقة الإعدام هذه. لم تكن حقيقة سـني باديةً على مظهري وجسدي، فممارسة الرياضة شكَّلت بنية جسدي القويّة، وبالرغم منها كانوا يطلقـون عليّ لقـب "الدجاجة"، الذي فضَّلتُه علـى العنف والعراك ودخول أي نزال مع أيٍّ كان..

أعطانـي أحـدُ الرجـال مكانَه، فجلسـتُ بينهـم محـاولًا تجاهل خوفي وضربـات قلبـي، وكأنـي أدركتُ أخيرًا أني أسـير في طريـقٍ لا رجوعَ منه.. وجـوهٌ صلبـة وكأنهـا أقنعـة حديديّـة، أجسـادٌ ضخمـة وعضـلاتٌ مفتولـة تحتضن البنادق كأنها أطفالهم أو أجسـاد عشيقاتهـم.. وصحن سجائر يتناثر الرمـادُ منـه على تلـك الطاولة التي أكلَت أحذيتُهم العسـكرية من خشـبها.

كانت بَزّاتهم مموّهة متدرجة الخضرة، أعرفها جيّدًا.. خوذاتهم، ومخازن الأسلحة، والجعب الملقاة في الزاوية.. لطالما رأيت العديد يرتدونها في الشوارع منذ أن دخل التوتّر إلى سارايفو.

رمقني القائد بنظرةٍ متفحصّة، وسألني بصوتٍ جهير عريض:

- ما اسمك؟

- إيفان دافيتش.

- هل قتلتَ أحدًا قبل الآن؟ هل تجيد استعمال السلاح؟

لا، ولكني أريد أن أنخرط في صفوف الجيش الشعبي لأدافع عن بلادي وناسي.

- حسنًا. سنرسلك إلى التدريب في معسكرات صربيا، الجيش هناك يعدُّ شبابنا قبل أن يلتحقوا بالعمل الميداني، ستبقى ما يقارب الستة أشهر، ولن يُسمح لك بزيارة عائلتك ولن يستطيعوا هم أيضا أن يصلوا إليك، وإن أردتَ العودة فلن يسمحوا لك. فكر مليًا فلن يكون أمامك مجال للتراجع، وعليك أن تقرّر: هل أنت جاهزٌ لهذا؟

ضحكتُ في سري وبكيت، ثم أجبتُه بهدوء:

- إني هنا لأنني قد اتخذتُ قراري، فليس عندي ما أخسره.

لم يعرف بأن أحدًا لن يسأل عني ولن يفتقدني، أو بأني سأشتاق لأحد.. ما كان عليّ سوى أن أشُدَّ الخناق على إنساني، لأموت وأولد من جديد شيطانًا لا يَهاب ألسنة الجحيم!

عصرني الألم من جديد، فخرجتُ إلى الصالة مخنوقًا من وطأة الماضي الموجعة. فاجأني ما رأيت، الأشياء قد ارتدَت حلَّة جديدة، واستعادت رونقها، وسكَنَتها الحياة، وكأنها اشتُريَت الآن، أما رائحة الحساء الشهية فكانت تملأ المكان. دخلتُ إلى المطبخ.. الطعام مُعدٌّ للغَرْفِ ومرتّبٌ بطريقةٍ مدهشة، وكأنَّ من حضره قد أمضى سنينَ عمره بين الأطباق والأواني. لكني لم أرها! أين هي؟

- نوريستا! أين أنتِ؟

لم يأتِني جواب، ووجدتُني كالمجنون أبحثُ عنها في كل أرجاء المنزل وزواياه. وبعد كل هذا القلق، توجَّهتُ إلى غرفتها التي غابت عن ذهني مع تسلُّط فكرة هربها، فإذا بها ممدَّدةٌ على سريرها فاردةً جناحيها خارجَه، محاوِلةً لملمةَ ما تبقّى من قوَّتها التي أنهكَتها كثرةُ أعمال المنزل. تنفستُ الصعداء:

- أيتها اللعينة!! لماذا لا تردين؟

انهلتُ عليها بالشتائم التي لم تخترق مسامعها، فقد رحمها التعب والنوم من سماع أنشودتي. تبًّا لها.. إن كانت تعتقد بأني سأرضى عنها إن نظّفَت البيت وحضرت الطعام فهي حتمًا مخطئة. أوصدتُ الباب خلفي بإحكام، وكل ما أمامي من أبواب، ثم توجّهتُ إلى الحانة.

القلقُ يصرعني، رغم محاولاتي البائسة لإيجاد السكينة والهدوء بما أحتسيه من مسكرات، وكأنَّ نوبات القتل كنوبات المخدر، حين تضربُ الدماغ لن يُسكِّنها إلا جرعةٌ عالية من الموت! بدأتُ رحلتي مع كأسي

الأول، وجالت عيني في المكان وكأني أدخله للمرة الأولى، فبالأمس لم ألحظ أيًا من هذه التفاصيل، ولم ألحظ الموجودين. الكأس الثانية انتهت، وأتى معها المزيد من الهدوء، فأعدتُ النظر إلى زاوية البار، إلى تلك الحسناء بردائها الأحمر المثير وكأسها الممتلئة بُغية احتسائها على شرفي. أجل، كانت تراقبني منذ دخولي.. الكأس الرابعة، إنها تضحك لي، رفعَت الكأس وهي تحيّيني:

- مساء الخير أيها الوسيم! (ماغي). اسمي ماغي.

- أهلًا بكِ.. إيفان.

- آه أنت غريب عن هنا! توقّعتُ هذا لكني لم أكن متأكدة، فملامحك مختلفة بعض الشيء.

- لا أحبُّ من يطرح الأسئلة الكثيرة. إن أردتِ الجلوسَ معي فالتزمي الصمت.

أجابت بدلالٍ وهي تبتسم محاولةً إخفاء استغرابها من سلوكي الفظّ والجاف معها:

- هذا أفضل، فهناك أشياء كثيرة لا يستحبّ فيها الكلام، فلغة الجسد خير رسول!

رغم جمالها الفاتن وردائها المثير وإعجابها الظاهر بي، لم تحرّك مشاعري، وكأني قطعةُ جليد. وضعَت قدمها على ساقي وصعدت بها إلى الأعلى وعيناها معلّقتان في عينيّ:

- أتعلم أنك وسيم جدًّا، وملامحك رائعة، وجسدك قوي البنية وفيهِ رجولةٌ قلَّما أجدها في شباب هذا الجيل؟

جاوبتها بحزم:

- ألن تتوقَّفي عن الكلام؟

- سألتزم الصمت عندما تأتي معي! فمنذ أن دخلتَ إلى هنا البارحة ورحلتَ، رحلَت روحي معك وتمنّيتُ عودتك، فلا تضع عليَّ هذه الفرصة.

انتهت زجاجتي وعددٌ من الكؤوس الأخرى، وأصبحتُ كقشّةٍ هشة تتأرجح مع الريح. عانقتني ومشت، وبعد قليل وجدت نفسي ملقًى على سريرها.

وبرغم إغرائها واحترافها الذي أغواني وأثارني، لم أكُن حاضرًا، فأصوات النساء في المعتقل لا تزال تُدوّي في مسمعي.. تلك الأصوات الخاضعة والمتوسّلة وحدها متعتي التي تُحرّكني في ثوانٍ دون إغراءٍ ومقدّمات. لقد كان صراخهنَّ قمة نشوتي وقمة إثارتي.

جالت بيديها وأناملها، وكأنها تبحث عن كنز ما، كالأعمى الذي يستدرك الطريق الى دياره:

- هيا يا مالكي، استجب فأنا كلي لك يا مدللي!

نداءاتُ الجنود على أجهزة اللاسلكي، قرقعةُ السلاح وصوت الرصاص، صراخُ المغتصبات على طاولاتِ الطعام في قاعة المطعم، صوت المذيع يعلن عن بداية الحرب.. صرختُ قائلًا:

- ابتعدي عني! دعيني وشأني.

رميتها بعيدًا، وغرقتُ في النوم عارّيا على سـريرها، يشـلني ما يسيل في دمي وما يُداهِم مخيلتي، فلم أستطع أن أستجمع نفسي وأشيائي وأرحل.

12

بعد انتهائه من تناول الطعام، سمح لي بأكل ما تبقى، فأخذت ألتهمُ قِطع الخبز كحيوانٍ جائع. حين لمحتُه بطرف عيني يحمل مسدّسه ويدخل الغرفة، بلعتُ ما تجمّع في فمي بصعوبة، وشعرت بالارتياح عندما أقفل الباب خلفه، فقد تأجّل موعد موتي. رتّبتُ أكياس المشتريات ووزّعتُ الأشياء التي أحضرَها في خزائن المطبخ، وبعد أن نظّفتها لم أجد ما أفعله فقررت أن أنظف المكان، علَّ هذا يُنسيني مأساتي المنتظرة. جُلت في الصالة، على المقاعد، والطاولات، والتحف الجميلة التي تملأ المكان، وعلى زجاج النوافذ، وبلاط الغرف وأرض الصالة الخشبية، السجاد والستائر ما أفرح قلبي تلك المكتبة الكبيرة التي كانت تغطّي حائط الصالة كليًّا، بمئات الكتب بألوان وأحجام مختلفة؛ لو قُدّر لي أن أحيا سوف أقرأُها كلها.

مسحتُ عنها الغبار بريشة التنظيف، ووعدتُ نفسي بأن أعود إليها لاحقًا لأفرز كلًّا منها على حِدَة، فالقراءة صديقةُ عمري ومؤنسُ وحدتي في أوقاتي القليلة التي يفرغ أهلي من رمي أثقال الحياة على عاتقي فيها، فأترك نفسي بين الصفحات وكأني في حدائق الجنة. رغم كل تلك المشاغل، كنت من الناجحين، ومُدرّسةً رائعة لإخوتي أيضًا حين بات ذهابنا إلى المدرسة غير منتظمٍ، تقاطعه أصوات الانفجارات وصفارات الموت، فيدبُّ الذعر

في قلوب المعلمين ونُكمل نهارنا في مخبأ المدرسة، إلى أن يحضر الأهل ليصطحبوا أولادهم من جديدٍ إلى البيوت أو إلى الملاجئ، وأنا أحتضنُ إخوتي وأنتظر أمي التي كانت تسابق الريح إلينا، وعندما أراها يبرد صدري ويملؤني شعور بأني ما زلتُ طفلة تستمتع بالحماية. في ذلك الوقت الطويل في الملاجئ، كنت أكمل دروسي ودروس إخوتي، هذه الحرب اللعينة جعلتني ادرك مبكرا بأنَّ الخوف ثمرة الجهل وأننا لن ننجو من ظلامه إلا بالعلم، وأردتُ أن أصبحَ مدرّسة. وها انا هنا الآن وقد أصبح بقائي على قيد الحياة حلمًا ميّتًا آخر، كحلم متابعة دراستي وعودتي الى المدرسة، وربما تكون هذه الساعات هي ساعاتي الأخيرة.

انقبض قلبي من الخوفِ وتجمَّدَت أناملي.. أرجوك يا إلهي ساعدني، فقدرتي على تجاهل واقعي باتت معدومة!.. دخلتُ إلى المطبخ من جديد، بعد أن انتهيتُ من تنظيف المكان، حضَّرتُ بعض الحساء وتناولتُ القليل منه وقد أنهك التعب قواي بعد ساعاتٍ طويلة من العمل، وهو لا يزال في غرفته.. تلك الغرفة التي يرتجف قلبي خوفًا عندما أنظر إلى بابها، حيث يقبع خلفه قاتلٌ مسلّح، عيناه رغم جمالهما تحملان بين خضرتهما نيران جهنم، وصورته وهو يطلق النار على أهلي لا ولن تفارق مخيلتي.. يا الله، أتمنى أن أموت سريعًا..

دخلتُ إلى غرفتي هاربة من كل ذلك، واستلقيتُ على السرير وغرقتُ في نوم عميقٍ. النوم نعمة لا ندرك قيمتها، فهناك فقط نصبح ذوي أجنحة ونتحرر من أدران الحقيقة!

13

استيقظتُ لأجد نفسي في سرير تلك المرأة.. كانت لا تزال نائمةً قربي بجسدها العاري، تبًّا! لقد أدركتُ ما حصل، وما حصل كان مخجلًا. هل أنا بحاجةٍ إلى علاج جسدي أيضًا، مع العلاجات النفسية الأخرى التي تؤرقني؟ لا يجب ألّا أُحبط نفسي، إني بحاجةٍ فقط إلى بعض الوقت إلى أن أخرج مما كنتُ فيه، وأتقبّل ظروفَ حياتي الجديدة، فما زال تعطُّشي للدماء ولتوسّلات الضحايا هو ما يروي مشاعر الجبروت في داخلي، صعبٌ جدًّا أن أكبحها بين ليلةٍ وضحاها، وأرقص الفالس على أزيز الرصاص وصوت الصواريخ والمدافع.

حاولتُ النهوض، ففتحت عينيها بجهد، وتمتمت بحنان وهي تبتسم:

- آه استيقظت أيها الوسيم؟

أكملت وهي تحاول احتضاني، عابثةً بأناملها في خصل شعري:

- لم تكن ليلتك أيها المحارب، فلقد أسرفتَ في الشرب، وشتت هذا تركيزك عني.

شمّت عُنقي وهي تقبّلني بلهفةِ العاشقة وكأنها حبيبتي منذ أجيال:

- تعال إليّ فأنا أحبُّ مغامرات الصباح!

عدنـا لنعيد تفاصيـل ليلة أمس، لكن دون جـدوى، لقد كانت جوارحي في مكانٍ آخر، وهي بخبرة عاهرة أدركت شرودي، فقالت:

- إيفان صديقي، أخبرني هل تعاني من مشكلةٍ ما؟

أثار سؤالها غضبي وأخرجني عن طوري:

- أيتها العاهرة، لقد اغتصبتُ عشـرات النسـاء، كيف تجرُئين على سؤالي؟ أنتِ تثيرين اشمئزازي بأساليبكِ القذرة.

نظرَت إليّ بعينين جميلتين ملأَتهما الدهشة، ومشاعر أخرى كنت أهرب منها كالشفقة والتعاطف.. تبًّا لها، فهي لا تدري من أنا.

سـارعت فارتديـتُ ملابسـي، مقـررًا الرحيل قبـل أن أُطبق علـى عنقها وأُنهـي حياتهـا. أردتُ أن أختفـي بسـرعةٍ مـن هذا المـكان ومن أمـام هذه الحشـرة الوضيعة التي تشـكك في رجولتي، وتمنيت لو كان مسدسي معي لأفرغ حشوه في رأسها. يجب أن يمتن، جميع العاهرات، متى ستحُلُّ عدالة الله على الأرض وتقضي عليهنَّ جميعًا، فلن يسـتطيع إيفان وحده أن يطهّر هذا الكوكب من نفاياته؟!

وصلـتُ إلـى البيت ووقفـتُ أمـام بـاب نوريسـتا، أردتُ أن أركله وأن أحطمه وأن أحطم رأسها الصغير. صرختُ بعلوّ صوتي:

- نوريستا! أيتها الحقيرة تعالي إلى هنا.

فتحَت الباب بسـرعة، وقفَت أمامي وهي ترتجف.. تسارعت في رأسي من جديد صور المعتقل الذي كنتُ أجوب غرفَه عدّةَ مراتٍ في اليوم، أتلذّذ

بإحساس نسائه بالذل والمهانة عندما أستبيحهنَّ أمام الآخرين.. رطوبَةُ تلك الأماكن المظلمة، رائحة العفن، والخوف، وأشياء أخرى لم يتبقَ لي منها سوى نوريستا. رأيت فيها في هذه اللحظة كلَّ نساء الأرض، وكلَّ خوَنَتها، وكلَّ القتلة، هي رائحةُ الدماء، وهي عويلُ النساء وصراخُهنَّ. أنتِ يا نوريستا القشّةُ التي سألقي بنفسي عليها، وسأتشبثُ بها لأخرُج مما أنا فيه، وعندما أخرج، سأحطّمك كما حطّمتم عائلتي، أحلامي ومستقبلي.

شعرتُ باللهيب ينبعثُ من عينيّ وكأنهما تشتعلان، ونارٌ أخرى في قلبي وفي أعضائي.. مرَّرَتُ يدي على شعرها الطويل لألمسه للمرة الأولى. انتابتني مشاعرُ العظمة والسطوة.. أحسستُ بارتجاف جسدها، وبتقطُّع أنفاسها.. آه! الآن أحس نفسي أكثر، هذا أنا إيفان الذي سحَقَته الحياة وقام من الموت لينتقم، أنا السيد المتحكم بمصيرك أيتها الطفلة وضيعة الجذور، هل تحسّين سطوتي؟ لقد مات أهلكِ أمام عينيكِ مثلي، ولكني سأنتقم منكِ كل ثانية، أما أنتِ فلن تستطيعي منعي، ولن تقوي على عقابي. كنتُ بحاجةٍ إلى بندقيتي، إلى خضرة السهول لكي أزرع الجثث في ترابها!

- نوريستا، قبّلي قدمي!

لففتُ شعرها على يدي، وجعلتُ وجهها على حذائي، ثم رفعتُ رأسها من جديد، فتقابلَت عينانا..

رائع يا نوريستا؛ إنني أشعرُ بنفسي من جديد، لكن لم يحن الوقت بعد!

تركتُ شعرها وجسدها المرتجف خلفي ودخلتُ غرفتي. كنت متعبًا حتى الموت، كيومي الأول الذي وصلتُ فيه إلى هنا. يجب أن أستريح، هذا كل ما كنتُ أريده!

14

سـمعتُ صراخه وهو يناديني. لا أعرف كيف أصبحتُ وبخطوةٍ واحدة أمامـه. وكأنه ثورٍ هائـجٍ ينفث النار من أنفه الضيـق، ارتجف قلبي لا أعرف ما سـيحلُّ بي.. ربما أعرِف، وربما ما سـيحدث سـيفوق توقعاتي.. أحنيتُ رأسي بانكسارٍ مستسلمةً لقدري، فمرَّر يده الضخمة على شعري،.. يا الله! ارحمني أرجوك!..

- "قبّلي قدمي"،

قالها بكلِّ جبروت، وهو يرفع رأسـه عاليًا كجبار على عرشـه. وقبل أن أسـقط أرضـا، لف شـعري على كفه وضغطَ على رأسـي حتـى لامسَ فمي حـذاءه، ثم رفعني من جديد فالتقـت عيوننا. كانت المرة الأولى التي تتقابل فيهـا نظراتُنا.. سـرى في جسـدي إحسـاسٌ غريب! عينـاه غريبتـان مليئتان بالأسـرار السـاحرة؛ لولا هذا الحقد الذي يتطاير منهما! ما الذي دفع به إلى هـذا البغض؟ مـاذا حدث معه؟ أي ألم حوَّله إلى وحشٍ كاسـر ولم يزل في مقتبل الشـباب.. يا الله! ارحمني منه وارحمه من شـر نفسـه ودعني أموت الآن، أرجوك.

مـا أدركتُـه أنَّ موعـد عقابي لم يحن بعـد، ثم أفلتَ شـعري وذهب إلى غرفته، وبقيتُ في مكاني لا أعرف كم من الوقت، وقد ابتلَّت ملابسـي دون أن أدري، وساقاي لا تقويان على حملي إلى غرفتي من جديد.

أمـي!.. سـامحيني يـا أمـي.. أفهمكِ الآن! أشـعر بكِ، أحـس بضعفكِ وبقسـوة الواقـع عندمـا يحكمنا رجـل طاغية! أمي سـامحيني.. أسـتوعب ظروفـكِ وأسـتطيع الآن أن أفهـم انكسـاركِ، هـا أنـا، المتمـردة التي كانت تكرهـكِ لضعفكِ وتكره خنوعكِ، أقبَل حذاء هذا الغريب مجبرةً، خوفًا من رجـلٍ فـرض عليّ من القـدر دون حولٍ مني ولا قوة. وأنت يـا أمي.. عندما يأتي الظلم ممن نحبُّ ونعرف ونضحي من أجله يكون الجرح أكبر والوجع أكبر، أليس كذلك يا أمي؟.. أريد أن أبكي لأول مرة بعد موتكِ، ولكن ليس لديّ دموع.. أريد أن أبكي علّ البكاء يطفئ شيئًا من مرارتي، لكنَّ ألمي أكبر من أن يستوعبه النحيب!

استيقظتُ من شرودي بعد وقتٍ طويل، عدتُ إلى غرفتي وأقفلتُ الباب خلفي لأمنح روحي بعض الهدوء والسكينة. لقد وصلَت إلى مسمعي أخبارٌ كثيرة عن اغتصاب النسـاء وموتهنَّ خلالَ ذلك، رغم حرص أمي على إبعاد أخبـار ويلات الحرب عـن آذاننا أنا وإخوتي، لكني تتبعت بعضها بحشـريّة الطفولة والخوف من الآتي، وعرفتُ أنّ المقاتلين يجمعون النساء ويمزقون ملابسـهنَّ ويضربونهنَّ حتى تسـيل دماؤهنَّ ويتداورون على تعذيبهن، إلى أن تسـقط الضحايا أرضًا فيرمونهنَّ جانبًا ويحضرون نسـاءً أخريات ليعيدوا معهـنَّ فصـول لعبـة الإذلال والقتل تلك ومـن جديد. أعتقد أنـي اغتصبتُ الآن. وبدلا من أن ينزف جسـدي تسـرَّبَت روحي من أطرافه.. أشـعر بشللٍ يُعيق حركتي. هل أصبحتُ معاقةً ومغتصَبة؟!

15

في الحانة، تلك الدوامة التي أدخُلها باختياري محاولًا اختبارَ كل تفاصيلها، أراقب ذلك السائل وهو يسري في جسدي فتتراقص الأشياء أمامي ويصبح همي الوحيد أن أحمل نفسي، أن لا أسقط.. ها هي تلك العاهرة تعود إليّ من جديد.. تنطق اسمي بصوتها الأنثوي الساحر:

- إيفان أعتذر، أريد أن أطمئن عليك، هل أنت بخير؟

جاوبتها بفظاظة وبلسان متلعثم:

- ليس من شأنكِ حالي وما أنا عليه.

- ستأتي معي الليلة؟ لقد أحضرتُ لك مفاجأة ستسعدك!

- لن أذهب مع أحد! سأكمل زجاجتي وأعود إلى منزلي.

تركتني وهي ترمقني بابتسامة خبيثة، وكأنها قد عرفت مسبقًا ما سيحل بي. ساعات مرت، غادر رواد الحانة وبدأ العمال في تنظيف المكان، ومازلتُ جالسًا هناك غير قادرٍ على الحراك. عادت إليّ وتأبّطت ذراعي، وأخذتني معها إلى نفس الغرفة. كان تأثير الكحول يُعييني، فوضَعَت كبسولةً في فمي وأتبعَتها بالماء:

- إيفان هذا الدواء سيُذهِب عنك دوارك وستصبح أفضل.

بعد دقائق، حلَّ على جسدي شعورٌ غريب أعرفُه. شعور عايشته على مدار سنين، لقد كانوا يوزّعون علينا المنشّطات والكحول عند دخولنا إلى معتقل النساء، لنتحوَّل بعدها إلى مخلوقاتٍ تعود بطبيعتها الكاسرة إلى عالم الحيوان، فاقدة للعقل والمنطق، وترانا نجوب الغرف ونشبع ساكناتها ضربًا واغتصابًا، أمام أطفالهنَّ الذين ولد بعضهم في هذا الظلام والبعض الاخر كانوا قد اعتقلوا مع أمهاتهم.

شعرتُ بنفس الروح تعود إليّ، تنبَّهَت كل أعصابي وخلاياي وأصبحَت أكثرَ اتقادًا، وكأنَّ ما يسير في عروقي نارٌ وليس دماءً.

ثم أعادني صوتُ فحيحها الناعم الى واقعي الذي أكرهه..

- حالك أفضل إيفان أليس كذلك؟

أشعر برغبة في الصراخ.

- اصرخ في جسدي حبيبي!

- لا أستطيع. رغبتي بكِ تقف عند حدود الرغبة، لا تستطيع أن تتسرّب إلى جسدي.

- تستطيع.. يجب أن تصدق هذا.

لم أستطع أن أستجمع تركيزي، مرة أخرى تلك الصور المتتالية، لتلك النسوة، صراخ أمي وأختي، أجزاء متقطّعة من كل مشاهد الدمار والموت التي حاصرتني، سنوات أربع لاحقتني بتفاصيلها.. طوّقتُ عنقها بيدي، أردتُ أن أخنقها.. تحوَّلَت ليلتنا إلى جحيم، أبعَدَتني عنها بمعجزة،

صرخَت بوجهي، طردتني خارجًا، ارتديتُ ملابسي وانا أهرول هاربا راكضا.. رحلتُ وناري تتأجج من كل ما حولي وكل ما بي.. ومن الكحول وتأثير الدواء الذي أعطتني إياه، رجولتي بحاجةٍ إلى جسدٍ ضعيف يحقق لي انتصاري، جسد ضحية وليس جسدَ امرأةٍ أُقيم معها لعبة الحب. أسرعتُ إلى البيت، فليس سواها من تصلح لهذه المهمة.

- نوريستا!

ناديتها صارخًا حتى ارتجّت أركان الصالة من صدى صوتي، فهرعت إليَّ.. لم أنظر إليها، لم أكن أراها، رميتها على طاولة الطعام كما كنت أُحبّذ اغتصاب ضحاياي.. صرخَت، توسّلَت، فاطمأننت لهذا أكثر.. حاولَت الفرار فطوّقتها من الخلف وألصقتُ جانبَ وجهها بخشب الطاولة، حتى كاد رأسها أن يتفتت تحت قبضتي. استعدتُ أمجادي.. اغتَصبتُها كما اغتُصبَت طفولتي وكما رُميت إلى الحرب دون إرادةٍ مني.. لولا هذه الحرب ربما كنتُ الآن في الجامعة أدرس الطب أو الطيران أو الهندسة، لكني هنا بسببهم، ويجب أن يتحمّلوا معي مسؤولية ما حل بي.. أمتعني صراخها وتوسلها، تلذّذتُ بهذا حتى ذروة النشوة، وقفتُ خلف جسدها المثبّت على الطاولة كملكٍ يمتلك العالم، هكذا نغتصب النساء.

تركتها مكانها وعدت إلى غرفتي.. لم يُتعبني ضميري، ولم تمرَّ نوريستا وما حل بها بتفكيري، وإنما غفوتُ غارقًا في دم إنسانيتي، التي عاد نزيفها ليقتلني لاحقًا وبصمت.

16

لـم أنم جيـدًا، ففي الليلة السـابقة نمتُ مليّا حتى ضجر جسـدي وتألم جانبـي من الاسـتلقاء على الفـراش.. أيضًا لـم أفكر بالخروج مـن الغرفة، رغم غيابه عن المنزل. كان حدسي ينبئُني بشيءٍ ما بات قريبًا، كإعصارٍ تنبئُ بقدومه الغيوم والرياح.

أتانـي صـوت البـاب يفتح، ثـم يغلـق بالمفتاح مـن جديد، فتسـارعت نبضـات قلبي وارتجفت.. تلاعب صدى صوته بفـراغِ المكان وهو يناديني بدويٍّ أشـبه بالرعد، فتعثّرَت خطواتي وأنا أركض إليه. وقفتُ أمامه وكأنني أمـام مقصلتي.. رحت أبحث بيـن ملامحه عن جزءٍ صغير في مكان ما، عن روحٍ حيّة أستجدي منها الرحمة، ولكني عبثًا كنت أحاول.. قال لي آمرا:

- تعالي نوريستا، اقتربي أكثر.

أطعت واقتربتُ، فأمسـك شـعري وجذبني إليه، وجعل ظهري ملاصقًا لجسـده.. حملنـي ورمى بـي على طاولـة الطعـام، فحاولـتُ الإفلات من قبضتـه.. توسـلت، قبلـت يديه، رجوتـه أن يتركنـي.. كان غائبًـا عن الوعي وكأنه لا يسـمع ولا يحسّ.. ثنى جسـدي على حافة الطاولة، وضغطَ رأسي على خشـبها بعد أن لفَّ شـعري على يده.. توسّـلتُ الموت، توسلتُ أهلي وروح أمي، وتوسّـلتُ الله، فلم يسـمعني أحد، فطرقتُ باب الشـيطان علّه

ينجدني من رائحته الغريبة وأعضائه المتصلبة كقطعةٍ حديدية، لكن جميعهم خذلوني وتُركتُ وحيدةً أمامه.

شعرتُ بروحي التي تسكن داخل جسدي تُنتزع، بعد أن لم تعد تطيق ألمَه. لم تستوعب دقائقي القليلة حقيقة ما يجري.. إنه يقتلني، إنني أختبر الموت. ماذا يحدث؟ هل هذا هو الشيطان الذي قرأنا عنه في كتب الدين، والذي يدخل أجسادَ البشر يستبيحها ويسكنها متخلصًا من ثوبه الآدمي الذي يرتديه؟ كل ما فيّ يؤلمني حتى الموت.. رأسي الذي يكاد أن يخترقَ خشب الطاولة تحت ضغط يده.. صدري الذي بالكاد يعبر إليه الهواء.. أجزاء أخرى كان محرمًا عليّ لمسها.. رغم الصراخ، صراخ الألم والانتقام، كنتُ أسمع صوتَ تمزّقي وصوتَ انسحاقي تحت وطأة سطوته، إلى أن حلَّ الصمت ولم يتبقَ سوى أنيني المستسلم، فأرخى يده عني.. فاكتشفت أني لم أمت بعد!

شعرت بسائلٍ دافئٍ ينساب على فخذي.. هل هي روحي تنسحب مني؟ ابتعدَ عني ودخل إلى غرفته، وظللت مكاني غير قادرةٍ على الحركة؛ رغم أني حية، لم أمت بعد! لماذا لم يكمل قتلي؟! تساءلت، وحاولتُ الوقوف، فإذْ بقدميَّ تغوصان في بركة لزجة من دماء حمراء.. شيءٌ من تلك الدماء التي سالت من أجساد عائلتي، ومن أجساد جيراني، ونساء مدينتي.

- نوريستا إن لم تموتي الآن فستموتين لاحقًا آلاف المرات!

مشيتُ بجهدٍ إلى غرفتي والألم يمزق أحشائي. وصلتُ إلى السرير بصعوبة، وهويت عليه دون حراك. لقد خذلني الجميع، حتى الله العادل الرحيم! أردتُ أن أبكي، أن أذرف الدمع.. لكني لم أستطع، رغم عويل

روحي ونحيبها. افتقدتُ أمي، وشـعرتُ بنفسي وكأني قد خذلتهُا.. أنا التي وعدتها بألَّا يلمس أحدٌ أماكني المحرمة. كرهتُ أبي أكثر، فهو جزءٌ من هذا الحيـوان، لا تـزال في مخيلتي لحظـاتُ غضبه من أمي، والتـي كانت تنتهي بخلوةٍ مطوّلة في غرفتهما، لتخرج بعدها من خلف الباب المقفل باكيةً مثلي. أمي، احضنيني.. سـامحي كرهي لضعفكِ أمامـه.. أنا الآن أعيش ظروفكِ، أتلقى غضب الرجال بجسـدي ويداي مكبلتان، أنزف وحدي وأنت بعيدة.. كنـتِ تخفين دموعكِ لأننـا كنا نراقبكِ، وأنا الآن أختنق أيضًا، ولا أسـتطيع البكاء لأنَّ كل نساء الأرض وأطفالها يراقبونني.

شعرت بدوار يجتاحني، وأنا أعتقد أني سأموت!

17

فتحتُ عيني بعد نومٍ طويل، وألم رأسي يقودني إلى الجنون. خرجت من الغرفة، فشاهدت بركة الدماء، وآثار أقدام نوريستا ترسم خطواتها على الأرض لتخترق باب غرفتها المفتوح.. صعقني المشهد، وكأني استعدت ذاكرتي من جديد..

إيفان ماذا فعلت؟ هل ماتت؟ لكن لم أرد قتلها! لقد كنت مخدرًا تمامًا.. إيفان ماذا ستفعل الآن بجسدٍ ميت؟ ومن سيشفي جراحك بعد اليوم؟

شعرتُ بنارٍ ضارية تحرقني، نار تفوق ألفَ متعة وألف رغبة وألف انتقام. أردت أن أركع، أن أتبدَّد عند أقدام الله. أردتُ أن أحطم المكان وقد شعرت بكينونة الحيوان القابع في داخلي.

يا رب، يكفيني ما عانيت من ألم، أنا أيضًا ضحية، لقد فعلَت بي الحياة ما فعلتُه أنا بها.. لقد نزفتُ أنا أيضًا حتى الموت، ومازلتُ أنزف، وما تبقى مني جسدُ حيوانٍ بلا روح! يا رب سامحني، لم أرد أن أقتلها أو أن أؤذيها.. أنا أتشظّى بصراعٍ مُرٍّ في داخلي، أريد أن أشفى، أريد أن أموت سليمًا لكي أذهب إليك. ضحاياي يطاردونني، انني أخاف منهم، لم أرغب أن يحدث ما حدث، لم أحلم بأن أكون قاتلًا، ولكن كان يجب أن يموتوا، فإن لم نقتلهم فسيقتلوننا دون رحمة!

هبَّ في داخلي إعصارٌ مريع واجتاحتني جرأة مواجهة صنيع يدي.. ركضتُ إلى غرفتها، فوجدتها على السرير وقد رسمت الدماء دائرةً حمراء على شراشفها البيضاء، وفي داخلها كانت هي كزهرةٍ ميتة أحرقتها أشعة الشمس. وضعت أصابعي على عنقها..

- مازالت حية.. نوريستا استيقظي!

ضربت خديها بلطف، ناديتها بلهفة..

- نوريستا، لا تموتي.. أنتِ نصفي الآخر.. أنتِ من سيساعدني.. أرجوكِ عودي!

أدركت أنها في غيبوبة. أسرعت إلى المطبخ، فأخذت كوب ماء أذبت فيه الكثير من السكر، وعدت إليها، فجلست على السرير وسويت جسدها في حضني.. وضعت رأسها على صدري وقربت الماء قليلًا من شفتيها:

- افتحي فمكِ، اشربي على مهل..

تململَت وحاولَت فتح عينيها.. أخذت جرعة من الماء ابتلعتها بصعوبة. حلَّ شيءٌ من الطمأنينة في داخلي أنها حية. عندها، عاد ذلك الشرير ليهدئ قلقي، فحملتها إلى غرفةٍ أخرى.. كان عليَّ أن أخفي آثار الدماء، فهذه المادة بلونها ولزوجتها تثير الاشمئزاز في روحي وتتعب نفسي. غريب! لم أكن يومًا هكذا، هل هذا تحوّلٌ منطقيٌّ؟ أم أني أعود فعلًا إلى طبيعتي قبل أربعة أعوام؟

ساعاتٌ من العمل، وعاد المكان إلى ما كان عليه. بدّلتُ ملابسها وحملتها إلى سريرها من جديد. وضعها لم يكن مطمئنا، كأنها في شبه

غيبوبة تصارع الموت لتعود الى الحياة. أجبرتها على تناول الحساء الذي حضرته لها، وأطعمتها بيدي.. لم أفهم نفسي! هل وجود الضحية هو ما يكمل دور الجلاد؟.. ربما.. فبدون العبيد لا قيمة للأسياد، وسيموتون خلفهم لأنهم سيصبحون لا شيء! ربما خوفي هذا عليَّ وليس عليها!

إيفان، إنك لشيطان مسكين! قد نُفيت من الجنة ولستَ من أبناء النار.. أنت منقسمٌ على ذاتك أيها المسكين، نهايتك ستكون أغرب من بدايتك ومن طفولتك ومن حاضرك!

هذا ما كانت تبشرني به أصوات السماء، نداءٌ لا ينقطع ولا يخبو.

18

- نوريستا استيقظي أرجوكِ!!

سـمعت صوته يناديني.. ماذا؟! مازلتُ حية ولم أمـت بعد!.. تململتُ قليلًا وحاولت الحراك فلم أستطع، جسـدي يشـله الألم وكأنَّ هناك سـمًّا يجري في عروقي. أجبرني على شرب الماء، فأنعشني ما شربت قليلًا..

شعرت بحنوّه وقلقه عندما حملني بحرص إلى إحدى الغرف المجاورة، ليعيدني بعد وقت لم ألاحظ مروره إلى سريري، وكان نظيفًا كيوم وصولي، ثم بدّل ملابسي ونظف جسـدي محاولًا محو ما حصل ورميه في سراديب النسـيان.. وكأنـه شـخص آخـر، لم أفهم سـر تحوله هـذا ومـاذا يريد مني. اسـترقتُ النظر إلى عينيه وهو يحاول إجباري بلطف على تناول الحسـاء.. لـم يكن نفسـه من اغتصبني، وكأنَّ ذلك الشـيطان الذي كان يتلبّسه قد غادره إلى الأبد. مسـح فمي بالمنديل، وسوّى الوسادة خلف رأسي والغطاء حول جسدي.. أقفل الستائر، حتى أصبح نور النهار شبه معدوم، ثم خرج.

أردتُ أن أرتمـي بيـن ذراعيـه وأبكـي، تمنيـتُ أن يحتضننـي، كم كنت بحاجـةٍ إلى هذا الاحتضان. عجيـبٌ هذا، هل يحب المرء جلّاده؟ ماذا حل بي؟ هل أصبح هو أمي وأبي وصديقي وعدوي وقاتلي ومحييّ؟ أول غريب

يقرب جسـدي، يا أمي أمسـيتُ أفهم! فبرغم معاناتكِ لم تسـتطيعي العيش دونه ولا الابتعاد عنه.

أتعبتني سفرات أفكاري، فاستسلمت للنوم، فلن يكون هناك من يستحقّ أن أشفق عليه أكثر من نفسي.

19

كان علـيَّ أن أرتب حياتي من جديـد. أن أبني حولي صداقاتٍ ووجوها جديـدة بعيـدًا عن الحرب ومآسـيها. قـرار رحيلي كان صائبًـا، فلقد فاحت رائحـة المجـازر ووصلت إلى الإعلام الدولي، والجميـع يتهم تلك الكتيبة الهولنديـة بالتواطؤ معنـا. ولكنهم لم يكونوا جاهزيـن للدفاع عن أحد، ولا حتـى عن أنفسـهم، لأنها بلادنـا وأرضنا، ونحن من يقرر ماذا سـنفعل وأين سـندخل ومـن سـنقتل. ما حـدث لم يكـن يروقني شـخصيًّا، وشـعرت أنَّ هناك مؤامرةً محاكة مسـبقًّا، فالجميع سيسـتعمل ما حصل ضدنا، وستُنسى كل معاناتنـا، وكل مـا فعله الأتراك والكروات والنازيـون بنا وبالأقليات في البلقان، وسـيفرضون علينا سلامهم وشـروطهم.. أعتقد أنهم قد حفروا لنا الحفـرة وجهـزوا لنا المائـدة، ونحن وقعنا فيها وسـممتنا نواياها الفاسـدة، كانوا يعرفون بأننا سـنقتل كل من طلبنا وسـلموه لنـا، اعتبروا انهم قد حموا النسـاء والاطفال دون الخامسـة عشـر من الإبادة بعد أن لجأ اهل سربرنتسا للاختبـاء في معسـكراتهم.. رائع.. جيـد ما فعلتَ يا إيفـان.. ها أنتَ خارج اللعبة هنا وحيدٌ، ولم يبقَ لك من دنياك الماضية سوى نوريستا، هذا التذكار المريـر، عـدوّك وصديقك فـي آن. لقد قتلنـي خوفي عليهـا.. لا أريدها أن تموت، فكرهي لها سيساعدني على الوقوف من جديد.

نفضتُ عني غطاء السرير، وارتديت ملابسي وذهبت إلى الحانة، وكانت ماغـي بانتظـاري. ابتسـمت لي من بعيد، وأشـارت لي بالـكأس كي أجلس قربها.. كنت أكرهها رغم إعجابها بي، وأكره ذلك الرجل الذي يسـكب لي الخمر، وهو أيضًا لـم يكن يستلطفني.. أنا فعلًا شخص مقيت ومن الصعب أن يحبنـي أحـد.. حتى هـذه العاهرة لا تبحـث معي إلّا عـن متعتها وإثبات قدرتها على استثارتي..

همست بأذني، بعد أن التصق جسدها بالكرسي التي كنت أجلس عليه:

- أهلًا إيفان، كيف أنت اليوم؟

- لماذا تسـألين؟ هل أخبرك أحد بأني مريض مثلًا، أو بحاجة إلى سـؤالكِ عني؟

خرجت الكلمات من فمي قاسية كالرصاص، فأجابت بحذر كمن ينتظر العاصفة:

- بالتأكيـد لا، فأنـت تبدو بأحسـن حـال. هي فقـط مجاملة تقـال، وأعتذر لإزعاجـك، وبـكل الأحـوال لـم أكن أنـوي الـكلام معك بعدمـا حدث بالأمس؛ كدتَ أن تقتلني!

قالت هذا وهي تتحسـس عنقهـا، ثم أدارت ظهرها لـي وراحت تراقب زبائـن المقهـى، فأدركـتُ أني قـد ارتكبت حماقـةً جديدةً. علـيَّ أن ألطف الأجواء، فهي الوحيدة التي تهتمُّ بي في هذه المدينة بغض النظر عن انتمائي. طلبتُ من النادل أن يسكب لنا الويسكي، وعدتُ لأحدّثها:

- هل أنتِ من هذه المدينة؟

استدارت من جديد وأجابتني باستخفاف:

- لا لكني أعيش هنا منذ زمنٍ طويل.

- ماذا تعملين؟

ضحكَت بصوت عالٍ ارتجَّ له المكان:

- أكنسُ وأمسحُ بلاط المعبد!! ألم تلاحظ؟ أم أنك قادمٌ من كوكب آخر؟

- ما الذي حملك على القبول بهذه الوظيفة؟ ألم تجدي أفضل منها؟

- وماذا ستفعل امرأة مثلي لم يحالفها الحظ كي تكمل تعليمها؟ عدا عن هذا، فمتطلبات الحياة كثيرة، وما أجنيه هنا يفوقُ راتبَ مدير شركة، إنها مهنة يا صديقي كأية مهنة أخرى، عرضٌ وطلب، هذا عملي وأنا أحترمه، فكم ارتمى على صدري رجالٌ حملَتهم ظروف الحياة إليّ، بكوا على ذراعي كالأطفال، وداويتُ جروحهم وربتُّ على أكتافهم وشددتُ من عزائمهم، في حين نبذهم أقربُ الناس إليهم، فتراهم يخلعون مناصبهم وجاههم وفقرهم وعقدهم على بابي ويدخلون، ويكونون كما يحبون، حيث لن يدانوا ولن يحاسبهم أحد. حتى عندما ينهالون عليّ بغضبهم وبسخطهم، أتفهّم هذا، لأنني الوجه الآخر لضعفهم، فأنا أفعل ما لا يستطيعون فعله، أقبل نفسي كما هي، وهم أضعف من أن يفعلوا هذا..

سكتَت قليلًا وتأمّلَت عينيّ بصمتٍ ثم أكملَت:

- تبدو شابًّا مرهفًا لم تطحنكَ بعدُ عجلة الحياة..

أجبتها بتهكم:

- ربما.. لكنَّ هذا ليس مبرّرًا مهما قلتِ.

- ربما، ولكن من الصعب علينا أن نختبر ألمَ الآخرين من خلال كلامهم، فالألم لغةٌ لا تُترجم ولا تُصوّر مهما كان الوصف دقيقًا!

- أنتِ محقة.. أخبريني أكثر عن ألمكِ..

- أنا من إحدى دول أوروبا الشرقية.. بلد جميل، دمرته الحرب ومآسيها وما زالت تحاصره رغم انتهائها وحلول السلام.. لربما ما تعانيه المجتمعات بعد الحروب هو المأساة الحقيقة التي لا يحسها الفرد خلال تعرض حياته لخطر الموت، فبعد زوال الخطر تبدأ الأزمات الأخطر بالظهور.. صراعاتٌ جديدة داخلية، تدمّر ما تبقّى من هؤلاء الناجين، فهذا الوشاح الأسود لا يزال يدثّر أرجاء البلاد وكأنّ قصر دراكولا الغامض قد توسّع ليشمل المكان والإنسان، وتلكَ الأجيال التي وُلدت كثمرةٍ للعنف حملت معها رعبَ النساء وثورةَ الرجال المغتصبة.

استرخت قليلا في مكانها..

- المرأة بالذات تحصد هذه الثمرة من جديد، فالحرب تنجب نوعًا غريبًا من الرجال.. رجال قُمعت ثوراتهم وتمرّدُهم، فأنزلوا انكسارهم عداءً على الأضعف المتوافر أمامهم؛ أولادهم وزوجاتهم ونساء بيوتهم.. رجلٌ مذلول أمام صعابِ الحياة، فيصبح طاغيةً على من يشاركهُ الحياة. هذه حقيقة السلام الذي فرض على الشعوب بعد أن فُرضت عليهم الحرب، كأن الإنسان ليسَ إلا آلة نعلّمه القتال والقتل، ونطلبُ منه في النهاية أن ينسى ما قد اقترفت يداه وأن ويردد تراتيل السلام.

كدت أكسر الكأس في يدي، وأنا أنصت لصوت نفسي على شفتيها..

- أنتِ محقة يا ماغي، لقد أصبتِ، أكملي أكملي فحديثكِ يُترجم مشاعري!

- كنتُ أعملُ في تنظيف البيوت، بعد أن تزوَّجت وأنا في الثامنة عشرة من عمري من أوّلِ رجلٍ مرَّ ببابنا. كنتُ أعتقد أنَّ عيشتي معه ستكون أفضل وألطف وأرحم من تمرّد والدي وتسلّط إخوتي، فإذا بالمصيبة أعظم! رُزقت بطفلين خلال أربع سنوات، وكان عليّ رغم حملي أن أعولهما وزوجي، فبعد زواجنا ترك عمله وجلس في البيت مع زجاجة الخمر التي كنتُ أشتريها له مجبرةً مع زجاجاتِ الحليب، مما أجنيه من عملي بالتنظيف في كل مكان، في المكاتب والمتاجر والحانات. وبرغم تواجده الدائم في المنزل، لم يكن ليهتمَّ بالأطفال، فهذا عمل النساء.

مرَّت عشرُ سنوات على هذا الحال، وأنا أُغتصب جسديًا وروحيًا، أما عن الضرب فحدّث ولا حرج.. لكنَّ أكثر ما كان يؤلمني هو بيعي لأصدقائه مقابل القليل من النقود..

أكمَلَت وهي تحني رأسها وتبلع ما تجمّع في حلقها من مرارٍ:

- كانوا هم أيضًا يستمتعون بإذلالي وإذلاله عندما يعيدونني إليه، فيخبرونه عن تفاصيل اللقاء.. وبعد رحيلهم، لا يكون منه إلّا أن يثور وينهال عليَّ ضربًا وركلًا وينعتَني بالعاهرة، وكأنه ينهال على نفسِه وضعفِه وانكسارِه، قائلا "كان عليكِ فقط أن تلاعبيهم وتأخذي نقودهم، وليسَ أن تضاجعيهم وتبيحي لهم كامل جسدك"

أكملَت بعد أن رفعَت رأسها وقد لاحَ شيءٌ من الانتصار في عينيها:

- فـي ليلـةٍ مظلمة سـاكنة حملتُ أطفالـي وانتقلتُ إلى هنا، بعـد أن وفرتُ بعض النقود من عملي.. التقيت برجلٍ طيّب حضنني وأطفالي وتزوَّجني وأمّـنَ سـكني. لكنَّ مشـاكلي لم تنتـهِ هنا، فقـد كان هو أيضـا عاطلًا عن العمل بسـبب بعض الإعاقات المزمنة التـي يُعاني منها، وما يحصل عليه من مسـاعداتٍ لم يكُن كافيًا لإعالتنا. لهذا كان عليّ أن أجد لنفسـي عملًا مـن جديـد، لكن ما يعزيني أنـه طيّبٌ وحنون ويعامـل أولادي كأب لهـم، ويحمـل عنـي أعباء المنـزل.. وكما ترى فرحلـة كفاحي لـم تنتـهِ، وها أنا أعمل هنا لكي أُكمل ما كُتب عليّ!

شـربتُ ما تبقى في كأسـي وطلبتُ كأسًـا آخـر، وانتابني شـعورٌ غريبٌ كالذي أحسّـه تجاه نوريسـتا في بعض الأحيان.. إنني لا أختلف عنهما فأنا ضحية مثلهما وأستحق الشفقة..

مـلأ الحنـو عينيهـا وهي تقـرأ حزن قلبي فـي ملامحي، فأمسـكت يدي بلطف قائلة

- أخبرني عنك يا إيفان، ثق بي، لربما تجد عندي ما يريحك!

أجبتها بقسوة:

- ليـس عنـدي ما أقوله، أنـا رجلٌ وليس لي أن أسـكب أخبـاري على آذان الشفقة والعطف.

تراجعت في فهم محترفة فورًا..

- حسنًا كما تريد.. لكن إن أحببتَ ان تقاسمني يومًا حملك سيسعدني هذا، فربما نجد أنا وأنت سبيلنا للراحة والهدوء..

20

لقد أعاد ذلك النوم العميق بعض الاتزان إلى داخلي. تركت سريري ودخلتُ الحمام.. لقد توقّف النزيف، ولكن الألم لا يزال مبرّحًا، وضعت أصابعي هناك أتحسّسُ ما حل بي، فتذكرتُ وصية أمي:

- نوريستا إنَّ هذا المكانَ من جسدكِ محظورٌ عليكِ لمسُه، هذا حرام.

- لماذا؟

- لا تسألي، وإن لمستِ نفسكِ أو سمحتِ لأحدٍ بأن يلمسكِ سيرميكِ الله في النار! إنها منطقةٌ محرمة تخصُّ زوجكِ المستقبليّ الذي سيكتبكِ على اسمهِ وسيدفع مهركِ وستكونين حلاله هو فقط.

- ولكنه جسدي أنا، لمَ سيصبح جسدي ملكًا لرجل وأنا أمتلكه، هل ستبيعونني له؟

- لا تجادلي، البنت يجب أن تبقى عذراء إلى يوم زواجها. زوجها فقط من يحق له أن يفعل هذا. عندما تتزوجين ستفهمين ما أقول. حذارِ أن تجلسي على الأماكن الحادة أو أن تتسلقي الأشجار وأن تلبسي السراويل الضيقة أو أن تقودي دراجة إخوتك. ان قدّر الله وحدث أي مكروه والدكِ سوفَ يقتلني ويقتلكِ أيضًا، وسوف يرمينا الله في النار، فالله يعاقب المرأة التي لا تصون جسدها بالحرق.

كانـت تعيد هذه الكلمات المرعبة كثيرًا على مسـمعي. لقد كنتُ أخافُ أبـي والله معـا، فالاثنان وُجدا للعقاب، وكيـف نحبهما ونكرههما في آن؟، خفـتُ أن أجلـس وأن أركـض.. خفت من ثيابي ومن رفاقـي لو ارتطم أحدُ أطرافهـم بـي بشـكلٍ عفـوي.. لا أعـرف، هـل أصبـح إيفان زوجـي؟ هل أصبح مالك جسـدي وحياتي؟ لقد اشـترى لي الملابس والطعام الذي آكله واستباح مناطقي المحرم عليّ لمسها، فهل يجب أن أُولي له فروض الطاعة كمـا كانت تفعل أمـي مع أبي؟! لكن هذا مؤلـم جدًّا، كيف يجوز له أن يفعل هذا بي، وروحي تتألم مما حدث؟ إن لـم يكن زوجي، فهل سأرمى في النار كمـا قالت أمـي؟ أنا لـم أختر، فإن كان هذا قدر الله، فكيف سـيعاقبني على ما قدّره لي؟

- تذكـري دائمًا.. إن حاول أحدهـم التحرش بكِ، اقتليه، وإن لـم تسـتطيعي فاقتلي نفسكِ ولا تسمحي لأحدٍ بأن يستبيحكِ.

آه يا أمي، ما هذه اللعنة التي حلّت عليَّ؟ هل يجب أن أقتل نفسي؟ وإن لـم أمت، فكيف سـأتعايش مع خطيئتي هـذه إلى أن يعاقبنـي الله في جهنم على ذنب ليس لي يد فيه؟ هل أقتله؟ كيف لي هذا وأنا سجينته؟!

أخـذتُ حمّامًـا سـاخنًا أزال عـن روحي بعـض القلق، ثـم خرجتُ من غرفتـي بحذر. لـم أجد له أي أثرٍ، بـابُ غرفته مقفل، ويبدو أنه غير موجود. أحضـرتُ بعض قطع الخبز من المطبخ وجلسـتُ في الصالـة أتناولها، وأنا أراقـب المكتبـة الضخمة وما حوَته من كتب بأغلفـة ملونة وأحجام مختلفة ولغـات مختلفة. بعـد أن انتهيتُ من وجبتي، جالـت أصابعي وعيوني على الرفـوف أبحث فيها عن قصصٍ تخاطب سـني وطفولتـي فلم أجد؛ لم يكُن

هناك سوى بعض المجلّات الملونة بلغةٍ لا أعرف شيئا منها، وراديو صغير قديم قد وُضع هناك. في ركنٍ آخر وجدتُ بعض الكتب العربية. أفرحني هذا، فأنا أجيد هذه اللغة ومنذ صغري أواظب على تعلّمها، وقد أجبرنا أبي أنا وإخوتي على الذهاب إلى مدرسة الدين، وكانت قراءة الأحاديث والقرآن رفيق أمسياتنا، وعلى كل واحد منا أن يقرأ لأبي قبل الذهاب الى النوم سورةً من السور التي حفظناها في تلك المدرسة. بابتسامة لا تصحب إلا الذكريات، طافت بذهني تلك السيدة العربية وأولادها، التي التحق زوجها بالمقاومة البوسنية وأرسل عائلته لتسكن بيننا ليضمن أمنها، بعد أن أُعلنت سربرنيتسا منطقةً مسالمة معزولةَ السلاح. حوَّلت تلك السيدة بيتها الصغير في حيّنا إلى مدرسةٍ للغة العربية والدين، وأفرحَ هذا والدي لأننا -وبرغم الحرب- لن ننقطع عن تلقي دروس هذه اللغة التي يعشقها.

كان بالمكتبة كنز ثمين، منشورات وروايات مترجمة للعربية ولغات أخرى كالروسية والصربية والإنكليزية وغيرها، وتأكدت أن صاحبَ هذه المكتبة رجلٌ عالم وشديدُ الثقافة والاطلاع. أخذتُ بعضًا مما أثارَ اهتمامي من كتب، وكذلك الراديو، ووضعتهم تحت سريري. أما المصحف الصغير الذي وجدتُه هناك، فلقد خبأتُه تحت مخدتي. أمي كانت تقول إنَّ كتب الله تحرس حاملها من كل المخاطر. سأصلي وأصلي، علَّ الله يغفر خطيئتي هذه ويحميني من شر هذا الرجل، فلن أقوى على إنهاء جياتي، أما التخلص منه فبحاجةٍ إلى قرارٍ حازم وقوة، لم اكتسبها بعد. سرقني الوقت، ساعات وساعات وأنا أتصفَّح وأقرأ، إلى أن انتزعني من السطور صوتُ الباب يعلنُ خروجَه من البيت، إنه موعده المسائي، ليعود مع بزوغ الفجر وأنا أتحضر

للصلاة. انتابني خوفٌ شديد مع عودة الذكرى القريبة.. ربما سيفعل بي عند عودته ما فعله بالأمس!

احتضنتُ المصحف بقوة.. عله يسمع همس قلبي:

احمني منه يا الله، أعطني القوة كي أحرر نفسي، فإني أضعف من أن أحتمل ذلك الالم من جديد.

21

مرَّ أسبوعٌ كامل وأنا أتجنب لقاءها. شيءٌ بداخلي يؤنّبني ويشعرني بالخجل منها. رحت أمضي معظم أوقاتي في غرفتي منطويًا على ذاتي، أستعيدُ في مخيلتي أشباح الحرب، أنام حتى الظهيرة بعد سهري الليلي مستمعًا إلى أخبار ماغي وقصصها مع زوجها السابق وأصدقائه، كنت أشعر أني أشبهه احيانا. أنا أيضًا اختبأت ونجوت بنفسي عندما قُتلت عائلتي أمامي. لقد كنتُ أعزل وصغيرًا وليس بوسعي فعلُ شيء، لكن كان من الأفضل أن أموت معهم! رحت أجلد ذاتي بسماعها، ولا أملك القدرة على ايقافها، بل لا إراديًا أدفعها أن تحكي أكثر.

ذلك المكان باتَ يثير اشمئزازي وحقدي على نفسي. أرى ماغي كأنها بلادي التي تتلقى الضربات والمتآمرون يحيكون شباكهم حولها، وحولنا نحن بالذات.. "صرب البوسنة"! لم أستسغ هذه التسمية يومًا، كيف ونحن أهل هذه الأرض؟ كيف نصبح منسوبين لأتباع الحكم العثماني وأزلامه، الذين فرضوا دينهم علينا فرضًا؟ كنا نطمح إلى بناءِ دولةٍ قوية كبرى، كما في عهد (تيتو)، و أن يسمى (البلقان) صربيا الكبرى، أو على الأقل كما كان في السابق "الاتحاد اليوغوسلافي إنهم لا يكفون عن تشغيل المذياع بنشرات الأخبار التي تتسرب لعقلي قاهرة كل مخازن الخمر بالحانة. لقد

استنزفتني المحطات الإخبارية حول العالم والمنشغلة بما يدور في بلادنا، بكل تلك التفاصيل المفبركة، كلٌّ على مزاجه وبناءً على مصالحه وما يتوافق مع سياسته، الكاثوليك تدعمهم أوروبا والغرب، المسلمون تدعمهم تركيا والبلاد العربية، وأوروبا والغرب بالظاهر، والأرثوذكس، ولقد كنا محسوبين على روسيا، وها هم يضغطون على صربيا لإنهاء الحرب التي ساهموا هم أنفسهم في إشعالها، وها هو حلف (الناتو) يستعد لضرب بلادي. لقد ثار جنوني مما سمعت تلك الليلة، فشربت وشربت حتى الجنون، عدت إلى البيت واقتحمت غرفة نوريستا، أخنقها بإصرار وترصد، وأرمي عليها مسؤولية ما يحدث، فهم من دمروا أحلامنا، واستدرجونا بما فعلوه بنا إلى الحرب، والآن يشوهون الحقائق، يبكون وكأنهم الضحايا ونحن الجلادون.

شعرتُ بجسدها الصغير وهو ينتفضُ بين يدي، وأطلقت أخيرًا صراخها، فأخفيتُ رأسها وأقفلت فمها بالوسادة.. عليها أن تدفع الثمن مثلي. بعد قليل، تراخى جسدها بين يدي، فابتعدت عنها وكانت الدماء قد ملأت المكان من جديد وبلّلت ملابسي أيضًا.. ربما ماتت! تحققتُ من نبضها، ثمَّ فجأة اعتراني خوف شديد ولم أستطع أن أتحمل عبء جريمتي، فتركتُها على حالها وركضتُ هاربًا إلى غرفتي.

تبًّا لهذه الحياة!! تبًّا لك إيفان، كان يجب أن تموت هناك في الحرب، أو أن تلحق بعائلتك ذلك النهار. كيف لنا أن نتعايش مع السلام، كيف سيستطيع من عاشَ كل هذه التجارب أن ينساها؟ مازلت مجرمًا قاتلًا برغم السلام الصوري الذي أعيشه هنا. يعلنون الحروب ويعلّقونها متى

شـاءوا، ويطلبون منا أن نتآخى مع حقدنا ووجعنا وكل ما حل بنا من مآسٍ! لماذا؟ لأننا حشـرات ولا يحق لنا أن نقرّر مصيرنا وما نريد، والآن يجب أن نصافحهم من جديد وأن نحتفل بالسـلام! أربعمائة سـنة ونحن مضطهدون نُهـانُ من الحكم العثماني إلى حكم الامبراطورية النمسـاوية المجرية، لقد أكمَلَت الكاثوليكية ما بدأه الإسلام، جميعهم يريدون سحقنا، لماذا؟

نشّـفت جسـدي وارتميـتُ بعريي على السـرير وأنا أبكي بمـرارة. أريد أن أقتـل، أن أحمل سـلاحي من جديـد، أن أطلق النار علـى كل من أكرهه. لا للسـلام. ليس هناك سـلام. سـيموتون جميعا وأولهم نوريستا، فأحقادنا جميعا لا تعترف بأي اتفاق!

22

هكذا مرَّ أسـبوعي بين القراءة وتنظيف البيت وتحضير الطعام، ولحسن حظـي لم ألتقِ إيفان كل هذا الوقـت، وأعتقد أنه هو أيضًا تعمد أن يتجنبني. إن مجرد إحساسي بوجوده في المنزل يثير في داخلي قشعريرة تخدر رأسي وأطرافـي، ويجعل روحي تنتفض وتنتابنـي رغبة جامحة في قتله، ويعتريني خوفٌ عظيم من جسده وعينيه.

لا أسـتطيع ترجمة أحاسيسي جيدًا، لكن سأكتبها يومًا رغم ذلك.. أجل سأكتب ما حصل معي، وسأترك ألمي شهادةً للتاريخ.. سأكتب منذ البداية، مـا قبل الحرب، عندما كانـت حياتنا آمنة ولم يكن يعنينا كثيـرًا انتماءُ الآخر وقوميته.. كنا نعيش معًا بسـلام.. صحيح أنه كان هناك معايير للزواج مثلًا، فأهـل ديانتـي لا يتزوجـون ولا يزوجون أحـدًا من أبناء الديانـات الأخرى، والديانـات الأخـرى أيضًا تتبنـى ذات الموقـف ولكن كنا نتقبـل ذلك دون تبرم.. أذكر أنَّ ابنة الجيران سـجنها أهلها في المنزل لهذا السـبب، وحبيبها يمضـي نهـاره على رصيف الشـارع المقابل منتظرا أن يلمـح طيفها ولو من بعيد، فاجتمع أهلُ الحي وقصدوا منزل عائلته وطلبوا منهم أن يردعوا ابنهم عن مطاردة الفتاة، و بعد أشـهر قليلة تزوج هو من أخرى، وهي أيضًا.. هذه الحكايات التي كانت تقصّها الجارات، ولم يحدث يومًا أن سـألت أمي عن هذا إلا وكانت دائمًا تهرب من الإجابة..

- هـل رأيتِ يا نوريستا من قبل البقر يرعى في المرعـى مع الغنم والغزلان والدجـاج؟ مـن الممكـن أن يعيشـوا جميعًا فـي نفس الحظيـرة لكنَّ كل صنف لا يألف إلا صنفه.

ابتسـمتُ وأنا أتذكر تشـبيهها هذا.. يا حبيبتي يا أمي، سأكتب عنك أول صفحة في مذكراتي.

عـدتُ إلـى المكتبة، وأحضـرت دفترًا فارغـا كان هنـاك، بدّلت تواريخ الصفحات، وقررتُ أن أبدأ بتدوين يومياتي في سـجني هذا.. ربما سأموت قريبًـا ولن أَشـغلَ الكثير من صفحاته. أضفت الكتابة إلـى لائحة اهتماماتي بجانب القراءة، والتنظيف والطبخ. ابتسـمت متعجبـة من قدرتي هذه برغم هذا السجن، تُراني أحاولُ أن أعوّد نفسي وأن أتأقلم مع عالمي الجديد، بين الجـدران الواسـعة الفارغة. ما يهمنـي الآن أن يبقى هذا القاتـل بعيدًا عني. تحسسـت رقبتـي على ذكره.. لقـد عانيت طوال هـذه الأيام الفائتـة من ألمٍ جسـديٍّ طال به الأمر حتى طابَ، لكن ألم روحي لن يُشـفى أبدًا وقد أصبح الخوف رفيقي الدائم طالما هو معي تحتَ نفس السقف.

أذوي بعـد هذه الأعاصير في سـريري غير قادرة على الحراك، ولا حتى على دخول الحمام؛ إلى أن يرحل ويقفل خلفه الباب.

رغم ذلك، فالحياة تعود تدريجيًا إلى مسـارها المعتاد، رغم قصر الزمن وضيق المكان الذي سُمح لي أن أخلق أحلامي خلاله. أتوسل الله أن يعجل موته وأن يبعده عني بأية طريقة. هي أمنية لن تتحقق ما لم أقتله بنفسي.

توقـف قلبـي حين سـمعتُ صوت البـاب وهو يفتـح.. أخفيتُ رأسـي بالوسـادة، وقبضـتُ علـى المصحـف الصغيـر الـذي كنـتُ أخفيـه تحتها.

سمعتُ صوت خطواته وهو يقترب من باب غرفتي، فأدركتُ أني في ورطة.
فتح الباب وصرخ بي:

- نوريستا استيقظي!

رمى نفسه فوقي على السرير، حاولتُ الإفلات من قبضته، أردت أن أبعده لكي لا يرى مصحفي ويأخذه مني.. أبقيت يدي تحتضنه تحت الوسادة التي ضغطَ رأسي عليها وأعاد اغتصاب جسدي من جديد.. شيءٌ ما اخترقني، وذلك الألم المروع يدميني من جديد. صرختُ وتوسلت ورجوت الأنبياء والرسل وكتاب الله الذي أحتضنه، ومرة أخرى لم يكن هناك من مجيب! لماذا لا ينقذني أحد؟ هل هان عليكم ما اعانيه؟ هل تآمرتم مع الظالم على المظلوم؟ دقائق مرّت، ألمٌ مبرح مزّقَ قلبي وآخر مزّقَ جسدي، ثم تركني بعدها لأغرقَ في دمي من جديد، ذلك السائل الدافئ. جمعت أغطية السرير ووضعتها بين فخذيّ.. لم يكن لدي دموع، فما زالت تأبى التفجر من بين كتل مشاعري الجليدية المتجمدة منذ ذلك اليوم، فقط نحيب دون دموع، نحيبُ روحي لا يوصف! حضنت مخدتي، عضضت عليها، قبضت على مصحفي، خارت قواي، ربما أغمي عليّ أو ربما متُّ.. لم أدرك ماذا حلّ بي، ما أدركه أنَّ ألمي لا يحتمل، وأنَّ الله قد خذلني للمرة الثانية.

- سأقتلك.. أقسم بالله أني سأقتلك يومًا ما، ولن أطلب مساعدة من أحد بعد اليوم.

23

أيقظني رنين الهاتف. لأول مرة يتصل أحدهم بي.. إنها ماغي.. "ماذا تريد هذه العاهرة مني؟" ما إن فتحت الهاتف حتى بادرت بالكلام:

- صباح الخير إيفان، هل أزعجك؟

- كنت نائمًا، ماذا تريدين؟

- لقد وجدتُ لك عملًا في الحانة معنا، هم بحاجة إلى نادل والمرتب جيد بالإضافة إلى الإكرامية التي يَهبُها الزبائن.

- ولكني لا أجيد هذا العمل.

- سوف تتعلم يا صديقي، ليس هذا بمعجزة، لقد تكلمتُ مع صاحب الحانة ووافق على منحك فرصة.. هيا لا تتردد، أنت بحاجة إلى عمل حتى لو كان عندك ما يكفي من النقود، فالعمل هو الشيء الوحيد الذي سيخرج روحك من سجنها ومن دائرة الضياع.

قلت مترددا:

- حسنا سأجرب..

- تعال اليوم عند الظهيرة.. ماركوس سيكون بانتظارك وسيطلعك على مهامك، ولكن يجب أن تخفف قليلا من عقدة جبينك، فالزبائن لا يحبّون الوجوه العابسة!

أجبتها بامتعاض:

- سأحاول.

أقفلت الخط، وكلامها يتردّد في مسمعي. ربما هي محقة، يجب أن أخرج من هذه الدائرة المقفلة وأريح تلك المسكينة نوريستا من ثورة عقابي.

سرتُ إلى هناك والقلق يعتريني، لا أعرف ماذا ينتظرني، إنني قاتل ورجلٌ عسكري، وأفتقر إلى موهبة إقامة العلاقات الاجتماعية، ولطالما كنتُ أُحبِّذُ الوحدة، إن لم أكن مشغولًا باغتصاب أحدٍ ما أو قتله، سنوات لم أعاشر إلا الجنود والجثث والمساجين.. ماغي على حق، يجب أن يكون لي حاضر كي أنطلق منه إلى المستقبل، فأنا مازلتُ في الواحدة والعشرين، وإن بدوت أكبر من سني بأضعاف.. عليَّ أن أحاول، فلن أموت قبل أواني. دخلتُ إلى هناك، وكان ماركوس بانتظاري..

- أهلًا بكَ إيفان، أخبرتني ماغي عن رغبتك في العمل معنا.

- هذا صحيح سيد ماركوس ويسعدني ان قبلت طلبي هذا.

- أنت تزور الحانة منذ مدة، وأعتقد أنك قد لاحظت ما تتطلبه هذه الوظيفة، وأهم ما يجب أن تتقيّد به هو عدم احتساء الكحول أثناء العمل، فأنت ستصبح موظفًّا هنا ولست زبونًا.. وكما ترى، فنحن نعمل كفريقٍ واحد نساعد بعضنا البعض، وليس هناك بيننا رئيس ومرؤوس، ومن الممكن أن يحتاجوك في المطبخ أو على البار أو في أعمال التنظيف وربما على

الصندوق، ان تكون مرنًا وجاهزًا لتقبل الملاحظات، هذا سيساعدك على إتقان عملك خلال مدة قصيرة.

حديثه الحازم أشعرني بالعبء، ولكنه أنبت في داخلي بذور التحدي. أجبته بثقة:

- سأحاول سيد ماركوس، فأنا لم أعمل في هذا المجال سابقًا، ولكني سأبذل قصارى جهدي كي أكون عند حسن ظنك.

- هذا جيد.. ولا تقلق، فالعمل مع رواد الحانة لا يتطلب أكثر من سرعة البديهة والحركة، وان تكون صبورا مبتسما فالزبائن يحبون الوجوه المبتسمة. أما بخصوص تفاصيل العمل، (أيليز) سيهتمُّ بتدريبك، فهو يعمل هنا منذ زمن وخبرته في هذا المجال لا يستهان بها.. ولا تنسَ شيئا مهمًا، ممنوع منعًا باتًّا التكلم في الأمور الشخصية، السياسة، أو الدين.

- أكيد سيدي، مفهوم.

نادى أيليز، فحضر بسرعة. شخص ذو نظراتٍ ثاقبة، يعطي انطباعا بالغموض تزيده ثيابُه السوداء ورأسه الحليق وذلك الوشم المزخرف على ذراعه، وقد لف خصره بحزامٍ عريض تتدلّى منه محفظةٌ جلدية، كان يجمع فيها النقود من الزبائن. رمقني بنظرةٍ غريبة، فهو يعرفني وشعور عدم الاستلطاف المتبادل بيننا كان قائمًا منذ اللقاء الأول.

- أيليز، أريدك أن تهتم بتدريب إيفان، فهو سيعمل معنا منذ اليوم.

لم يرُقه ما سمع، ولكنه أومَأ برأسه إيجابًا محاولًا إظهار قبوله للفكرة بطيب خاطر؛ إلا أنَّ اشمئزازه كان واضحًا.

بعد ذهاب ماركوس سألني متهكما:

- أنت صربي إيفان؛ أليس كذلك؟

- نعم.

- اممم.. الناتو يستعد لزيارتكم..

- لقد تركتُ البلد منذ زمن طويل، كما أنَّ السيد ماركوس لا يحبذ أن نتكلم بالسياسة خلال العمل فهذا ممنوع.

- أنا من (كوسوفو)، نحن جيران، وفكري مشغول بما سيحل بكم بعد التدخل الدولي، سيشبعكم ما أشبعتم منه جيرانكم!

طريقته الاستفزازية أثارت جنوني..

- لقد قلتُ لك بأن الكلام عن السياسة ممنوع، فإن كنت لا تستطيع أن تفصل بين حقدك على قوميتي، وعملي هنا، دعني أذهب إلى السيد ماركوس وأخبره بما حصل وأرحل.

ضحك بهدوء محاولًا إخفاء خوفه من رب عمله، وأكمل قائلا:

- لا تغضب مني فنحنُ زملاء عمل.. هيا.. تعال معي كي أطلعك على أسرار المهنة..

تجوّلنا في الحانة، أطلعني على أرقام الطاولات، وبعض أصول الضيافة وتقديم الطلبات للزبائن.. أكملنا جولتنا في المطبخ، ثم المخزن وباقي الأماكن.. أراني كيفية تنظيف "مَكَنَة" القهوة والشراب، وكيفية تشغيل غسالة الأطباق، وأماكن رمي النفايات. لقد سارت الأمور بيننا على ما يرام،

ولكـن رغم ذلك كنت أحس بكرهه كلما تقابلت نظراتُنا أثناء الحديث، فأنا بالنسـبة له رمزٌ لبلدي، ركيزةُ يوغوسـلافيا. لقد عاشـوا في عهد تيتو أفضل أيامهـم، ورغـم هذا طعنوا اليد التـي مُدَّت لهم وتآمروا عليهـا.. حاولتُ أن أخفـي كرهـي له.. فهـم أيضا من مخلفـات الحكـم العثماني الجائـر، التي تركوها في بلادنا قبل رحيلهم، نتاج أربعمائة سـنة من الاستعمار، لقد لوّثوا جذورنا النقية، وبسبب هؤلاء مات أجدادنا واستُعبِدَت نساؤنا.

قطع شرودي صوته سائلا:

كيف وجدت العمل؟ هل يروق لك؟

- إنه عمل بسيطٌ لا يستحق الخوف من النجاح أو الفشل..

أثار جوابي غضبه، فأكمل كلامه بحدة:

- أمـرٌ آخر لا يجب أن تنسـاه، الزبون دائمًا علـى حق، يجب أن تكون لطيفًا مبتسمًا مهما واجهت من مشاكل، فزوّارنا يأتون إلى هنا هربا من مشاكلهم، وبعضهم يفقد رشـده بسبب الإفراط في تناول الكحول، ويجب أن تتفهّم هذا وأن تتقبل كل ما يحصل برحابة صدر.

- لا تقلق، سأحسن التصرف.

سـاعاتٌ قليلة وامتلأ المكان بالزبائن.. علَت الموسـيقى، وعبرت أمام ناظـري وجوهٌ كثيرة، وعلى مسـمعي أصواتٌ وضحـكات وقرقعة كؤوس، وانجرفـتُ أنا في عجلة العمل، أحضر الأكواب، وأنظف صحون السـجائر محـاولًا تجنب ملاحظـات أيليز اللاذعة، وأسـترق النظر أحيانًـا إلى ماغي التـي تجالس الرجـال على البار، كما كانت تفعل معي. كانت سـماءُ الحانة

ملبّدة بدخان السجائر الذي يتراقص بين أضوائها الملونة الخافتة. غريبٌ كيف تتغيّر مشاعر الإنسان بتغيير موقعه.. في الأمس كنتُ أجلس هناك، ويقدمون لي الشراب، ولم أكن ألاحظ شيئًا مما ألاحظه الآن. لكنَّ هذا التغيير لم يزعجني، بل على العكس، لقد أدخل إلى روحي بعض الرضا، لولا هذا التعب الذي أضعف حركتي، فمنذ أتيت هذه الأرض وأنا غارقٌ في الخمول، لقد أثَّر حتى على رغباتي الجنسية. الآن أحاول أن أتقبّل (أنا) الجديد، وأن أجد نفسي في هذا العالم الذي يُحيط بي، تمامًا كما حدث معي عندما دخلتُ الجيش بعد موتِ عائلتي، لم أكن معتادًا على القتل، ولقد تطلَّبَ مني هذا عناءً شديدًا يشابه ما أعيشه الآن.

بعد ساعاتٍ من الجري، فرغَت الطاولات، وعاد الهدوء إلى الحانة، وظهر صوتُ الموسيقى من جديد. ماغي لا تزال على البار، سكبتُ لنفسي كأسًا، وجلستُ بقربها. قالت لي وهي تبتسم برضا:

- كنت أراقبك كل الوقت، لقد أبليت حسنًا في يومك الأول.

- هو شيء أقوم به رغم أني أكره حياة هؤلاء، إنها فارغة كتلك الزجاجات المرمية في سلة المهملات.. ماذا يعرفون عن الحياة؟ ماذا تعنيهم؟ يصرفون النقود ويسكرون وهم لم يعانوا يومًا من الألم!

قالت بنبرةٍ مؤنبة وهي ترمقني بعينيها الواسعتين:

- وما أدراك أنت؟ أنت أيضا كنت جالسًا في الأمس هنا مثلهم رغم مشاكلك، لا تُدِن أحدًا يا إيفان، فالله أعلم بما تخفيه النفوس، ولماذا هم هنا، وأي مصيبة حملتهم على هذا الضياع.

لـذت بالصمـت فرآرا من الاعتـراف بالخطأ. كانت محقـة، لكن كرهي الجارف لمـن حولي يقتلني. أكملت زجاجتي هنـاك وحدي، حتى ملأَ نور النهار المكان، وعدتُ بعدها أجرّ تعبي وخيبتي.. لن أصبح طبيبًا ولا طيارًا، وعليَّ أن أرضى بما قسـم لي. إحباطٌ مدمّر انتابني وأنا أقطع الشـارع متّجهًا إلى عالمي الثاني، حيث نوريستا المسكينة معتقلة هناك.

- ألف لعنة على الحروب، ألف لعنة على ما شاء لي قدري.

24

حدقـت في تفاصيل المكان إلى أن أيقنت واقعي. هذه المرة لم يوقظني إيفـان من ألمي، ولـم ينظّف جسـدي، ولـم يطعمني. وقفتُ بصعوبة.. كانت الأغطية ملوثةً بالدماء، فدخلتُ الحمام، اغتسلت، وبدلت ملابسي، وعدت لأنظّف سـريري، وقد اتخذ الأمـر طابعا روتينيًا. حملـتُ مصحفي الصغير ووضعتـه جانبًا.. لقد كان شـاهدًا على ما حلَّ بي، فلـم أكن بالأمس وحيدةً معه. بدّلت الشراشـف وأنا أجبر نفسـي على الحراك. الـدوار يقتلني وذلك النزيف قد استنزف قوتي.

تناولت بعض الخبز والجبن، وسـكبت كوبَ عصير بارد، وأخذت كتابًا من المكتبة، وعدتُ إلى سريري. العهد القديم، بدايته قصة الخلق، ثم قصة أمنـا حـواء وأبونـا آدم، و"التفاحـة الأولى حـواء، وخلفها الأفعـى، وآدم المسـكين لاهٍ عمّا يحدث، ثم تأخذ التفاحـة بيدها.. حواء، تلك اللعبة التي خلقها الله لتؤنس السيد آدم وتملأ فراغ حياته. هل كان هناك قنوطٌ وملل في الجنـة أيضًا؟ هل الجنة جنة اجتماعية أم هي مـكان للتقرب والتوحد بالله؟ لـم أفهـم! ما ذنب حـواء إذا كانت القصـة قد كتبت على هـذه الطريقة؟ هل تعاقب لأنها نفذت إرادة الله، ونعاقب نحن معها حتى الآن؟

- هيا إيفا تشجَّعي.

- ولكن آدم قال إن الله حرَّم عليه ثمار هذه الشجرة..

- اعرضي عليه أن يأكلها، ودعيه يختار هل ينفذ إرادته أم إرادة الله..

إذن آدم هو المتهم! هو وحده من يتوجب عليه أن يحمل ثمارِ الخطيئة؛ لماذا حواء؟ آدم مَن عصى ومَن أكل ومَن استمتع، وهي من احتوت الألم لدورٍ طُلب منها أن تلعبه ولعبته بإتقان.. آدم العاصي الناسي صدرت براءته، والمرأة حُمِّلت مع الشيطان، وربما قبل الشيطان، وزر الخطيئة! "تحبلين وبالألم تلدين حمّلها الله العادل ثمن الخطيئة، ووحدها ستكون إلى نهاية الكون الخاطئة وسبب قيام الساعة ومتعة أهل الجنة.. لقد قرأت بعضًا من هذا في كتب أخرى، فكل الأديان كرَّست خطيئة المرأة، وكان رجال الدين أول الجلادين الذين فطروا الناس على براءة آدم وكل الذكور معه، بينما النساء سبايا لهم.. "مالهم ونساؤهم غنيمة لكم"!.. بسبب هذه الكلمات يأكل البشر بعضهم بعضًا.

هذا المربع الكوني: إرادة الله، الأفعى الشيطان، آدم، حواء... لماذا بين الجميع أنا فقط من يحمل خطيئة هذا الكون، ولماذا أعاقب دون ذنب؟ هل يجب ألَّا أسأل ويظل دوري أن أورِّث أولادي ظلمًا آخر؟!

- أنا مثلك يا نوريستا!

خُيِّل لي وكأنَّ صوتًا حزينًا يردِّد ما سمعت! تساءلت وأنا أرتعد..

- ومن أنت؟

- أنا المتهم الثاني، أسعدني أنكِ قد لمستِ براءتي ولو من بعيد.

شعرت برعب شديد.. إنني وحيدة هنا، ثم إنني تساءلت داخلي دون صوت، إذًا من الذي يكلمني؟!

- هل أنت حقًا موجود؟

- طبعًا، ولكني خائفٌ مثلكِ، أعرف أنَّ الجميع رمى عليّ وعلى حواء كل أثقال الأرض، لهذا أنا متخفٍّ ولا أحبّذ الظهور.. ولكني أحاول من حينٍ إلى آخر أن أدافع عن نفسي بطريقة ما.. إنني بين يديكِ، ففي كل كتاب ستجدين الإنسان هو البطل وأنا الشرير الذي تُلصقُ به كل التهم!

نظرت حولي أتفحَّصُ المكان لأعرف مصدر الصوت.. قررت أن أجتاز مخاوفي فربما كل ما يريده هو أيضًا اغتصابي. خاطبتُه بثقة محاولةً التظاهر بالشجاعة:

- اذهب أرجوك! لم أعد أطيق الخوف! سوف لا أسمعك!

- ولماذا تصرخين بوجهي؟ لست أنا من اغتصبكِ وأوصلك إلى هنا.. حرري نفسكِ.. إنها مسؤوليتكِ أنتِ.. اهربي، اقتليه،، ولكن لا تلومي أحدًا على ما أنتِ فيه.

فتحتُ الكتاب لأهرب وآخذ نفسي مما أنا فيه.. جُلت في هذه العهود لعلي أجد امرأةً نزل عليها الوحي وتكرم الله عليها برحمته.. حتى أمنا مريم بعد أن تقبَّلَت إرادة الله وحملت الرسالة وفتحت باب الفداء، كان دم المسيح هو الفداء ولم تكن هي، برغم قبولها للنعمة. بقيت طهارتها منزوعة عن بني جنسها.. "خذ أمك واذهب" وذهبت مريم وصلب المسيح وصعد إلى السماء.. هل نحن فقط وسيلة؟ إناءٌ تعبر الأجيال من فوهته إلى قعره

المثقوب؟ لماذا يا الله؟ هل نحن فعلًا من نسل الشيطان؟ ولماذا اكتفيت في كتبك بعبارة "امرأة صالحة" حتى هذا التعبير يشترطُ على الأنثى الإنسان قيودَ وإمكانيات الملائكة.. حتى الجنة قد ميّزتَ عطاياها بين امرأة ورجل!! أسئلةٌ كثيرة لم يكن مسموحًا لي أن أسألها، بل يجب فقط أن أستمع وأطيع دون أن أحلل أو أستنتج أو أجادل، لأنَّ الجدل يدخل الشيطان.. تلك الشماعة التي نلجأ إليها عندما لا نعرف أو عندما نصطدم بواقع لا يقبله العقل والمنطق.. أذكر جيدًا يوم وشى بي معلمي لوالدي المتدين الذي يحفظ دينه عن ظهر قلب حين لم يفهم سؤالي فوبّخني وهددني بالعقاب الذي سيحل عليّ من الله إذا ما استمررتُ في التفكير والاستنتاج.. اكتشفت يومها أن أبي يعبد ربه مخافةً ومجاملة،إذ كيف سيقترب الانسان من نواة روحانية الدين وهو فقط يعيد ما يتلوه عليه الآخرون؟! ما كنت أسمعه من المتدينين من تشجيع الحقد على أصحاب الأديان الأخرى كان يخيفني كثيرا، وهذه هي النتيجة: حروبٌ، قتلٌ ودمار ونساء تغتصب!

اجتاحني الغضب، واشتعلت بقلبي نار الرفض للجميع، والدي ومعلمي وإيفان.. كنت أريد أن أحطّم المنزل، أن أكسر كل ما حولي، ضاق بي المكان فركعت على الأرض وأنا أصرخ:

- هل أنت راضٍ؟ هل يروق لك وجعي هذا ووجع كل المغتصبات اللواتي يرجينك آلاف المرات كل يوم؟!

ولأول مرة منذ موت عائلتي تسقط دموعي بعد كل هذا الألم. لقد أشفق عليَّ أخيرًا وأعاد لي هبة البكاء. كم افتقدت دموعي كثيرًا كما أفتقدك يا خالقي..

وبكيت وبكيت وبكيت..

25

أسـبوعٌ مرَّ وضغطُ العمل يتراكم على كاهلي كالثلج المتساقط بصمت، والـذي لا نحـس بخطورتـه إلا عندما يسـد علينـا دروب العبـور. أيليز كان يحاصرني بعينيه اللتين كانتا تراقباني، لينقل لماركوس كل تحركاتي، وليعدَّ عليَّ حتى أنفاسـي. أثار هذا مخاوفي رغم مسـاندة ماغي لي بحكم علاقتها الحميمـة بماركـوس. ولكن بالأمـس حصل ما كنت أخشـى حدوثه.. أحد زبائـن الحانـة المزعجين، والذي لم أرُق له منذ بداية عملي، كان يسـتفزني باسـتمرار ويحـاول إهانتي دونًا عـن الجميع.. يصرُّ أن أخدمه بنفسـي رغم تجنبي هذا، ويُسـقطُ الأشـياء علـى الأرض وينادي عليّ بتعـالٍ كي أحملها إليـه. يبدّل الكوب عشـرات المـرات، وكلما أحضرت له كوبًـا نظيفًا يقهقه ضاحـكًا. حتى الأمس، كنت أحاول أن أتخطى تصرفاته هذه، إلى أن أشـار لي بإصبعه باحتقار كي آتي إليه، وقال ساخرًا:

- لمـاذا تتجنبنـي؟ هل أنت خائـف؟ إنكم بالأصل جبنـاء، ها هو الناتو يضع اللجام على فم حصانكم الثائر، لقد أنهك وسوف يركع للغرب قريبًا.

- سيدي إذا سمحت، إننا في مكان عام، وأنا أعمل هنا، ولا أمثل إلا نفسي.

- هيا هيا احضر لي الشراب، فهذه هي نهايتكم كما بدأتم، أُجراء عند المستعمرين وعند شعوب الأرض.. حلمكم الجميل قد تبخر يا صديقي، تيتو قد مات ومات اتحاده معه ولن يعودا، وروسيا أيضًا قبضت الثمن.

قهقه عاليًا حتى كاد أن يختنق من الضحك.. لم أستطع أن أحتمل أكثر، تعثرت أنفاسي وتسارعت ضربات قلبي كطبول الحرب، اني فعلا أجير عنده، دون أن أدري أطبقت بيدي على عنقه.. كنت أخنقُهُ فعليًا، وأتلذذ بما أفعل، فمنذ زمن لم أقبض على روح أحد، وكم أفتقدت ذلك..

صرخ مستنجدًا، وقد أدركَ نهايته من ذلك الشرار الذي يتصاعد من عيني، فتجمّع كل من في الحانة ليفصلوا بيننا، لكن لم يستطع أحدٌ أن يفكَّ قبضتي. أشبعته ضربًا.. نار أعماقي ثارت من جديد.. لماذا استفزني وأنا أعمل هنا بحثًا عن السلام ولأمحو ماضيَّ حتى أنسى هويتي وكل ما حدث؟!

ركض ماركوس مسرعًا بعد سماعه الصراخ وحال بيني وبينه:

- ماذا تفعل إيفان؟! إنك تورّطنا بمشاكل كبيرة!

- يا سيدي.. دأب على استفزازي منذ يومي الأول، وتقبلت هذا دون اعتراض. لكن أن يعاملني كعبد ويحقر بي وبجذوري فلن أقبل، ولن تقبل أنت يا سيدي لو كنت مكاني.. لم أفعل له أي شيء، هو من اعتدى عليّ، إنني فقط أبحث عن السلام وأريد أن أعيشه.

اختفى الغضب من عينيّ ماركوس، ليحل مكانه التعاطف. قال بنبرة آمرة:

- حسنًا، اذهب الآن إلى المطبخ وأنا سأسوّي الأمر.

ذهبتُ وأنا أسمع صوته يحاول أن يلطّف الأجواء، وأن يقنع الرجل بالعدول عن طلب الشرطة، وبأنه سيعوضه. ماغي هي الأخرى أخذت تؤنبه بلطفها المعهود وتنذره بأنها لو سُئلت من قبل الشرطة ستقول ما سمعت وبأنه من ابتدأ الحديث ومن اعتدى على موظف خلال خدمته له.

لقد أثارت لفظة الشرطة الرعب في قلبي.. ماذا سأفعل لو عرفوا من أنا، وما فعلتُ بنوريستا؟ تابعتُ استراق السمع من خلف الباب..

- يا سيدي ليس لإيفان ذنبٌ بما حدث ويحدث بين أتباع الأديان والطوائف المختلفة المتخالفة! هو مجرّد موظف يعمل على خدمتك، وقوميته ليست جريمة لتدينه لانتمائه إليها، نحن لا نختار أدياننا ولا جنسياتنا.

هدأت الأمور، ودخل ماركوس إلى المطبخ. كنت أتوقع أن يطردني من عملي، ربما هذا من حقه، ولكني لم أرد أن يحدث هذا. ولم أكن المتسبب فيه، بادرني قائلا..

- برغم استفزازه لك فأنت مخطئ يا إيفان، كان عليك أن تنسحب وألّا ترد.. ابتعد ودعه يثرثر بما يريد!

شعرت بالمرارة.. أنا الآن عاملٌ بسيط، سقطت بندقيتي عن كتفي. تلك الأجساد التي كانت تتهاوى تحت رصاصها أصبحت هي من تطلق النار عليّ، الجميع يطلق عليّ النار، لقد خانني أهلي، وبلدي، والحياة.. مجبر أنا الآن أن أتعايش مع واقعي الجديد، وأن أنحني للسلام وأتدرب عليه. لو كان الخيار بيدي لاستمررتُ في القتل حتى الموت، حتى ترتد رصاصة ما

إلـى صـدري، بدلا من أن أموت ألف مرة مذلولًا من الحسـرة.. قطع صوتُه صراخَ روحي..

- سـأضطر إلى نقلك إلى المطبخ، ستعمل هنا إلى أن تتخطى هذه الأزمة، فمخالطة الناس ستزيد من توترك وستتعب أعصابك، خاصة الآن وبلدك تمـر بهذه الظـروف الصعبة. أنت قلـق، وأنا أقدّر هذا، وهنـا لن يزعجك أحد وستعمل بهدوء.

أومـأت برأسـي بالقبول.. كانت عينـا أيليز تراقبانـي والانتصار والخيبة يملآنهـا معًـا، فقـد كان يتوقـع أن أطـرد نهائيًـا. أدرك جيّـدًا أنه لـولا ماغي لأصبحُـت الآن في الشـارع، فهي من تحميني رغم كرهي لها. شـدت على يدي قائلة:

- لا تحـزن يا صديقي، هذا سـيجنبك الكثير من المضايقـات. أعلم أنَّ هذا صعب، ولكنك ستعتاد، وسيمر الوقت بسرعة..

عـدتُ إلـى بيتـي مهزومًا مكسـورَ النفـس، حتى أني نسـيتُ نوريسـتا، وأصبحت أيامي تمر بلا رغبة في شرب الكحول، أو في تناول الطعام. حتى الجنس لم يعد يعنيني، وكأني شـيخٌ يناهز التسـعين. إلى متى سأبقى هكذا، وكيـف سـأكمل ما تبقى لي من سـنين؟ لقد مرَّ على وجـودي هنا ما يقارب الشـهرين، وعجلة الحياة تسير ببطء بروتينها اليومـي القاتل، وذلك الحقير أيليـز يعبـث بأعصابي.. أشـعر أني سـأقتله يومًا. أجل، اشـتقت إلى مهنتي كقاتل! فرقة الاعدام التي كنت عضوًا فيها، واحدا من بين عشـرة سـفاحين، لـم يكـن الملل جليسـنا يوما، فكلمـا فرغنا من مهمـة ما وأردنـا الاحتفال، كنـا نجوب القرى ونجمع العشـرات من سـكانها، ونقيّد أيـدي بعضهم من

الخلـف، نعصبُ أعينهم ثمّ نطلق النار عليهـم، بينما يحفر البقية قبورًا لهم. بعـد أن ينتهوا مـن دفن أقربائهـم وأصدقائهم وهم يعتقـدون أنهم بذلك قد نجَوْا، كنا نعود ونرديهم في تلك الحفر التي حفروها بأنفسـهم؛ كم كان هذا ممتعـا،، يجب أن يموتوا فلقد اعتنقوا دينًا لا يفقهون شـيئًا منه فقط لإرضاء ذلـك الاسـتعمار التركـي الذي دنَّس أرضنـا. كنت أرغب بـأن أحصي عدد من قتلتهم خلال هذه السـنوات الأربع. أعتقد أنهـم أكثر من ألف، أحسـاسٌ غريـب عندمـا تطلق النار على شـخص وتنهي حياته، وكأنـك الإله أو منفذ المشيئة الإلهية، رغم أنَّ هذا قد تطلّب مني وقتًا طويلًا من الصراع مع نفسي قبـل أن أحترفه. كم أتـوق الآن إلى واحدة من هذه الرصاصـات لترتدَّ عليَّ وتقتلني وأنتهي هكذا كاللا شيء!

26

الوحـدةُ تقتلنـي فـي هـذا المنزل الكبيـر، ليس لـي أصدقاء سـوى هذه المكتبة وهذا الراديو الذي أسـتمع إليـه بحذرٍ بين الحين والآخر. أما إيفان، فلـم ألتقِـه ولـم أحسَّ بوجوده كل هذه الأيام؛ لا أعلـم أين هو أو ماذا يفعل. يخرج يوميًّا عند الظهيرة، ولا يعود إلّا بعد منتصف الليل، فيدخل غرفته ولا يخرج منها حتى نفس الموعد في اليوم التالي. أحسُّ أنَّ الله قد أشـفق عليَّ أخيرًا فأبعَده عني.. لا أعرف.. لربما يحضر لي انتقامًا آخر أجهله.

لقـد أنضجَت هذه الوحدة روحي رغم قسـاوتها. أفكارٌ ومشـاعر غريبة بدأت تنتابني، أتخيل وأخلق أساليب تمكنّني ربما من استعادة حريتي أو من قتلـه؛ ثم تؤرقني هـذه الأفكار فأهرب منها إلى عالمٍ آخـر، إلى تلك الكتب التي باتت عزائي، وكأني عجوزٌ تنهل منها، رغم العجز أحيانًا عن اسـتيعاب الكثير مما تحمله من معانٍ. لكني كنت أقرأ بنهمٍ، محاولةً الوصول إلى فهم جوهر العنف وأسباب الحروب، وأسباب تخليّ الله عن البشرية في المِحن رغم الصلاة والتضرع.. كنت أبحث أيضًا عن الشيطان، لأتأكد من وجوده، وهل هو فعلًا المسؤول الأول عمّا نحن فيه، أم نحن هو وهو نحن، نتكامل معـه كمـا نتكامل مع الله.. أردتُ أن أعرف ماهية الفلسـفة وما سـر علاقتها بالديـن، ولمـاذا أعدم رجال الدين الفلاسـفة وأحرقوا كتبهـم، ليعترفوا بعد

حين بصواب أفكارهم.. يا الله! أشعر أنَّ هذه المكتبة كرةٌ أرضية كبيرة، وأنا رحالة صغيرة أجوب بين أقطارها ومحيطاتها..

نيوتون، تفاحة العلم والفلسفة والتي أطلقت العديد من الاسئلة، وأوجدت الأجوبة عليها وشرحت نظريات الفلاسفة ودحضت بالعلم ما لا يعقل من الأساطير والاعتقادات، وما بُني عليها من عقائد وعبادات، ولكن لماذا التفاحة؟؟ للمرة الثانية تعود هذه الثمرة لكي تهدم وتبني، قالت لي أمي إن تلك البذور السوداء في داخلها سامة، وهل كل ما هو جميل وكامل ونضر، داخله سامٌّ كما التفاحة؟ وهل سنكتشف يوما أننا كنا نرتشف السم قطرة قطرة من خلال كل ما يحيط بنا دون أن نشعر لنتحول بعدها إلى أجساد بقلوب سامة ميتة كما التفاح؟

كانت روح صاحب هذه الكتب تطوف في المكان، فتخرج من هناك أحيانًا لتشرح لي ما يصعب عليّ فهمه. لقد كان رجلًا طيّبًا! أستطيع أن أتلمَّس هذا من نوعية الكتب الموجودة هنا.. الكتب التي غاص فيها قبلي وفهمها أكثر مني، وسأفهمها أنا أيضًا يومًا ما، عندما يتسع دماغي. أما جسدي، فلم يعد يشغلني التفكير به كثيرا، لقد التأمَت جراحُه بعد أن هجرني ذلك الوغد. لقد علمتني هذه التجربة أن أتقبَّل سكن روحي هذا والذي سمَّوْه الجسد وأعتاد عليه، وبدأت أحسه أكثر، فلم أعد أستشعره كأنه شيءٌ مقدس بعد أن استبيح.. لم يعد يضايقني انتفاخ نهديّ وبروز حلمتيهما.. مضيتُ أمرر يدي على أعضائي وأطرافي وأتحسس بشرتي وكل تفاصيلي كما لم أجرؤ أن أفعل سابقا.. إنه جسدي أنا، وهو ملكي أنا، ولقد عاد لي، وربما عليّ أن أتقبل انتهاكات إيفان، فربما هكذا هي العلاقات، ربما كانت

هناك داخل هذا الألم متعةٌ ما لم أكتشفها بعد.. وهل كان من الضروري أن تسقط التفاحة لتنطلق شرارة المعرفة؟

في خضم هذه التغيرات، ونضوج جسدي وفكري، كان تدهور وضعي الصحي يقلقني قليلًا. ففقداني لوزني يتفاقم يومًا بعد يوم، ولم تعد عندي قابلية لتناول الطعام. تجتاحني بين الحين والآخر نوبات من الغثيان ورغبة في النوم ودوارٌ دائم؛ لقد فقدتُ الكثير من الدماء عندما مزّق ذلك القذر جسدي. وحدتي هنا وسهري مع الكتب، نومي المتقطع رغم نعاسي الشديد، خوفي منه وانتظاري لعقابه، ربما هذا ما يتسببُ في إعيائي، بالإضافة إلى ذكريات الحرب.. يوم فقدي عائلتي، وشوقي لهم يداهمني فجأة فأشتم رائحة الموت والدماء.. ألمسها.. أشاهد أجسادهم الباردة تطوف حولي وهم ينزفون، يضحكون ويبكون، يمدّون لي أيديهم ويطلبون مني أن أنتقم لهم.. أرتعد من الفكرة، فلن أستطيع أن أقتل أحدًا! أبكي، وأصرخ طالبةً منهم ولهم الرحمة. هكذا كان ليلي.. لم أعد أستطيع الصلاة، وأصبحت عندي حالة كره للدين ولفكرة الله اللذين بسببهما تندلع الحروب، ومن أجلهما تموت البشرية.. أشعر برغبة في الانتقام برغم عجزي.. الفكرة بدأَت تطاردني وتؤرقني.. أريد أن آخذ المفتاح وأهرب. وربما سأقتله قبل ذلك، لا، سأدفنه هنا في إحدى الغرف حتى يتعفن جسده، وسأعيش في هذا المنزل وحدي، فلم يعد لي مكانٌ آخر أذهب إليه. أجل سأفعل... ولكني ضعيفة.. وأخاف أن يدرك نواياي. وإن فعل سيقتلني. لكن ما الفرق، فأنا ميتة.. سأختصر الوقت وبعض العذابات.. ولكن كيف؟

ليس عندي سـلاح!.. سكين المطبخ.. سـأفتح باب غرفته وهو نائم وأطعنه حتى الموت.. ليس عندي ما أخسره!

كنت أراقب نفسـي في المرآة، وأتحسـس تبرعم هذه المشـاعر، مشاعر الانتقـام فـي داخلي، وأكاد لا أعرف من أنا.. إنسـانة أخـرى.. طفلةٌ لم تعد طفلةً.. ذات وجه مشـوه قبيح بهالاتٍ سـوداء حول العينين الجميلتين، وفمٍ حزين عضلاته ترفض الابتسام، وشعرٍ مسترسل بلا حياة، وكأني من سكانَ القبور أو دمية مسخوطة خارجة من أحد أفلام الرعب!

27

قـرّرتُ أن أغيّر نمط حياتي قليلًا. استيقظتُ باكرًا، وذهبت إلى المتجر واشـتريت مـا يحتاجـه البيـت مـن أغـراض، والكثير مـن الخمـور من كل الأصنـاف. أردتُ أن أمـلأ بـار البيـت الفارغ، إذ لـم يكن عندي متّسعٌ من الوقـت للشـرب خلال العمل، فلأفعـل ذلك عند عودتي إلـى البيت؛ هكذا أتجنب بقائي وقتًا أطول بالقرب من أيليز. سأشرب هنا وأشرب، ثم أضاجع نوريسـتا وأذهب إلى النوم.. أسلوب حياة جديد يكسر روتين أيامي وبرودة حياتـي، ويزيل عن عاتقي تعبَ النهار وأخبـار بلادي والحرب التي لا تزال قائمة.

أحيانًـا أفكر في العودة، ولكن العد العكسـي قد بـدأ، ومعظم رفاقي قد فـرُّوا هم أيضًا. تركتُ ما اشـتريته فـي المطبخ وذهبت إلـى الحانة. لم يكن العمـل هناك تحت وطأة أوامر أيليز بالسـهل، ناهيك عن حديث الناس عن الحرب الذي كان يطاردني أينما ذهبت. لقد تفتَّتت يوغوسـلافيا الحلم منذ زمن، منذ أن اعترف الغرب باسـتقلال البوسـنة، وبعد أن سبقتها (سلوفانيا) و(كرواتيـا). كانوا يريدون قطع الطريق على ما تبقى من تحالف هذه الدول مع روسـيا بعـد تفتُّت الاتحاد السـوفياتي، واقع مرير علينـا قبوله. كان قائد الجيش الشعبي محقا عندما قال لنا إنهم سيرتدون علينا وسنصبح أعداءهم.

لقد تجاهلوا فعلا انتصار تيتو على (هتلر)! فلولا دعم روسيا له لأصبحوا جميعهم في المحارق، ولما استطاع أن يؤسس يوغوسلافيا التي ينهش الغرب لحمها الآن. لم يكن الجميع راضين عن أدائه، هكذا قال البعض بعد موته، ولكن كنا نعيش في زَمنِه كقوميّة واحدة رغم تعدّد أدياننا ومعتقداتنا، كاثوليك وأرثودوكس، مسلمين ويهود وغجر. أتذكر ابي وهو يتكلم عنه بفخر، لقد تناسينا في ظلّ حكمه كل الظلم الذي لحق بنا من الاستعمار، كما ردَّ لنا انتصارُ روسيا على الأتراك كرامَتنا.. البشناق والكروات يقولون إن ما نشعر به سببه النزعة القومية والانتماء الديني، ولكني أجد أن هذا الولاء هو أقل ما نقدمه. الآن يحاولون نسفنا وسحب البساط من تحت أقدام الروس.

شعرت بالاختناق وقد مر في مخيلتي ما شهدته في الامس في نشرة الاخبار والناتو يقصف جيوشنا باسم الدفاع عن حقوق الإنسان، ولا يخفى على أحد أن ما تبقى في الخفاء هو مدّ أنابيب البترول من بحر (قزوين) حتى شواطئ البحر (الأدرياتيكي).. حصان حقوق الإنسان المسكين يمتطونه متى شاءوا، ويربطونه حين يريدون. كأيليز ذلك الحقير، يدافع عن بلاده وهو مهاجر مثلي.. لو كانوا صادقين، أين هم من اندثار حضارة الهنود الحمر واغتصاب أراضيهم؟ أين هم من تحويل الزنوج إلى عبيد؟ أين حقوق الإنسان عندما أقيمت المستعمرات؟ أين هم من قنبلة (هيروشيما)؟ أين هم الآن مما يحصل في العالم؟.. لعبة قذرة يا إيفان؛ كان يجب أن تبقى في بلادك وأن تموت هناك بطلًا.. لكنك خفتَ ألا تموت وأن يطاردوك ورفاقك كالفئران ويدخلوكُمْ إلى السجون، أو أن تضطرَّ إلى مصافحة

أعدائك وتقبل باتفاقيات السلام التي يخيطونها على مقاسهم.. لا لن أستطيع!

لقد كان هذا السيناريو واضحا أمامي عندما لم يردعنا جنود الأمم المتحدة عن الدخول إلى سربرنيتسا، أدركتُ أنهم سيُرضخوننا لشروطهم وأنَّ بلادي ستقسم..

سقط وعاء الماء الذي كنت أغسل فيه الخضار من يدي.. كان جسدي يرتجف من الغيظ..

- ما بك يا إيفان؟

- لا شيء سيد ماركوس.. متعب قليلًا.. آسف لقد سقط الوعاء دون أن أنتبه..

- حسنًا.. اذهب إلى البيت واسترح، وغدًا سأعطيك يوم إجازة..

عدتُ إلى البيت قبل منتصف الليل. جلست في الصالة أراقب مكتبة جدي.. (الإمبراطورية النمساوية المجرية) هي أيضًا أخضعَت الصرب لسيطرتها وجعلت روسيا تترك لها حكم المنطقة من أجل وعودٍ كاذبة بحفظ حقها بمضيق (الدردنيل). لقد قص علينا والدي وجدي هذه الحكاية مرارا، وكلٌّ كان يسردها من وجهة نظر مختلفة وبأسلوبه:

- لهذا يا إيفان اغتال الصرب وليَّ عهد النمسا وأطلقت شرارة الحرب العالمية الأولى.. كنا على وشك أن نقسم البوسنة بيننا وبين الكروات، ولكنَّ غزو هتلر قلب المقاييس، فناصر الكروات الذين أخذوا البوسنة وشنوا حملة إبادة على الصرب والبشناق.. الاسلام، اليهود والغجر

والشيوعيين، لهذا حملت الأقليات السلاح ونظمت أعمالها ضد الفاشية.

هذا ما قاله لي أبي.

- لم نحمل السلاح إلا بسبب الخوف وللدفاع عن أنفسنا، كان هدفهم إبادتنا مع الأعراق الأخرى. كان هذا هدف هتلر بمشروعه الفاشي للتطهير العرقي.

لهذا لم يكن والدي راغبًا في أن ننتقل للعيش هنا مع جدي، ولهذا أيضًا لم يكن جدي راضيًا عن زواج أمي بصربيّ أرثودوكسي.. تبًّا للأديان.. ثارت ثائرتي فناديتها كالمجنون:

- نوريستا!

حضرت مسرعة.. كانت تبدو نحيلةً كشبح خارجٍ من عالم القبور.. لم أرها منذ مدة، وكدتُ أنسى ملامحها وأنسى أيضًا أنها موجودة..

- لقد جلبت بعض زجاجات الخمر مع المشتريات، أحضريها إلى هنا وأحضري معها المكسرات وبعض الفاكهة..

ذهبَت بصمت، وعادت ووضعت ما تحمله على الطاولة، ووقفَت تنتظر..

- اِذهبي الآن، اُغربي عن وجهي!

مرّت ساعات وساعات وأنا أدير جهاز التلفزيون من محطة إلى أخرى، وأتابع أخبار المفاوضات والتحاليل السياسية. العالم أجمع يراقب خارطة

المنطقة الجديدة وأسـرار تحالفاتها.. أطل الفجر وأنا على هذه الحالة، بعد أن فرغَـت الزجاجـات ولم يختـفِ هذا الخـوف المميت مـن داخلي.. إن عُقدت هذه الاتفاقيات وانتهى مصير بلادي إلى التقسيم سأموت!..

نوريسـتا، سـوف تدفعيـن الثمـن! ناديتهـا مـن جديـد، أظن أنهـا كانت مسـتيقظة، فلقد وقفَت أمامي بلمح البصر. رحتُ أراقبها وكأني أراها للمرة الأولـى.. نظـرتُ في عينيهـا.. عيناهـا جميلتـان ولا تزالان تحمـلان براءة الطفولة، أغمضتهما فجأة وسـقطت على الأرض كريشـة هشـة. دبَّ الذعرُ بي، ولم أعرف ماذا أفعل.. رحت أصفع وجهها وأكلمها:

- نوريسـتا مـا بـك؟ اسـتيقظي، لا تموتـي، يجـب أن تشـاهدي انتصـار يوغوسلافيا، هيا استيقظي!

ولكنهـا لم تجـب! حملتها إلى السـرير، وأحضرت لها الماء وغسـلت وجههـا.. تحركـت قليلًا.. آه.. شـكرًا للـرب.. كنت خائفًـا أن تموت.. إن ماتت سأفقد معنى وجودي، يجب أن تبقى حية..

كيف تشعرين الآن؟ أفضل؟

جسـدها كان يرتجـف، وأطرافهـا كانت بـاردة، إنها خائفة منـي، أعتقد هذا..

- نامي الآن، سأصطحبكِ غدا إلى الطبيب وسوف تصبحين أفضل..

لففتُ جسـدها بالأغطية الصوفية، وأطفأتُ الأنـوار وعدتُ إلى الصالة لأكمل مشـاهدة تلك المهزلة التي يسـمّونها السـلام، والأرض تميد بي من كثرة ما شربت..

28

صوتُ الباب يفتح من جديد، اتّجه إلى المطبخ، وبعد قليل مرّت خطواته في الصالة، ثم أقفل الباب. عاد الهدوء إلى داخلي، توجهتُ إلى المطبخ آملة أن يكون قد أحضر معه بعض الطعام، فلم يعد هناك ما آكلُه، فوجدت هناك العديد من الأكياس. رتبتُ محتوياتها كلا في مكانه، أما زجاجات الخمر الملونة فتركتها على الطاولة، إن احتاجها سيجدها دون أن يسألني.. سامحني يا الله.. لقد قال لي والدي ومعلمي إنَّ المسيحيين يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير وهذه محرّمات ولهذا لا يجب علينا أن نقترب منهم، وأنت لا تحب من يعصاك. أعرف أني أعصاك، ولكني أخاف من عقابه أكثر لأني إن لم أُطِعه سيؤذيني.. مجبرة، وأنت تعرف هذا، ولن تعاقبني على ذنب لم أقترفه بطيب خاطر.

تفقدتُ الأكياس قبل أن أرميها، وما وجدته في ثنيات أحدها أَفرح قلبي. بعض حبات الشوكولا والحلويات! كنتُ سعيدةً جدًّا..

- شوكولا!! آه! ما هذه الهدية! سآكلها على دفعاتٍ كي لا تنتهي..

لقد استعدتُ للحظاتٍ فرَح الطفولة.. لقد اشتراها لي؛ أعتقد ذلك. انتابني أحساسٌ غريبٌ بأنه يشفق عليّ، وأنه ربما سيغيّر سلوكه معي. ولكني قد أخذت قراري، سوف أقتله ولن أغير رأيي من أجل بعض الحلوى، ذلك

السكين الحاد في الدرج يغريني أكثر. مازلت غير واثقة من قدرتي على فعل هذا، ولكن جسـدي ملكي ومن حقي أن أدافع عنه.. أردتُ أن آخذ السكين معـي وأُخبّئه تحت وسـادتي بدلا من المصحف، ولكنـي تراجعت.. أعدته إلى مكانـه وأقفلت الدرج، وعدت إلى غرفتـي وانصرفتُ إلى كتبي. قرأت كثيرًا حتى غفوتُ، لأستيقظ على صوته الصارخ وهو يناديني.

ركضتُ إليه مسـرعة أترقب العقاب الأليم، وقفتُ أمامه كما وقفت أمي أمـام والـدي بكل خضوع لسـنين.. طلب منـي أن أحضر زجاجـات الخمر ومكعبـات الثلـج، فأحضرتها وعـدتُ لأقف أمامه من جديـد منتظرة الإذن بالانصراف، يساورني الخوف، فإن أجبرني على شرب الخمرة معه لن أقوى علـى الاعتراض. ولكنه لـم يفعل، بل طلب مني أن أذهب إلى غرفتي.. كان غاضبًا جدًّا مما يسـمعه في نشرات الأخبار. لقد سمعت أنا أيضًا أنَّ الحرب قد أوشـكت على نهايتها، أتمنى هذا، ولكن الآن ما الفائدة بعد أن مات من مـات وتدمّـر ما قـد تدمّر؟ ما داموا سـيصلون أخيرا إلى نقطـة البداية، وإلى هذه الحلول فلماذا إذًا انتظروا إلى الآن؟ لم أسـتطع النوم، فصوتُ التلفاز كان يؤرقني.. كنتُ أعلم أنَّ هذه الليلة لن تمرَّ على خير، وأنني سـأجلد في نهايتها.. تحسّسـتُ جراح جسـدي الملتئمة.. آه، لا! سيعود النزيف والألم من جديد؛ بمن سأسـتنجد؟ لم يبقَ لي أحد، فلقد تُركت لقدري، لو أني قد أحضرت السكين معي!...

ساعات مرّت وقد غالبني النعاس، ولكنه لم يُرضخني لإرادته. الخوف كان سـيد الموقف.. إني خائفة كثيرًا، كيف لي أن أقتله وأنا أرتجف هكذا؟ يجـب أن أؤمن بأني قـادرة على فعل هذا، فقوّة الإرادة سـتحوّل الرغبة إلى

فعل.. أريد فقط أن أحميَ نفسـي، والفكرة باتت مقبولة لديَّ، وها أنا عندما أكرّرهـا أشـعر أنَّ الخوف منها قـد زال.. قطع تفكيري صوتُـه وهو يناديني، ارتجفَت احشـائي ومفاصلي وكل كياني.. ماذا لو عرف ما أنوي القيام به.. أسـرعت إليه، كان لا يزال جالسًـا مكانه والزجاجات التـي أمامه قد فرغت تمامـا.. يا ويلـي من عقابه، عيناه شـديدتا الحمرة، يحمل رأسـه الكريه بين كتفيـه بصعوبـة، لم أقدر أن أسـتوعب الفكرة، لـن أسـتطيع أن أتحمل ألمًا جديدًا. خانتني ساقاي، وتوقف عقلي عن العمل، وشعرت بجسدي يرتطم بالأرض الباردة..

لا أدري مـا حصـل، ولا أدري كم مر من الوقت، عندما فتحت عيني من جديد، وجدته بقربي يمرّر يده بلطفٍ على وجهي وشعري:

- نوريستا استيقظي أرجوكِ!

كان جسـدي يرتجف من البرد والخوف، غـاب قليلًا وعاد مُحضرًا معه بعض الأغطية الصوفية، لفَّني بها بحرص قائلا:

- غدًا سنذهب إلى الطبيب.. سوف تصبحين أفضل..

كانـت رائحة الخمر المنبعثة من فمه تسـبب لي الغثيان.. أريدك فقط أن تبتعد عني.. أشـعر برغبة في التقيؤ وذلك الدوار يقتلني.. سـمع نداء روحي أخيرًا وتركني بسلام.. أطفأ الأنوار وذهب، فعاد الهدوء إلى داخلي.

أنا أفضل الآن، إني عاجزة عن فهمه. فبرغم وحشيته أشعر أنَّ في داخله طفـلًا صغيرًا وإنسـانًا معذّبًا قد حوَّله ألمٌ ما إلى وحشٍ كاسـر، إلى طاغية.. مـا قصتك يا إيفـان؟ لا.. لا أريـد أن أعرف.. ربما لو عرفت سـأتراجع عن

قتله، وربما سـأضعف، وربما سـأقع في حبه، وهذا هو الحرام المحرّم على المسـلِمات مجـرّد التفكير فيـه.. إنها جريمـة عظيمة بل كارثـة، ويجب أن أقمع نفسي وأقمعه قبل أن يحصل هذا.. لا يجب أن أتعاطف معه.. أريد أن أكرهه أكثر و أكثر، حتى أتمكن من تنفيذ ما قد عزمت عليه.

29

رغم ما كان يعتريني من مشاعر يوم دخلت بيت عائلتي مساء اختطافي لنوريستا، إلا أني لم أنس أن أحضر أوراق أختي الثبوتية، فقد كنت خائفًا أن يتمّ استيقافي على الحدود وأن يأخذوها مني. ما حصل بالأمس يؤكد أنها مريضة حقًّا، ولقد وعدتُ نفسي اليوم أن آخذها إلى الطبيب.. لا أريدها أن تموت. سأسّجلها على اسم أختي، وأتمنى ألّا يلاحظ الطبيب الصورة جيّدًا وفارق السن، إنها الآن هزيلة جدًّا وملامحها لم تعد كما كانت، وتلك السنوات القليلة بينها وبين أختي ماري أعتقد أنها لن تلفت انتباهه.

طرقتُ باب غرفتها قبل أن أفتحه، لأول مرة. أشعر نحوها بالشفقة ولا أعرف لماذا. كانت لا تزال في السرير، فخاطبتها بهدوء لم أكن يوما معتادًا عليه:

- جهزي نفسك، سنذهب الى الطبيب.. ستحملين بطاقة أختي ماري. سيصبح اسمكِ ماري، وسنّك اثنَتَي عشرة سنة، وحاذِري كل الحذر أن تتفوهي بأية كلمة عمّا يحدث بيننا.. سأقتلكِ؛ هل تفهمين؟ عدا هذا لن يصدقوك فهذه البلاد تعتنق المسيحية ولن تَجِدي من يناصركِ أو يشفق عليكِ، بل ربما سيضعونك بالسجن!

شعرت بالخوف الذي أطل من عينيها وهي تحتضن غطاء السرير، أشعرني هذا ببعض الارتياح، لقد قصدت إخافتها. كنت خائفًا أيضا من محاولتها الهرب أو إفشاء سري..

- على أي حال سأكون معكِ، فأنتِ لا تجيدين لغة البلد ولن يفهمكِ أحد مهما قلتِ..

لم أرغب يومًا بأن أدعها تخرج من المنزل، كي لا تتعرف على المكان.. ولكنها تبدو مريضة حقًّا.

انطلقنا إلى عيادة الطبيب، وهناك ملأتُ لها الاستمارة، وشكرت الرب أنها لا تجيد اللغة. انتظرنا في الصالة، حيث راح زائرو العيادة يرمقوننا بنظراتٍ غريبة.. أعتقد أنهم أدركوا أننا غرباء. فكرت أن أعود بها إلى البيت، ولكنهم أدخلونا أخيرًا إلى الطبيب. أخبرته أنني من صرب البوسنة، وأنها أختي، وأننا قد انتقلنا إلى هنا بسبب الحرب منذ ما يقارب الشهرين.. سألها عدة أسئلة، وكنت أنا همزة الوصل بينهما. اعتراني الخجل عندما أخبرته عما تعانيه من خوفٍ وقلق.. ماذا سأفعل؟ فمهما كانت النتيجة لم يعد أمامي من سبيل للعودة والتراجع عما بدأتُ فيه، فلقد أغرقت نفسي في مستنقع من الوحول وصعبٌ جدًّا أن أخرج منه نظيفًا سليمًا. قبل أن نغادر، أخذ منها عينات لتحاليل المختبر، كتب لها بعض المقويات، وطلب مني أن أعود غدًا صباحًا كي آخذَ نتيجة الفحص.

أعدتها إلى البيت وأنا مطمئن، فلقد سارت الأمور كما تمنيت. لكني كنت أحمل عبئا آخر، ماذا لو أنَّ وضعها الصحي بحاجة إلى عناية طبية خاصة، وأصروا على إدخالها المستشفى.. ماذا لو افتضح أمري؟

في صباح اليوم التالي، توجهت مسرعا إلى الطبيب لأخذ النتيجة، فكانت المفاجأة. نوريستا تنتظر طفلًا. طفلٌ مني؟! ما هذا الخبر، ماذا سأفعل؟ يا إلهي! طفلي أنا في أحشائها؟! سأصبحُ أبا لطفلٍ أمه مسلمة.. لا سأقتله وأقتلها.. ولكني لا أريدها أن تموت! فقط ذلك الطفل.. لقد طلبوا مني أن أتابع وضع حملها مع طبيب توليد، خاصة أنها لا تزال قاصرًا، فهي لم تتجاوز الرابعة عشر بعد، وربما سيتسبب هذا الحمل في مضاعفاتٍ خطيرة على حياتها. ماذا؟! هل هذا يعني أنها ستموت؟.. قدت سيارتي عائدا كالمجنون، وفتحتُ باب البيت دون وعي، دخلت إلى غرفتها صارخًا:

- نوريستا، افرحي يا صغيرة! أنتِ تحملين طفلًا في أحشائك! ستصبحين أمًّا عما قريب.. في أحشائكِ طفلي أنا.. لا! ربما كان طفل أحدٍ آخر.. من أين أتيتِ به، قولي؟

بقيت صامتةً وعيناها وفمها مفتوحان من هول المفاجأة.. أكملت صراخي:

- ليس طفلي! مستحيل أن أنجب طفلًا نصفه ملوّث الجذور، مستحيل!

رميت الأوراق في وجهها، وخرجتُ مسرعًا إلى الحانة، وأنا في حالة من الضياع أصارع نفسي.. كيف سأصبح أبًا الآن؟! سبحت بين وهمي وواقعي حتى دخلت فوجدت ماغي هناك.. عادة لا تأتي باكرًا.. سألتني مستفسرة:

- ما بك إيفان؟ ملامحك تنبئ بكارثة ما؟! اخبرني ما الأمر أرجوك..

- إنني أموت! أرجوكِ ساعديني..

ولأول مرة منذ موت عائلتي تسقط دموعي وأنتحب كالأطفال أمام شخص ما..

- يا صديقي! تعال إلى صدري.. هوّن عليك، فكل شيء سيكون على ما يرام..

احتضنَتني بدفء، فاختلطَت دموعي بخصل شعرها..

- أنا ضائع.. لا أدري من أنا وماذا أفعل.. كنت أعتقد أني أتحكم بكل شيء، وأمسك خيوط اللعبة بيدي، ثم وجدت نفسي أسقط بيد القدر وكل ما سعيت إليه قد تحطم.. يا ماغي أنا مجرم حرب هش، أنا سفاح مسكين، وها هو القدر ينتقم مني! لكني لم أكن يومًا مجرمًا أو سفاحًا بخاطري؛ لقد فرض علي كل شيء.. الموت والجريمة، وحتى نوع العمل.. فلماذا أعاقب على مصير لم أختره؟؟ هل يقبل الله بالظلم كمشيئةٍ له؟

- لا عليك يا طفلي.. غدًا ستجد جوابًا على كل هذه التساؤلات.. تسلح بالإيمان، صدقني، يد الله سترفعك رغم كل هذا الظلام والظلم الذي حولك..

- المشكلة أني لا أستطيع الكلام.. لا أستطيع البوح.. كم أودّ أن أخبرك بما يُتعبني، ولكني لا أستطيع!

- لا عليك.. أنا هنا، ومتى أردتَ ستجدني جاهزة وقلبي مفتوحٌ لك..

- أنتِ حضني الوحيد.. ليس لي أحد سواكِ، أرجوكِ لا تتركيني..

- لا تخف.. أنا معك، وسأبقى بقربك إلى أن تبعدني أنت عنك..

كنت أحس نفسي في قلبها، وأحس بحبها.. لكنَّ هناك أعوامًا كثيرة تفصل بيننا، وهذا ما يجعلني أرى حبها لي حبًّا أموميًّا، وربما عاطفتي تجاهها هي أيضا افتقاد لحضن أمي، وهذا ما أحتاجه وأريده الآن؛ حضن أمي. يجب أن أجد حلًّا لما أنا فيه، وإلا سأخسر آخرَ أملٍ لي في العودة إلى الحياة.

30

سمعت طرقه الخفيف على الباب استئذانًا للدخول إلى غرفتي. إنه حقًّا غريب ويثير حيرتي..

- نوريستا حضري نفسكِ، سنذهب إلى الطبيب..

لقد قال لي هذا بالأمس ولكني لم أصدقه؛ اعتقدت أنه سكران.. كان يحمل بيده بطاقة أراني إياها قائلًا:

- هذه بطاقة أختي، لقد أحضرتها معي وسوف تستعملينها، سيصبح اسمكِ من الآن وصاعدا خارج هذا البيت ماري، ولكنها ستبقى معي..

كان هناك خوف وقلق في عينيه.. خوف من أن أشي به، أو أن أهرب. ولكن أسلوب كلامه الصارم وتهديده لي أدخلا الخوف إلى قلبي. لم أصدق ما قال.. ربما نحن فعلًا في بلد مسيحي، لكن هل صحيح أنه من الممكن أن يدخلوني السجن بسبب انتمائي إلى دينٍ آخر؟ هل يقتلون هنا أيضًا الناس، فقط لأنهم يحملون أسماء غريبة، كما كانوا يفعلون في بلادي؟ في كل الأحوال لم أكن أنوي أن أفعل أي شيء من هذا القبيل، فأنا متعبة، ولا أجيد لغة هذه البلد، بل لا أعرف أصلا أين أنا. فليفعل ما يشاء، وعندما أتعافى وأصبح جاهزة سأقتله، وهذه البطاقة التي معه ستضمن لي الأمان

والحريـة،. الفتاة تشـبهني قليـلًا، ولن يلاحظ أحـد تلك الفروق البسـيطة. قريبًا سـيصبح هـذا المنزل لي، وما عليّ إلا أن أتعلـم اللغة وأعتني بصحتي وأسـتجمع شـجاعتي وأقتله. يجب أن أسـتفيد من الوقت لكي أعتمد على نفسي..

ركبنا نفس السيارة التي أتينا بها إلى هنا منذ شهور. رحت أراقب المكان خـارج سـور الحديقـة، وكأني سـجينٌ يرحل من مـكان إلى آخـر، أدقق في أسـماء الشـوارع، أريد أن أحفظ كل التفاصيل، لربما حدث ما كنت أخطط له. كانت المدينة صغيرة وهادئة، يسـكنها النظام والسـلام، ولا تشبه بلادي أبدًا.

الجميـع فـي العيـادة كانـوا يرمقوننـا بنظـرات الاسـتغراب والحـذر.. ربمـا هـو محق فيما قالـه. بعد قليل دخلنـا إلى الطبيب وبدأ بطرح الأسـئلة وإيفان يترجمها وانا أجيبه. كانت عينا إيفان قلقتين يملؤهما الخجل والندم والشـعور بالذنب.. إنها المرة الأولى التي يسـمعني فيها وأنا أتكلم، وينقل وجعـي الذي سـببه هو لـي. إنني أوقـن الآن أنه ليس هناك شـرٌّ مطلق، ففي داخل إيفان إنسـان، هو الذي لا يسـمح له بالنمو، و يقوم بتقزيمه وإرضاخه لحجر الإرادة.

مررنـا بصيدليـة المركز قبـل عودتنا إلى السـجن.. ذلك السـجن الذي سـينتهي قريبًـا.. تناولـتُ غدائـي ودوائي بعـد أن غادر البيـت، وعدت إلى سـريري أحمل معي مـن المكتبة أوراقًـا وقواميس. إن أردت الرحيل عليَّ أن أتعلم ما سيسـهل عليَّ هذا.. وسـرى الأمل في عروقي مع هدفي الجديّ الجديد، البحث عن الحرية.

في اليوم التالي شعرت بتحسن ملموس، إنها الليلة الأهدأ منذ دخولي إلى هذا المنزل. لقد نمت مليًّا دون كوابيس، ربما الدواء قد ساعدني، والأمل أيضًا.. يجب أن أعتني بنفسي وأن أتعافى، ففي هذا الكون ليس هناك مكانٌ للجبناء الضعفاء.. حتى علا صراخه من جديد وهو يقتحم غرفتي، لأجده أمامي والغضب يتطاير من عينيه، صاح بي قائلًا:

- نوريستا أنتِ تحملين طفلًا في أحشائكِ، ستصبحين أما هل تسمعين؟

أخذ يصرخ وقد ركز عينيه في عيني.. ثمَّ رمى الأوراق في وجهي وذهب، وخطواته تكاد تخترق الأرض من شدة وطأتها. وبقيت في مكاني أحاول أن أستجمع تركيزي وأحلل ما قال و أفهمه.. طفل في أحشائي؟ كيف حدث هذا؟ من أين أتى؟ لا أعرف؟! هل إيفان والده فعلًا؟ رن صوت أمي مجيبًا بتلك الجملة المملة:

- عندما تكبرين ستعرفين، هذه هي إرادة الله يا طفلتي..

هل هذا حقًّا ما يحدث الآن؟ هل هذه إرادة الله؟!

وضعت يدي على بطني أتحسس هذا الطفل، فلم أشعر به.. كيف سأصبح أمًّا؟ إيفان قال لي إني سأصبح أما، وأنَّ طفله هو في أحشائي.. كيف تشاء إرادة الله أن تضع طفلَ قاتل في أحشاء ضحية؟.. وضعتُ يدي على نهديَّ وتحسستهما، مرّرتُ يدي على بطني الفارغة الملتصقة بعظام ظهري، كيف لي أن أنجب طفلًا، وكيف سأربيه؟ وكيف سأطعمه اللبن من صدري، وهل سأستطيع أن أحمله وأعتني به؟! سوف يكبر في أحشائي أنا، وهذا يعني أنه سيكون تابعًا لي أنا!..

تغيّرت كل حساباتي.. انتابني خوفٌ قاتل، كيف سأنجبه وحدي، وكيف سأتحمل ذلك الألم الذي تحملته أمي أثناء ولادتها لإخوتي؟.. مازالت صورتها وصوت صراخها في مسمعي حتى الآن. أتذكر جيدًا كيف انتفخ بطنها حتى باتت غير قادرة على الحراك، وكيف كانت تقوم بأعمال المنزل رغم هذا وتخدم والدي، وتلك الحقيبة التي كانت تضع فيها أشياء الطفل القادم.. كيف سأنجب طفلًا وأنا سجينة؟ من أين سأشتري له الملابس وما يحتاج؟! هذا فظيع.. وإيفان.. كيف سأقتله وأبقى أنا وذلك القادم وحيدين؟.. ماذا سيحل بنا الآن، وأنا بالكاد أخذت قراري وأحاول أن أشدَّ من عزيمتي؟ كيف سيكبر هذا الطفل المسكين مع أب قاتل؟ يا الله إني وحيدة وليس لديَّ من أسأله فيشرح لي ما ينتظرني.. حتى بكائي لن يسمعه مجيب.. سامحكِ الله يا أمي لماذا لم تخبريني؟ لماذا تركتني هكذا غريبة عن نفسي وعن جسدي؟ كيف يجب أن تكون المرأة جاهلة حتى تتمتع برضا الله، هل عبادة الله تتنافى مع أن أعرف كيف أتصرف الآن؟! هل جنات الخلد فقط للمغفلات المنكسرات؟!

31

عـدتُ إلى بيتي بعد يوم عملٍ منهك نفسـيًّا وجسـديًّا، وقفـت أمام بابها يعتصرني الحزن والألم، فأَنا وهي ضحايا هذه الحرب اللعينة. ما ذنبها لكي تدفع ثمن جريمة ارتكبها أحد من بلدها مع أهلي؟ هل أطلق سراحها وأدعها تذهب إلى حيث تشـاء؟ لم تعد عندي رغبة في مسّ جسـدها، فلتذهـب.. لا لا.. يجـب أن أفكر مليًّا.. سأسـتحم وبعدها سـأتناول بعض الخمر، وأفكر جيدًا، عليَّ أصل إلى حل ما ينقذني مما أنا فيه..

جلسـت في الصالة أتابع الأخبار، ولكني لم أكن أسـمع شيئًا، فدماغي كانـت مشـغولة بواقعي، وكأنَّ مشـاكل بلادي أصبحَت حالـةً ما في كوكب آخر. سـأصبح أبًا.. سأحمل طفل نوريسـتا وأتصور معه، طفل يشبه عائلتها ووالدها.. سـنصطحبه أنا وهي إلى المدرسـة وحديقة الأطفال ونشـتري له السـكاكر والألعـاب.. آه كم هي جميلة تلـك الصور.. إحسـاسٌ رائع لكن يغتصبه إحسـاسٌ بالذنب والشـفقة على هذا الطفل المسـكين الذي سينمو بيـن يـدَي أب قتـلَ قوم أمّـه.. طفل هو ثمـرة اغتصاب.. أي دين سـيعتنق؟ وكيف سـيكون وسـطيًّا، يذهـب في الصباح إلى الكنيسـة وفي المسـاء إلى المسـجد؟.. أضحكتني هذه الفكرة كثيرًا.. سـأعمّده، ففي المعمودية تُغفر الخطايـا، ولن تجرؤ على منعي.. لكن مهلًا، إن لم تجرؤ هي سـيفعل هو..

ربّمـا سـتعلّمه الصـلاة، وربّما أفاجـأ بهِ يومًا مـا يحملُ المصحـف ويُرخي لحيتـه.. ربّما سـيقتلني أنـا الكافر الضّال بنظـره ونظر أمّه وأسـلافه، هذا ما أخبرني به والدي وحذرني منه دومًا.. أي جنون هذا؟.. روحه سـتنتقم مني شر انتقام..

لا أعـرف مـاذا أفعل.. هل أقتل نوريسـتا وأحتفظ بالطفـل؟ هل أقتلهما الاثنيـن معًا؟ إنَّ هـذا الطفل في نهاية الأمر مدنّـس بالخطيئة، كهؤلاء الذين ولـدوا في معتقلات النسـاء، والذين من كثرة اغتصـاب المقاتلين لأمهاتهم كان مـن المسـتحيل أن يعرفـوا من أي أب قـد أتوا إلى الحيـاة. ماذا لو كان أحـد مـا قد اغتصبها قبلي؟ أيُعقَل ألّا يكون طفلـي؟! أجل، ممكن أن يكون هـذا واقعًا.. سـأدعها تذهـب، ولتبحث عن والد طفلها. ولكن ربما وشـت بـي، وربما عرف الجميع بقصتي، وربما عرفوا أنَّ الطفل طفلي وهي تحمل بطاقة أختي.. سيدخلونني السجن.

لن أسـتطيع أن أغتصبها من جديد، لن يثيرني جسدٌ أشعر بالشفقة عليه. حتـى رغبتي في الانتقام باتت شـبه منتهيـة، وهذا يخيفني.. سـأموت حتمًا إن خسـرتُ نفسي.. عاملٌ حقير أغسـل الأطباق والخضار وأنظّف المطبخ وأرمي النفايات، أتحمل تعسـف أيليز وأتجنب ماغي ومشـاعرها تجاهي.. إنني سجين في هذه الحياة.

غفـوت علـى الكنبة في الصالة، بعد أن شـلَّ دماغي طـول التفكير حتى دقَّ منبّهُ الهاتف معلنًا عن موعد الذهاب إلى العمل، فنهضتُ منكسرَ الحال كانكسار بلادي، أجرُّ أذيال خيبتي كما تجرُّها.

دخلَ عليَّ أيليز محاولًا إشعال ثورتي التي كنت أظنها انطفأت:

- هاي، أنت إيفان! ممكن أن تتحرك بسرعة أكثر!؟ الحانة مكتظة والأطباق النظيفة شارفت على النفاد.. هيا أسرع..

سكينُ المطبخ الكبير أمامي يناديني.. ماركوس كان هناك يساعدني دون أن يبالي، منهمكًا معنا أيضًا في زحمة العمل. أخذتُ السكين وقبضت على مقبضه الخشبي بشدة.. تأمّلتُ بريقه الذي أعاد بريق عينيّ، وأعاد معه الحياة إلى داخلي.. الغد لا يعنيني، فلأدخل السجن، لا يهم، كلّ همّي أن أنتشي بقتل هذا الكاثوليكي البغيض، وأن أشاهد دماءه تسيل على الأرض والجدران، ولنذهب معًا إلى الجحيم. سأقتل نوريستا وطفلها، وماغي تلك العاهرة التي رمت عفّتها من أجل النقود.. سأقتلهم جميعًا! ناديته بصوتٍ صارم النبرة:

- أيليز، استدِر لتتذوّق طعم الموت، فلم أعتد أن أطعن أحدًا من الخلف!

- إيفان!! ماذا تفعل يا صديقي؟ أرجوك!!

- ما أشهى مذاق الرعب في عينيك.. الآن تتوسّلني؟ أين ذهبت أوامرك وإهاناتك وكراهيتك وإذلالك لي؟ تبًّا لذاك السلام الذي بحثتُ عنه.. الآن؛ وبسببك، سوف أعود إلى ما كنتُ عليه.. تبًّا لك أيّها الحقيــــــــــــــــــر!

ما إن اقترب السكينُ من عنقه حتى حال ماركوس بينهما.. كان أقربَ إليّ من حقدي، وكذلك عيناه وكلامه:

- إيفان، أرجوك لا تتهور..

صوت ماركوس وخوف أيليز أعاداني لأول مرّة حاولتُ فيها القتل في حياتي. أكره هذا الضعف الذي حاربتُه كثيرًا قبل أن أصبحَ مجرم حرب..

- ابتعد يا ماركوس، لن ينجو هذا السافل من الموت..

- اهدأ، أعطني هذا السكين، ولنجلس ونتكلم بهدوء، ودع أمر أيليز لي..

- لقد أشبعني ذلًّا وإهانة فقط بسبب انتمائي.. لم أفعل له أي شيء وأنت تعرف هذا.

- إنك متعب.. لا تضع حدًّا لحياتك وأنت تحت تأثير الغضب، اهدأ أرجوك!!

أخذ السكين مني، ثم جلَسَ كلٌّ منا في زاوية. سادَ جوٌّ من الصمت، كانت فيه الأنفاسُ تزاحم بعضها البعض، والنظرات تقتفي آثار الأخرى بحذرٍ وترقّب، بقينا هكذا إلى أن خاطبنا ماركوس قائلًا:

- هيا أيليز تقدم واعتذر له الآن..

ردَّد الآخر كلمات الاعتذار بخوفٍ وخشوع:

- أنا آسف إيفان، لم أكن أقصد أن أجرح مشاعرك.. إن همي الوحيد هو أن تتقن عملك.. الأديان لا تعني لي شيئًا، فكلنا إنسان وكلنا إخوة..

- كان بودّي أن أسكب دمك في الكؤوس بدلًا من الخمر. أنت لا تعرف بعد من أكون..

كان كلامي قاسيًا جدًّا، وحتى ماركوس بات خائفًا مني..

- حسنًا، اذهب الآن إلى البيت.. تمشَّ قليلا ورفِّه عن نفسك، فأنت تعاني من إرهاق شديد..

نزعت مريول المطبخ عني، وخرجت دون أن أتفوه بكلمة. لم أعرف إلى أين أذهب، فما ينتظرني في المنزل أشد إيلامًا مما تركت ورائي. جُلت في الشوارع وفي الحديقة العامة، أتفكر فيما مرَّ بي، وكم كانت قاسيةً هذه السنوات.. انتقالي الجبري من الطفولة إلى الشباب، تدريبي وتحويلي إلى ما أنا عليه الآن. لم أكن كذلك عند دخولي إلى الثكنة العسكرية، بل كنتُ شابًّا يانعًا خجولًا يكسر الحزن قلبه، لم ترق شخصيته لقائد المجموعة، والذي كان يعاملني كما أيليز الآن. كنت أعتقد أنَّ الأمور ستسير على ما يرام، ولكن خابت كل توقعاتي.. معسكر تدريب القوات الخاصة كان أشبه بمعتقل، بحقل تعذيب.. كان صعبًا عليّ وأنا ابن السادسة عشر أن أتحمل قسوته من تمارين قاتلة، قفز من أماكن مرتفعة فوق النار وتحتها، تسلق جبال وحبال، سباحة في مستنقعات الوحل والماء البارد، طعام من لحوم الحيوانات النيئة، زحف على الصخور والأشواك.. كنت أحس بكرهه لي ذلك المدرب، ربما لأني ضعيفٌ ومتردد ولا أملك الجرأة ولا الإقدام..

- يجب أن تصبح رجلًا. سأصنع منك رجلًا..

هذا ما كنتُ أسمعه منه دائمًا قبل أن يصفعني. كان هذا خبزي اليومي إلى أن حان وقت الامتحان الأصعب. أعطاني البندقية وأحضر أمامي أحد المعتقلين وهو مكبل اليدين:

- هيا! أطلق النار على رأسه.

لم أستطع، كانت نظراته تتوسّلني وتطلب مني الرحمة..

- هيا! أطلق النار!

ارتجفت يداي.. كيف لي أن أفعل هذا؟ إنه إنسان، كيف أنهي حياته؟!

- سأعلمك كيف تصبح رجلًا!

نزع البندقية من يدي، وأطلق عليه النار بنفسه، وطلب أن يحضروا سجينًا آخر. عاد وأعطاني البندقية..

- هيا نفذ الأوامر وإلا فستعاقب!

أنا هنا لأتعلّم هذا، يجب أن أفعل!.. مازلت خائفًا.. بيدين ترتجفان صوبت الفوهة عليه.. تساقطت دموعه وسقطت البندقية من يدي، ولم أدرِ كيف أصبحتُ تحت أقدام المدرب وهو يشبعني ضربًا وركلًا:

كيف ستحرّر أمّتك بيدين ترتجفان وقلب يشفق على الأعداء؟!

سحبني من على الأرض وعاد وأعطاني البندقية، وصوب مسدسه على رأسي..

- إن لم تقتله سأقتلك أنا بنفسي. إنهم أعداؤك، من اغتصبوا عائلتك وأرضك، هيا، أنت تدافع عن حقك في الحياة، أنت تطهر الأرض من الأرجاس..

تذكرت تلك الصور المؤلمة ومسدسه يحفر أثره في فروة رأسي. لم يكن أمامي خيارٌ آخر.. ضغطت على الزناد وسقط الرجل، ليسقط بعده المئات، وها أنا منبوذٌ من كل من حولي.. إنَّ الموت أرحم فعلًا من الذل والمهانة بعيدًا عن أوطاننا.

32

وكما العادة، ليس لديَّ ما ألجأ إليه سوى المكتبة، أبحث فيها عن ذاتي المفقودة. فوق هذه الرفوف عزاءُ روحي الوحيد.. يجب أن أحمي طفلي من الجهل، فبعد أن أتخلص من إيفان سأربيه وحدي. لن أكون مثلك يا أمي وأدعه يكبر في بيئة يخيّم عليها الموت والحزن.

وضعتُ السلّم على المكتبة لأتمكن من تفحص تلك الكتب الكبيرة التي لا أستطيع الوصول إليها. سوف أعيد ترتيبها من جديد، ما يناسبني وأستطيع قراءته وأفهم لغته سأضعه بمتناول يدي، أما البقية سأرفعها إلى الأعلى، وسأشغل نفسي في هذا العالم الجميل كي يشعر الطفل في داخلي بسعادتي.. لا شك أنه يشعر بي.

أدهشني ما رأيت.. كتب قديمة بلغات مختلفة، كتب أخرى تحتوي رسومًا غريبة، صور شياطين وملائكة وجداول وأرقام.. أخذت كل ما شدَّ انتباهي رغم جهلي للغته. معضلة اللغة لا تزال تؤرقني؛ إنها العقبة التي تحول أيضًا بيني وبين هربي، لكن إن بقيت حية، سأفك رموزها وأتعلمها. فكرة جديدة استحوذت علي.. قررت أن أقسِّم وقتي من جديد وأضيف دراسة اللغة إلى جدول يومياتي، كما كان الحال في المدرسة، فجدولة الوقت تمكن الفرد من الاستفادة من كل دقيقة.

فـي الجانب الآخر من المكتبة، كانت هناك كتبٌ ودفاتر مدرسـية ودفتر مذكرات كتب عليه اسـم (آنا كورتز).. كل ما في هذا الركن يحمل اسـمها. كانـت هناك أيضًا علبة مخملية بقفـلٍ ومفتاح، أدرت مفتاحها الصغير بحذر فوجدت في داخلها العديد من الرسـائل والصور.. صور لطفلة بقرب قالب الحلـوى كتب عليـه (آنا) بجانب شـمعة واحـدة في عيـد ميلادها، وصور أخرى لنفس الفتاة في مراحل مختلفة، وصور مع زوجها وأولادها، وأخرى مـع صاحـب البيت. مـا فهمته ووصل إلى ذهنـي أنَّ (آنا) هـذه ابنة صاحب البيت، وأنَّ هذه الصور صور أسـرتها. يبدو أنها اعتادت أن تكتب له بشـكلٍ منتظم، هناك تقريبا رسالة كل شهر لم أستطع أن أفهم إلاّ التاريخ فجميعها قـد كتبت باللغة المحلية.. وهذه الرسـالة.. أعتقـد أنها الأولى.. فيها صورة طفل وليد رسم في آخرها قلب واسم فريتز، ومن الجهة الأخرى كتب اسم إيفان.

- ماذا؟! هذا هو إيفان عند ولادته.. إنه حفيد مالك هذا البيت، وهذه السيدة الرائعةُ الجمال هي والدته!..

صورة أخرى.. أعتقد أنَّ هذا الرجل هو والده، إنه صربي الملامح، يبدو أن ابنـة هذا الرجـل قد تزوجت والد إيفان وذهبت معه إلى البوسـنة. ويبدو أنها لم تعد إلى هنا إلا نادرًا.. راقبت تسلسل التواريخ على الرسائل.. هناك أشهر قليلة من هذه الحقبة الزمنية لا يوجد فيها رسالة تحمل تاريخها، يبدو أنَّ صاحـب البيـت قد جمع هذه الأشـياء بعناية وكأنها كنـزه الثمين مع هذه الكتب.. فتحت رسـالة أخرى تحتوي على صورة لطفلة، وقد كتب اسـمها عليها "ماري . إنها أخت إيفان التي أسـتعمل الآن بطاقتها.. آخر رسـالة مع

صـورةٍ لعائلة إيفـان كانت في عيد الميلاد 1990، إيفـان ماري مارك وليوي الصغيـر ابـن الخمسـة أعوام.. مـاذا حدث بعدهـا؟ وأين هـي عائلته الآن؟ غريـب.. هذا القاتل عنده عائلة؟ كيـف لهذا الجد المثقف أن ينجب أحفادًا قتَلة؟! بدأت أشك أنَّ خلف إيفان هذا الكثير من الغموض والأسرار والألم الـذي جعله يفقد إنسـانيته ويتحول مـن ملاكٍ إلى شـيطان.. في آخر صوره قبل الحرب كان جميلًا بريئًا، عيناه تلمعان وفيهما الكثير من الأحلام.. ماذا حـدث، وكيف هرم هكذا خلال هذه السـنوات القليلة؟.. أقفلت الصندوق وأعدتـه إلـى مكانه وأخذت مفتاحـه معي.. يومًا ما سـأتمكن من قراءة هذه الرسائل، وسأعرف قصة هذا القاتل.

33

كانت نوريستا جالسةً في الصالة بين الكتب والسعادة باديةٌ على وجهها.. جنَّ جنوني، أنا أتخبط بما أنا فيه وهي تلهو هنا سعيدة وكأن شيئا لم يكن.. أردتُ أن أقتلها.. لن تحل لعنة القلق عليّ وحدي.. لم أحملها إلى هنا لكي تحيا بسعادة!

- ماذا تفعلين؟ تلهين بالكتب والأوراق؟! لِمَ هذه المعاجم وكتب تعلم اللغات؟ ماذا تحاولين أن تفعلي؟

اقتربت منها.. كنت أريد أن أحطم رأسها وأن أكمل ما لم أفعله مع إيليز. ولكنَّ تلك الدموع التي تساقطت من عينيها ونظراتها الطفولية حالت دون ذلك.. يبدو أنني بدأت أضعف أمام رؤية الدموع.. تبًّا ما هذا الذي يحصل لي؟!

- تعرفين ماذا سأفعل الآن؟ سأنقل هذه الكتب إلى مخزن البيت، وستساعدنيني أنتِ في ذلك.. سنلهو سويًّا.. سنفرغ هذه المكتبة ونقفل الباب على هذه الكتب وستعودين وحيدة، لن تجدي ما تفعلينه سوى التفكير في مصيرك الأسود يا ابنة القتلة،، هيا احملي ما تستطيعين واتبعيني!

أخـذت تجمع مـا كان أمامها من كتـب ودموعها تمـلأ عينيها، وأخذت أنا ما أستطيع حمله واتجهنا عبر درَج داخلي إلى مخزن البيت. فتحتُ بابه المقفـل، وأدخلنـا ما نحمـل.. أحضرت من هنـاك صندوقًا فارغـا، وأخذنا نمـلأُه ونحمله سـويًّا إلـى المخزن.. أثـارت دموعهـا وتوسّـلاتها الصامتة تسـاؤلاتي، فهـي لم تبكِ هكذا أبـدًا حتى يوم مقتل عائلتهـا. إنها حقًّا غريبة الطباع. كنت أريد أن أضنيها، فلربّما يموت ذاك الطفل اللعين في أحشائها.

- هيا احملي هذ الصندوق وأنا سأحمل الآخر.

أخـذت تجرّه باكيـةً، وهي تحاول أن تمسـح دموعها بكـم قميصها بين الحين والآخر، لتكمل ما طلبته منها بصمت..

لـن ينفعـكِ البكاء.. لن أتـرك لكِ فرصـةً للمتعة.. تذرفيـن الدموع على الكتب، وأنتِ لم تبكي حتى يوم موت عائلتكِ!

حـل الليـل، وبعد منتصفه كنا لا نـزال منهمكين بعملنـا، والذي أخذني قليلًا من واقعي. أما قضية حمل نوريسـتا، فلم يكن هناك من شـيء في هذه الدنيـا قادرا على نزعها من تفكيري ولو لدقيقة. يجب أن أجد حلًّا.. رغبتها فـي تعلُّم اللغـة أعادتني إلى أحضان جـدّي المثقّف والمفكّـر، أعادت إليّ كلماته:

"خطر الكتب على صانعي الحروب أشدّ فتكًا من خطر الرصاص. لو كان لمـن يخوضـون الحروب حظّ المعرفة، لما تمكّـن صناع الحروب من السـيطرة على مصائرهم، ولما أصبحوا لعبة في أيديهم، فرقٌ كبيرٌ بينَ وعاءٍ فـارغ جاهـز لأن يملأه أيّ كان بما يريد، وبين وعـاءٍ ممتلئ حتى أطرافه بما يفيض به العقل من معرفة وثقافة"..

ربّما لو قدّر لي الحظ أن أكمل تعليمي لما تحولت إلى قاتل. الآن أدركتُ مصيبتي، لكن بعد ماذا.. لم تعد عندي قدرة على التغيير، العادة بناؤها سهل، لكنَّ التخلص منها صعب إن لم يكُن مستحيلًا. لقد تلوّث وعائي ببقايا الجثث المتعفنة والدماء، ولم يعد صالحًا للاستعمال الآدمي حتى ولو أحرق بالنار، وأنا وكل من سيشرب منه سيموت. عندما دخلت ووجدت نوريستا مبتسمة متناسية واقعها بين الكتب، أدركت هذه الحقيقة، فارتعدت خوفًا وحقدًا عليها، هي الضعيفة قد وجدت طريقا تخرج به نفسها من ألمها، بينما أنا مازلت أتخبّط بمليون نار.. تبًّا لكم جميعًا.

34

لقد لاحظ تلك المجموعة التي وضعتها جانبًا، وأحس بما أعد له، إنه قريب الشياطين، كم أكرهه..

- ماذا تحاولين أن تفعلي؟

أحسستُ أنَّ يديه ستهويان عليّ وتشبعاني صفعًا وتحطيمًا.. ما هذا الحصار؟ ما هذا يا الله؟ انتحبت روحي وكدتُ أرجوه وأن أقبّل قدميه لكن ما كان هذا لينفعني، إنه مجرمٌ محترف يدرك كيف يقتل الأجساد والأرواح. هذا العقاب فعلًا أشد ألمًا من اغتصاب جسدي، إنه اغتصاب لروحي وحقّي في الحياة..

عملنا كل الليل بصمت، حاولتُ أن أنقل تلك الكتب التي تخص والدته بحذر، ودون أن يلاحظ وضعتها بنفسي خلف مجموعات أخرى، وذلك الصندوق أيضًا -والذي كان مفتاحه معي- لن أدعه يفرح بأشياء أمه وبصور طفولته. وضعت الكتب العربية على حدة، فهو لا يعرف أني أجيد قراءتها، وكان عندي شعور بأنني سأعود وأقرأها يومًا ما.. ربما بعد أن أتخلص منه سوف أعيد كل شيء إلى مكانه.

لا أعرف ماذا أصابني منذ أن استعدت هبة البكاء. منذ أن تساقطت دموعي أصبحت أقوى، وبتُّ أشفق على نفسي وأشد من عزيمة ذاتي. رغم

ذلـك الطفـل الذي أخبرني عنه إيفان، والذي لا أحسـه، أشـعر أني بصبري هـذا أجتاز ضعفـي، وكلما زاد ظلمُه لي كلما أدركتُ قوتي وانكسـاره، فهو يسـتبد بي لكي يشعر بقوته، يسـتلذ برؤية الخوف في عيون الآخرين، ولكنه لا يدرك أنه متى انكسَر هذا الخوف سيحصد هو أول ثمار الهزيمة والانتقام أمام من ظلمَه.. ليس هناك شيء أبدي.. هناك دائمًا نهاية لكل شيء في هذه الحياة.

أنهينـا مهمّتنا.. بـاتَ المنزلُ فارغًا كالسـجن، وباردًا كقطعـة جليد. كنّا تَعِبَين وقد أوشـكَ الفجر على البزوغ. لم يكُن الانكسار الذي في عينيه يقلّ عنه في عينيّ، كلانا مهزومٌ ومكسور ويتألّم بطريقته. ورغم أننا قريبان، هناك آلافُ الأميـال تفصلنـا. مشـى كلٌّ منا إلـى غرفته، إلى عالـمِ قوقعته وحزنه. دخلتُ إلى غرفتي وارتميتُ على السرير بما أحمله من غبار الموت والأسى والألـم. قتلني إيفـان بما فعله بي، لكن كان عزائي ما سـبق أن أخفيته تحت سريري من كتب، وذلك الراديو الصغير الذي يأكله الصدأ.

35

مرّت شـهور وأنا أنام في النهار وأذهب إلى الحانة في الليل. لقد عدتُ لاشـَغل موقعـي الأول، أجلس على البـار وأيليـز الخنزيـر يخدمني. كنت أسـتمتع بهذا خاصة عندما أعطيه بعض البقشـيش.. أنا الآن زبون، والزبون دائمًا على حق.. كنت أراقب من كنت أخدمهم،

لا يزالـون كما هـم.. يأتي بعض الغربـاء أحيانًا ويذهبـون، ولكنَّ زبائن الحانـة هـم أنفسـهم. تذكـرتُ مقولـة ماغـي إن من يحضـر إلى هنـا يدمن الحضـور.. وذلـك المخلـوق مجهول الجنس مـازال أو مازالـت تأتي أو يأتي مع تلك المراهقة الشـقراء.. إنها فتاة، ولكني أشـك أحيانًا في تحليلي لجنسـها، فهـذا المخلـوق غير محـدد الجنس فاحـش الثراء فـي كل عطلة أسـبوع يبحـث عن امـرأة أو رجل مثير يدفـع له الكثير من النقـود ويمضيان عطلة الأسبوع معًا، ثم يبحث عن آخرين للأسبوع القادم..

- لِمَ تراقبها يا إيفان؟ هل تود أن تذهب معها؟

- ربما يا ماغي، هذا إن أردتِ أن تقرئي في الجريدة أنهم وجدوا جثة مقطعة وأنَّ الفاعل مجهول..

- تبًّا لك!.. لماذا هذا العنف؟ إنها حرية شخصية يا صديقي..

- عندما يملك الإنسان حريته ويملك النقود وكل ما يسهل عليه مشقة الحياة، ويختار الانحراف والانغماس في الخطيئة، هذا يؤكد أنه شيطاني الروح ويستحق العقاب!

- أنت لستَ متدينًا، أنت متزمت دينيًّا.

- هذا أنا، ولو وُلّيت حكم العالم لقمتُ بتطهير عرقي أشدّ فتكًا من ذلك الذي أقامه هتلر رغم أنني اشتراكيّ النزعة، ولكن فيما يخص الأعراق فإني لن أتهاون في تعاملي أبدًا..

- لا تغضب إن قلت لك إنك تثير شفقتي، وأعلم أنه لن ينقذك من هذه المشاعر سوى العمل..

ضحكت عاليًا:

- لقد حاولت وفشلت..

- ما رأيك يا صديقي لو بحثت لك عن عمل آخر، فأنت في مقتبل العمر ولن تمضي ما تبقى منه في هذه الحانة. لديّ بعض الأصدقاء يملكون صالة لعرض السيارات، سأكلّمهم، ربّما هم بحاجة إلى سائق أو مساعد ميكانيكي، أو أي شيء.. ربّما أنساك انخراطك في العمل بعضًا مما أنت فيه..

لا مانع لديّ إن قبِلوا بي، وأشكّ في هذا..

رأيت في عينيها ابتسامةً يملؤها الحنو والمحبة.. أردتُ أن أخبرها بمعاناتي وبقصتي مع نوريستا، ولكني لم أجرؤ، فلن تفهمني بالتأكيد..

- ماغـي أريد أن أطلب منكِ خدمة، شـقيقة صديقـي تقيم في منزلي لبعض الوقـت.. تركهـا عندي إلى أن تسـتقر الأمـور قليلًا، فزوجها قـد قتل في إحدى الغارات، وهي حامل المسكينة.. أخذتها إلى الطبيب، هذا الطبيب في آخر الشارع، تعرفينه؟

- أجل أعرفه.. ماذا قال؟

- قـال إنها ضعيفة وبحاجة إلى بعض العناية، سـأعطيكِ بعض النقود الآن، أريدُ منكِ أن تشتري لها وللطفل بعض الملابس، هي نحيلة ولن تتحيّري في مقاسها، أنتِ أعلمُ منّي في هذه الأمور.

- طبعًا، سأفعل لا تقلق.

لاح شيء من الشك في عينيها، ولكني تداركت الأمر..

- هـا هـم يجـرُون المفاوضات، وإن توقّـف القتال من المؤكد أنها سـتعود قريبًا..

- هل تريدني أن أزورها؟ أو أن أرافقها إلى السوق؟

أجبتها بحزم:

- لا، ليسـت بحاجة إلى المرافقة.. ابتاعي لها ما تحتاج وهذ كافٍ، وأرجو أن تتابعي مع أصدقائكِ موضوع الوظيفة..

شـعرت بالندم لأنني بحتُ لها بهذه الأسـرار، فربمـا تتبعتني لتتأكد مما أقول. تركتُ الحانة لأبحثَ عن هواء نظيف أتنشّقه، لأخفّف من ضغط تلك الأسئلة التي كانت تلّح علي.. ماذا لو وجدَت لي عملًا؟ كيف سأتعايش مع أصحابه؟ وهل سأتمكن من الاندماج في مجتمع لا أنتمي إليه؟

وصلت إلى البيت حيث نوريستا، والتي بات وضعها يقلقني أيضًا، فلقد مرَّ على حملها خمسة أشهر، وها هي تنهزم أمامي يومًا بعد يوم. أريدها، ولكن لا أستطيع لمسها. أشعر برغبة تشدني إليها، و أشعر أيضًا بالاشمئزاز منها ومن طفلها.. أتخبط بهذا الواقع كل ليلة، ولا أعرف كيف سأخرج منه، وكأنه مستنقع من رمال دون قرار. جُلت في صالة البيت ذهابا وإيابًا، استلقيت على الكنبة دون أن أشعر بنفسي، إلى أن أيقظني رنين الهاتف مذعورًا.. إنها الثامنة صباحًا..

- ألو.. سيد دافيتش؟

- نعم، تفضلي..

- موظفة مركز الشؤون الاجتماعية معك..

دب الذعر في أطرافي.. جمعت أنفاسي وأجبتها بهدوء.

- وكيف أخدمك؟

- أبلغنا الطبيب في منطقتكم أنَّ شقيقتك حامل، لقد حوّل أوراقها إلى الطبيب النسائي، وبعد أن تابع الملف اكتشف أنها لم تسجل إلى الآن أية تفاصيل عن وضعها الصحي في أي مركز علاج أو عيادة، لذلك سيحضُر موظف من قِبَلنا لزيارتكم ولأخذ المعلومات حول وضعكم الاجتماعي ووضعها الصحي..

- ليس هناك داعٍ للزيارة، فشقيقتي قد عادت إلى البلد، وربما لن تعود إلى هنا..

- لكننا بحاجة إلى ملء بعض الأوراق استكمالًا للمعلومات الخاصة بالسيدة ماري، فالزيارة ضرورية في كل الأحوال..

- حسنًا كما تريدون..

- سوف نُعلمك مسبّقًا بموعد الزيارة..

قلقت، هل أبلغَت ماغي عني؟ لا لا أعتقد.. لم تمرَّ إلا بضعة ساعات على حديثنا، وهي صديقتي ولن تفعل هذا بي.. ربما كانوا يراقبون المنزل ويعرفون أنها هنا!.. ولكنها لم تخرج منذ ذلك اليوم، أو ربما قد تمكنت هي بطريقة ما أن تثير الشبهات.. أم أنها قد تواصلت مع أحدٍ ما خلال غيابي. لم يحتمل رأسي المشبع بالكحول هذه الفرضيّات، فعدت لأغرق ثانيةً في نومٍ عميق، لأفتح عينيَّ من جديد وأشاهد نوريستا تقف أمامي ببطنها التي ظهر انتفاخها، وعينيها المكلّلتين بالهالات السوداء، وهي تحمل مسدّسي بيدها وتشد عليه باليد الأخرى! لم أصدّق ما أرى! مسحتُ عيني براحة يدي، لعلّني أستيقظ من هذا الحلم، ولكنَّ صوتها ونبرتها الصارمة جعلاني أدركُ أنني سأواجه مصيرًا أسود النهاية على يدها!

- استيقظ أيها القاتل!

- ماذا تفعلين، ارميه من يدكِ وإلا قتلتكِ (صرختُ بها محذّرًا رغم خوفي)..

- سأطلق النار على رأسك كما قتلت عائلتي، ثم سأقطع جسدك بالسكين كما قطعت جسدي وأجساد آلاف النساء، وسأدفنك في الحديقة وأزرع على قبرك النجس الزهور. لقد قرّرتُ قتلك منذ زمن وأنت لاهٍ لا تتخيّل

أنَّ هـذه المغفلة الصغيرة قد تشـكل خطـرًا على حياتك. أنـا من اتصلت بالطبيب وأبلغته أنـك تحتجزني. لقد تعلمتُ بضع كلماتٍ حررتني منك وجعلتني أرفع صوتي وأتكلم وأنت غارق في كحولك وفي انتقامك.. إن وجدوك مقتولًا هنا فلن يعاقبوني، لأني أدافع عن نفسي وهذا حقي!

ثبتُّ نظري في عينيها محاولًا السيطرة عليها:

أنتِ أضعف من أن تقتليني، أنا سيّدُكِ أيتّها القبيحة.

- لم تعُد كذلك، أنا السيّدة، سيدة نفسي وقراري، أمّا أنتَ فستموت الآن.

- لن تتمكني من ذلك، أنتِ لستِ جادّة، أنا والدُ طفلكِ يا نوريستا.

ضحِكَت عاليًا وكأنها تحوّلت إلى شيطان!

- لن يولد طفلي المُسلم من أب مسيحيّ يأكُل لحم الخنزير ويشرب الخمر، يقتُل ويغتصب!!

أشـعرني إصرارهـا وعيناهـا الحاقدتـان بجديتهـا.. شـعرت بالخـوف يضعف مفاصلي.. صوَّبت فوهة المسـدس إلى رأسـي، فرحت أرجوها ألا تفعل.

- أرجـوكِ نوريسـتا.. اَعطيني المسـدس، اَعطيني فرصة، فأنـا أيضًا ضحية مثلك!

- لا   لن ينقذك مني أي شيء.. إلى اللقاء إيفان!

ودون تردّد ضغطت بإصبعهـا على الزناد.. رأيت تلك الرصاصة تنطلق وشعرت بها تخترق رأسي وتفتت عظامه.. أحسستُ بالدماءِ الساخنة تسيل

مـن عينيّ.. رأيتُني مضرّجًا بدمائي.. انتفض جسـدي واسـتيقظت من نومي مذعورًا تخفق نبضات قلبي بسرعةِ الضوء.. يا رب إنه كابوس! لا إنه إنذار، أنها تحاول أن تتحرر من قبضتي، تحاول، وإن استطاعت فستقتلني.. كل ما في البيت أمامها، السـكاكين، الزجاج والتحف، بإمكانها أن تسـرق مفاتيح غرفتي وأنا نائمٌ في الصالة وأن تسـتعمل هاتفي وأن تأخذ مسدسـي.. يجب أن أنتبه قبل أن تنفّذ ما تخطط له..

ذهبـتُ إلـى غرفتهـا وفتحـتُ بابها بركلـةٍ من بقدمـي، وطلبـتُ منها أن توضب أغراضها بسرعة:

- هيا، ستنتقلين من هنا.. جهزي نفسك إلى أن أعود..

نزلـتُ إلى مخزن البيت، ورتبت لها فراشًـا كي تنـام عليه. أحضرت لها سـخان مـاء وطباخًـا كهربائيا صغيرا وبعـض الأواني، وكانـت هناك ثلاجة والكثيـر مـن الأدوات والأغـراض. بإمكانهـا أن تتدبّر أمرها، سـأحضر لها طعامها إلى هنا يوميًّا.

عدت إلـى غرفتها، فوجدتها واقفة بانتظاري قـربَ بعض الأكياس التي وضعَت فيها أشياءها:

- هيا اتبعيني إلى مقركِ الجديد.

حملت تلك الأمتعة، ومشت خلفي إلى أن دخلنا إلى هناك:

- اسـمعيني جيدًا، أعرف أنكِ تخططين لشـيءٍ ما، وإن استطعتِ قتلي فلا تترددي. لن أمكنك من ذلك، ستبقين هنا وسآتيكِ أنا بكل احتياجاتكِ.

خرجـتُ وأقفلت البـاب خلفي بالمفتـاح، وعدتُ إلى غرفتي.. سـأنام بهدوءٍ الآن.

36

عندمـا عدتُ إلى غرفتي، شـكرتُ الله على ذلك الراديـو القديم وتلك الكتـب التي خرجت بها من هناك. بعد مغادرته المنزل أسـتمع إلى الأغاني والموسـيقى، أصـوات المذيعيـن وهـم يتكلمـون ويضحكون ويسـتمتعون بالحياة. لولا ذلك لأُصِبتُ بالجنون. هذا ما كان يؤنس وحدتي رغم عجزي عن فهم اللّغة والتي أصبحَت مع الوقت مألوفة على مسمعي.

مرت شـهورٌ أربعة على هذا الحال، أحضِّر الطعام، أنظِّف البيت وأعود إلى غرفتي لأقرأ وأكتب وأتعلم ما أستطيع، أعزّي نفسي وأشد من عزيمتي، وأحـثُّ نوريسـتا الضعيفـة علـى التخلص مـن قبضـة إيفان. برغم مشـاكل الحمـل التي كانت تؤرقني، والتي أصبحت واقعًا. ذلك الجنين أصبح رفيق رحلتـي، وبدأتُ أشـعر بحركته في أحشـائي، وبتُّ أخاف عليـه كثيرًا بغض النظـر مِن أيـن وكيف أتى. لقد كانت أمي محقّة عندمـا حذرتني من اقتراب الرجال، لأنَّ ما حدث مع إيفان من الممكن أن يحدث مع غيره لو سـنحَت الفرصة. بتُّ أفهم لماذا يسمون ثمرة هذه العلاقات بتلك الأسماء القبيحة.. إنني أحمل طفلي بمفردي، حتى وإن أراد مسـاندني فسـأرفض أن يشاركني بـه. كنـت أصلّي أن يمنحنـي الله الشـجاعة حتى أتخطى خوفـي وضعفي، علِّي أتخلّص من سـجني قبل ولادة طفلي. أتردد حين أفكر أنني لو أدخلت

السـجن، عندها لن يجـد من يعوله، وأمه قاتلة وأبوه سـفاح! لو تمكنت من الفرار فوضعي الصحي لن يسـاعدني على تحمل مسـؤولية نفسـي وحدي، ومسـؤوليته لاحقـا، فمن أين سـآتي بالنقود كي أشـتري طعامـي وقد بدأت أحس به يمتص جسـدي، وروحي فـي بعض الأحيان. كان الإرهاق يلزمني الفـراش لأيـام، وهـذا الجنيـن باتت حياتـي متعلقة بـه. قفزتُ عن السـرير وحملتُ أثاث البيت الثقيل وأشـياء أخرى، وجلُّ مـا جنيته ألمٌ مبرح وبكاءٌ مرير وشـعورٌ بالذنب لا أكثر، يبدو أنه متمسّـكٌ بالحياة وسـيكافح مثلي من أجلها، ومن يدري ربما سيغير بقدومه هذا الواقع. تحسست بطني.. سيولد دون اسـتقبال سـعيد كغيـره من الأطفـال، فليس عنده سـرير ولا ملابس أو ألعـاب.. ليـس عنده حتى ديـن ينتمي إليه، وظروف أبويه غيـر مرضيّة.. لم يكن مرحّبًا به حتى قبل أن يولد..

فجـأة فتـح إيفان البـاب، ودخل عليّ يحمـل غضبَه معه كعادتـه. رمقته بهـدوء وبأعصـاب بـاردة فلـم يعـد يخيفنـي، وكأن هـذا الجنين قـد أصبح عزوتي، وكأنَّ الله قد أرسله لي ليريحني من ألم اغتصابه..

- هيا وضبي أغراضك إلى أن أعود، ستنتقلين من هنا.

ماذا سـيحل بي، وإلى أين سـيأخذني؟!.. وضعـت الراديو والكتب بين ثيابـي، وعند عودته حملت ما جمعت وسـرت خلفه كمـا أمرني. توجه إلى مخـزن البيـت، حيث وضعنا محتويات المكتبـة، فأدخلني إلى هناك وخرج ثمّ أقفل خلفه الباب.

أمضيـت لحظاتـي الأولـى في سـجني الجديـد صامتـة حائـرة، مراقِبَة ومترقّبـة.. كنـتُ أنظر إلى تلـك الصناديـق الممتلئة بالكتـب، والتي تمنيت

قراءتها.. سقفٍ منخفض وأرضيّةٍ خشبية امتدَّ عليها فِراشي الجديد.. خزانة قديمة وصناديق يغطّيها الغبار بما فيها من أغراضٍ لا تُحصى.. فونوغراف وأسطوانات، أجهزة كهربائية، ملابس وأحذية، غرفة كهرباء مقفلة يصدُر منها صوت محرّك خفيف، وسخّانُ ماءٍ كبير تخرج منه أنابيبٌ متّجهة إلى المنزل وفيه مؤشرات حرارية تتراقص باستمرار.. هناك أيضًا طاولة عليها بعض الأواني، طباخ، وإبريق كهربائي، وفي زاوية المكان مغسلة وحمّام صغير

تقدّمتُ باتجاه تلك النافذة الصغيرة المرتفعة عند سقف الغرفة، رحتُ أنظر وهج النهار، وأستنشق عليل الهواء. أسعدني هذا رغم بعدها عن متناول يدي، فهكذا سأتابع حركة دوران الأرض إلى أن يأتي طفلي، رغم حزني لأنه سيولد هنا،

هذا السجن رحمة من الله، لقد أراحني من قلقي وأبعد عني فكرة قتله، التي لن أقوى يوما على تنفيذها، وما حصدت منها أكثر من صراع مع النفس ولومها على ضعفها ورضوخها لهذه الظروف رغم إمكانية التغيير. هنا سأكون بمأمن من نفسي، وربما منه أيضًا.. هنا سأربي طفلي إلى أن يشفق الله علينا.

تفقدتُ الصندوق والكتب.. مازالت حيث وضعتها. حسنًا سيكون عندي متسع من الوقت لأغوص في بحورها.. إنَّ ظنونه كانت في محلها، من المؤكد أنه قد حمى نفسه من لحظة ضعف وقوة كان من الممكن أن تقضي على حياته.

37

جـرت الأمـور على ما يـرام حيث حالفني الحـظ في اللقاء الـذي رتبته لـي ماغـي مـع مالك معـرض السـيارات. كان علـيَّ أن أذهب إلـى عناوين محـدّدة لأُحضِـر السـيارات الجديدة، أوصِلها إلى المعـرض أو إلى زبائن الوكالـة، أجري فحصًـا على السـيارات المخصّصة للإيجار التـي تعاد إلى مكتـب التأجير التابع للمعرض، وأنهـي بعض الأوراق. هذا العمل النهاري ساعدني على تنظيم حياتي بشكل أفضل، وكأنها بداية جديدة لحياة جديدة. أمّـا مسـائي، فكنتُ أقضيه في الحانـة بعد أن أمـرّ بالمنزل لأتفقّد نوريسـتا وأحضِـر لها الطعام. الحانة باتت محطّتي المعتادة، وأيليز، بتُّ كقدره الذي لـن يجد منه مفرًّا، أما ماغي فلم يخفَ على أحد اهتمامها المفرط بي. كنت أراقبهـا وهي تتنقـل بين الطـاولات والزبائن، أما روحها فكانـت تحاوِطُني طوال الوقت..

كمـا طلبـت منهـا، اشـترت للطفـل ملابـسَ وأدواتٍ وألعابًـا عندمـا تفحصتُ تلك الأغراض انتابني شـعورٌ غريب.. أشياء صغيرة، حذاء وقبعة تشبه أشياء إخوتي التي كانت أمي تعدها لهم قبل ولادتهم، وكنت أساعدها بترتيبهـا في أماكنها.. خنق حلقي مرار غريب.. مـاذا لو كنت الآن في بيتي، وزوجتـي تنتظر مولودها، وعائلتي حولنا يسـتعدّون جميعًا لولادة حفيدهم

الصغيـر.. هـل هذه هي مشيئة الله؟ أم هـي أقدارنا؟ ها أنا أفتقد كل شـيء حتى رجولتي، فلم أمارس الجنس منذ أشـهر، و أشـعر أني لن أفعل هذا من جديد. بلدي! مازالت ترزح تحت ضغوط المفاوضات التي من المؤكد أنها ستقودنا إلى الاستسلام والقبول باتفاقيات السلام.

فـوق كل هـذا، كان ضميـري الذي يؤرقني علـى ما أفعله مع نوريسـتا، وذلـك الطفـل الذي سـيولد قريبًا، وأنا بيـن هذه المآسـي لا أملك أي قدرة على التغيير..

38

ها قد أشـرَف الشهر التاسع على نهايته.. حاولتُ أن أتحضر نفسيًا لهذه المرحلـة، فمـن المحتمل أن ألِـد هنا. أعتقد أنـهُ لن يأخذني إلـى أي مكان خشـية أن أشـي به، رغم ذلك حمـدتُ الله أنه قد أحضر لـي وللقادم بعض الاحتياجات الرئيسـية والملابـس. تذكرتُ أمي عندما كانـت تحضر جهاز إخوتي، وكنت أسـاعدها في تلك المهمة. أنـا محظوظة للمرة الأولى بأنني الكبيرة بينهم، فلديَّ خبرة تعينني على العناية بطفلي، حيث لا أحد يعينني أو يعلمنـي هنا. تمنيت أن أكـون الآن بينهم وهم ينتظرون حفيدهم، وأن يكون زوجـي معي يحتضننـي بحنان ونتكلم معًا عن مسـتقبل طفلنا وعن أحلامنا لـه.. ولكن على ما يبـدو أنَّ هذه هي إرادة الله التـي ينفذها إيفان. ما يهمني الآن هـو أن يخـرج هـذا الطفل من رحمي بسـلام، وأن أحافـظ على حياته قـدر المسـتطاع وعلى حياتـي أيضًا لكي أربيه وأحرسـه، لعـل وجوده يغير طبـاع إيفـان ولو قليـلًا. لقد أحضر لي حقيبـةً مليئة بالملابـس لي وللطفل، ومساحيق تجميل وزجاجة عطر أيضًا.. أشعرني هذا ببعض الارتياح.. ربما سيجد طفلنا حضنًا دافئًا يحمله إلى مستقبل أفضل..

بـت أشـعر به وهو يتملمـل في داخلي، لقـد ضاق عليه المـكان كثيرًا..
أعتقد أن موعد الولادة بات قريبا، آلامُ الظهرِ أرهقتني، هناك ما يشدّني نحو الأرض وكأني سأنغرس فيها. حاولتُ أن أتمشى قليلًا، شربتُ بعض الشاي، واستلقيتُ على فراشي بانتظار ما ستحمله لي تلك الساعات القادمة.

39

ما إن عدتُ إلى البيت حتى سمعت صراخ نوريستا يملأ المكان. ستضع طفلها! ركضتُ باتجاه المخزن، ووقفت عند بابه دون أن أدخل.. لن أستطيع مساعدتها، لا أعرف كيف، تركتها تتدبّر أمورها بنفسها، وصعدتُ إلى غرفتي.. لم تعزل الوسادة فوق رأسي صراخها وأنينها، كذلك لم تعزل المسافة بين غرفتي والمخزن صراخ ضميري وأنينه.. أنت من ورطها، اذهب وساعدها. لقد شاهدت نساء المعتقل الحوامل وهنَّ يضعن أطفالهنَّ، كنت تراقبهنَّ أنت وأصدقاؤك ضاحكين من ألمهنَّ. الآن أنت شخصيًّا مسؤول عن هذه الحالة، وهذا طفلك أنت، حتى وإن كنت من جذور الشيطان عليك أن تساعدها، فلن يسامحك الله على خذلانها حتى وإن غفر لك كل ذنوبك السابقة..

لا أستطيع..

قتلني صراخها.. نهضتُ مسرعًا وتوجهتُ إليها، دخلتُ المخزن، فوجدُتها ممدّدة على فراشها وقد وضعَت تحتَ جسدها أكياسًا بلاستكية وبعض قطع الملابس القديمة. كان المشهد محزنًا. ذهبتُ بسرعة وأحضرتُ شراشف ومناشف نظيفة ووعاءً من الماء الساخن.. نادتني وهي تتوسل ودموعها تسبقها:

- أرجوك إيفان ساعدني، إني أموت! ساعدني، فليس لي سواك!

جلستُ قربها، أمسكتُ يدها وطمأنتُها ببعضِ الكلمات الخجولة.. بلّلتُ منشفة صغيرة ووضعتها على وجهها.. كانت تمسِك بيدي وتشدّ عليها كلّما اشتدَّت عليها آلام الطلق، وتنظر إليَّ بتوسّلٍ ورجاء..

- إيفان ساعدني أرجوك.. لا تتركني من أجل طفلنا، أرجوك..

لأول مرّة أشعر أنَّ أحدًا ما يحتاجني، يحتاج إلى وجودي.. لأول مرّة تدوسُ إنسانيتي على حقدي وقوميتي وجذوري وديني وأصولي، فهي تنازع بين يدي.. سأحاول المستحيل من أجلها، عسى أن يولد هذا الطفل بخير، وتبقى هي على قيد الحياة..

- نوريستا هيا ادفعي بعد، إني أرى رأسه، ادفعي قليلًا بعد، سيخرج طفلنا إلى الحياة.. لا تستسلمي..

- لا أستطيع.. إني أموت..

- تنفسي بعمق وادفعي إلى الأسفل، هيا، إن لم تساعديه على الخروج سوف يموت.. هيا، لقد أصبح رأسه خارجًا، أستطيع أن أرى وجهه، ادفعي بعد، يا إله السماء ساعدها أرجوك..

- إني أحاول.. سأحاول..

علا صراخها وتوسلها، وصرخ آخر في داخلي ينبئ بولادتي الجديدة.. حالةٌ غريبةٌ في داخلي، أنا الذي كنتُ شيطان الموت، ها أنا أرتدي لباس ملاك الحياة، أفتحُ ذراعيَّ لطفلٍ صغيرٍ آتٍ من صلبي.. لم أكن الملاك

الوحيد هناك، كانت ملائكة الكون جميعها حاضرة تهلّل لولادَة هذا الإنسان القادم من رحم الحياة.. صرخة واحدة كانت كفيلة بأن تنفض عن وجهي غبار المخزن، وترفع عدد الأحياء هناك إلى ثلاثة..

- أكيد أني أموت..

- هيا، لقد خرج، إنه حي.

أمسكتُ به من قدميه وهززتُه قليلًا، انتفضَ كالسمكة الخارجة من بحرها و بدأ بكاءً لم ينقطع. حملتهُ بعد أن قطعتُ حبله السرّي، حاولتُ إسكاتهُ متأملًا تكوينه متناسيًا نوريستا التي كانت لا تنفكّ تتألم وتتخبّط في دماء ما بعد المخاض. عدتُ إليها، وضعتُ الطفل على صدرها وأمسكتُ يدها محاولًا رفع معنويّاتها. كلماتٌ قليلة كانت كفيلة بأن ترسم ابتسامة على شفتيها ووجنتيها. لحظات حياةٍ أخرى بالنسبة لي، لحظاتُ حبٍّ عائليّ وعاطفة أبوة لا متناهية، حقًا تمنيتُ ألّا تنتهي.

- نوريستا إنه طفل. لقد ولد، إنه حي.. هيا ادفعي قليلًا بعد، كي يخرج ما تبقى من دماء وإلا فستموتين..

بعد أن زال الألم قليلًا، غسلت المقصّ الفضيّ بالماء، أمسكتهُ ويداي ترتجفان، وقطعت الحبل السري وربطته جيدًا. كان طفلي صغيرًا وضعيفًا وبحاجة إلى الكثير من العناية. بحذر شديد غسلت جسده بالماء الفاتر ونشفته، وتركته لينام بقربها، ورحت أنظف المكان.

لقد تألمت كثيرًا، كدت أن أبكي، كنت خائفًا عليها حقًّا، فهي لا تزال طفلة وما تعانيه لا يقوى على تحمله إنسان.. إنه ذنبي، سامحني يا رب!

- هيا انهضي يا حبيبتي، لقد انتهى كل شيء!

كان جسدها باردًا ولونها شاحبًا كالأموات.. هل فارقت الحياة؟ هل سترحل وأبقى أنا وحيدًا مع ثمرة جريمتي إلى الأبد؟! نبضها كان ضعيفًا جدًّا، فلففت جسدها بالأغطية، وأحضرت لها بعض العصير. أنعشها ما ارتشفَته من ذلك الكوب، ففتحَت عينيها من جديد وتمتمَت بصوتٍ ضعيف:

- شكرًا إيفان. لقد راهنت على إنسانيتك وكسبت الرهان.. اعتنِ بطفلي أرجوك، لا تدعه يموت.. سأتركه أمانةً بين يديك..

- إنه بخير، لن يموت، وأنت أيضًا ستصبحين أفضل.. نامي الآن واسترخي، فهو نائم بقربك، انظري كم هو جميل،، يجب أن تحيَي من أجله، فهو يحب ماما كثيرًا!

- إنه روحي.. سمِّه (بياسي) أرجوك..

أغمضت عينيها بعد أن حضنَته ونامت.. وها هو المكان بعد ساعات من الصراخ وصراع الحياة يعود إلى هدوئه.. استلقيتُ على الأرض بجانبهما، ورحت أراقبهما وهما نائمان.. كنت منهكًا منهارَ القوى، فغفوتُ أنا أيضًا معهما.

40

ازداد الألم فأيقظني من غفوتي القلقة، كانت ملابسي مبللة بالدماء، إنها ساعة الصفر، سأحضر نفسي، يبدو أني سألد طفلي وحدي.. رغم عجزي عن الحركة حضرت الفراش ووضعتُ عليه الأكياس البلاستيكية وبعض قطع الثياب القديمة التي كانت في أحد الصناديق. شلّني الألم مرات عديدة، لكني عند سكونِه كنت أكمل ما أفعله محاولةً تمالك نفسي، فليس هناك وقتٌ للضعف والدموع. وأخيرًا سقطتُ غير قادرة على الحراك.. هناك كائن في داخلي يحارب كي يستقل عني، وكأنَّ قوة الكون كلها قد تجسَّدت في خلق هذه الروح وإبداعها. الألم يشتد، فأشعر وكأني أوشك على الموت، ثم يعود ليهدأ قليلًا فيسكن جسدي. وما إن ألتقط أنفاسي، حتى يعود من جديد أكثر شدة مما كان عليه..

- آه إيفان أين أنت؟ أرجوك ساعدني، لم يعد لدي أحدٌ سواك! أنت من قتلني ومن سيداويني، إني أموت، يا الله لا تتركني وحيدة!

ساعات مرت على هذا الحال، إلى أن انفتح الباب ودخل. شعرت كم أنا بحاجة إليه، وكم سامحته، وربما أحبه.. لا أعرف هل أشعر هكذا لأني أحتاجه أم أني قد سامحته حقًّا.. تحرّكَ بسرعة، وأحضر أغطيةً نظيفة، ورمى تلك الخرق المبللة بالدماء بعيدًا.. بلّل منشفة صغيرة بالماء ووضعها على

وجهي، فرحت أحتضن يده وأشد عليها وأنا أرجوه ألا يتركني. في تلكما العينين رأيت كلَّ حنان الدنيا وعطفها وهو يشد على يدي:

- لا تخافي أنا هنا.

- إني أموت إيفان.

- ادفعي قليلا ها هو يخرج إلى الحياة نوريستا!

شعرت وكأني أنشطر إلى قسمين، فشيءٌ من روحي ومن جسدي ومن دمي يناضل للخروج مني.. آه من وجع الأمهات، آه من هذا الحمل الثقيل الممتع والذي يطيب من أجل القادم، وكأننا ننادي الألم كي يطلق فينا ذلك الحب الذي ليس بعده حب!..

وأخيرًا، شاهدت في يد إيفان مخلوقًا صغير الحجم يلتقط أنفاسه الأولى ويبكي لأول مرة. طفلٌ صغير تشكّل ككتلة طين، ورسم له عينان ويدان ورجلان! كيف حدث هذا وكيف دخلت الروح إليه؟ تلك الطاقة الكونية من أين أتت؟ إنه طفلي! زال وجعي، واستسلمت أخيرًا بعد صراعٍ مرير، لأستفيق على صوت إيفان يقول لي "حبيبتي" وهو يحاول أن يسقيني بعض العصير!.. هل خُيّل لي؟! لا أعلم. لاحظت المكان من حولي، كان قد نظّفَ كلَّ شيء حتى جسدي..

- حاولي أن تنامي، فالطفل يرقد هنا قربكِ وهو بخير..

- سنسميه باسي..

رحت أراقبه وهو نائم.. كان عليَّ أن أرضعه كما كانت تفعل أمي، ولكن صدري صغير وجاف، فأنا قد وصلت إلى سن البلوغ قبل حملي بأشهر ولم

أتم بعد عامي الرابع عشر. يا الله، كيف سأطعمه؟ ساعدني كي أعتني به، شل فكري ولم أعد أستطيع أن أفتح عيني، حتى عضلات جسدي استرخت بعد ساعاتٍ من المعاناة. غفوت بقربه، بعد أن كان منذ قليل في داخلي وفي أحشائي!

41

مر شــهران على دخول ذلك الملاك حياتنا، بعد الولادة تابعت نوريسـتا بــكل اهتمــام وأحضرت لها الأدويـة والمقويات، ورحت أجهـز لها الطعام الطـازج والمغـذي يوميًّا، وأعتني بالطفـل وبمواعيد تبديـل غياراته وتناوله لوجباتـه.. أحميه، أحضنـه وألعب معه. وكأنَّ الأطفـال فعلًا روح الملائكة على الأرض، فمذ تكونه تحسـنت أموري، واسـتلمتُ عملي الجديد، وبتّ بعيـدًا كل البعد عن أمور السياسـة وهموم البلاد. لم أعـد أقوى على فراقه، فبــتُّ أنــام معهما معظم الأيـام، وخاصة عندمـا تنتابه نوبات البـكاء التي لم نعـرف لها سـببًا. كان ضعيفـا جدًّا، وبحاجـة للكثير من الاهتمـام، وكذلك نوريسـتا. فكرت مِرارًا أن أعيدهما إلى البيـت، ولكنَّ هذا البكاء الدائم كان يقلقنـي. أعتقد أنــي مازلت تحت مراقبة مكتب الرعايـة الاجتماعية، أخاف من زيارة المشـرف في أي لحظة، فالآن أصبحت الجريمة أكبر. ليست فقط خطفًـا واغتصابـا، إنما ولادة طفل وتعريض حياتـه وحياة أمه لخطر الموت وحبســهما فــي المخزن. أشـعرني هذا بالذنـب حيالهما، ولكنــي لا أمتلك القدرة على المواجهة والتغيير ورغم ضعف نوريسـتا وانكسـارها وتعلقها الظاهر بي، إلّا أني مازلت أخاف منها، فهي متدينة إلى حد التزمّت، ولا تثق بــي، حتــى أنها تخاف على طفلها مني رغم تعلقــي به. صحيح أنَّ بكاءه كان

يثير أعصابي أحيانًا، ولكني من يعتني به ، فضعفها قد ألزَمها السرير، ولم تقوَ علـى رعايته بنفسـها. أعرف أنه بحاجة إلى رعايـة طبية خاصة، ما كان يبكيه ليـس فقط الجوع وعدم الاهتمام، انما الألـم. لقـد حمّل هذا ضميري عذابًا جديدًا. وتلك اللحظات التي يبتسم فيها أو يلاعب أصابعه بين أصابعي، أو عندما أطعمه، تملؤني سعادة الدنيا، لحظات لم أعش مثلها قط في حياتي.. إني أحبه، أجل أحبه، بالرغم من تلك الظروف، أحبه وأنسى معه وأنا ألاعبه وأغيّـر حفاضاته أو أنظـف مؤخرته الصغيـرة الطرية كل قوميات ومشـاكل الكون. إنه إنسانٌ بلا انتماء بعد.

هذا التغيير في ذاتي يقلقني أحيانًا، ويُطمئنني أحيانًا أخرى.. يقلقني على وعودي التي قطعتها أمام الرب وأمام دم أهلي، ويطمئنني لأنَّ هذا الشـعور مـن الممكن أن يقودني إلى الشـفاء مما حمل لـي الماضي من معاناة. حتى نوريسـتا سارت مشـاعري تجاهها في اتجاه آخر. أسـمع صوتها وهي تغني لطفلنـا، وأراقبهـا وهي نائمـة. بدأتُ أعتاد عليهـا أكثر، وأقتـرب منها أكثر، برغم انعدام الحوار والتواصل بيننا. إلى حين تلك الليلة المشـؤومة، والتي لـم يتوقف فيها بياسـي عن البـكاء. كان يعاني من ألم شـديد، وحتى الدواء الذي أعطيته إياه لم يُجدِ معه نفعًا. رجتني من جديد أن آخذه إلى الطبيب..

- أرجوك إيفان، سـأفعل ما تشـاء ولكن خذه إلى الطبيب! سوف يموت إن بقي على هذا الحال، إنه عاجزٌ عن الكلام، ولو اسـتطاع لرجاك بنفسـه أن تريحه من ألمه..

لا أستطيع! ماذا سأقول للطبيب!؟

- الطبيب يعرف أني كنت أنتظر طفلًا.. قل له إنه ابني وأنني عدتُ من البلد وهـو مريض. أعدك ألا أتكلم، أعدك، أقسـم بحياتـه أني لن أفعل، ولكن انقذه من ألمه أرجوك!

تخبّطت بين مئة نار تمزّقت بينها وبين عقلي. لم أكن أدري ماذا أفعل..

- سأُعطيه قليلًا من المسكّن، وفي الصباح سآخذه إلى الطبيب..

أسـكَتَها هـذا الوعـد. كنـتُ بحاجة أنا أيضًـا إلى بعـض الوقت لأراقب مسـار الأمـور.. وضعتُ في فمه الصغير عشـرَ نقاطٍ، وربمـا أخطأت العد، فأعطيتـه بضـع نقاط أخرى لعله يسـتريح وينـام. ولـم تمـضِ إلا دقائق قليلة حتى استرسل في النوم..

- هـل رأيـتِ؟ لقد غفا.. غدًا سـيصبح أفضـل. نامي أنـتِ الآن ولا تقلقي، سأنام هنا، وفي الصباح سآخذه إلى الطبيب.

أخـذَت ترمقنـي بنظراتهـا المتوسّـلة، ترجونـي والدموع تمـلأُ عينيها. أحسسـت بخوفها، وكنت قلقًا مثلها من أن تحصل مصيبة ما تهدم كل تلك الخطـوات الإيجابيـة في علاقتنا معًـا نحن الثلاثة. حضنَـت طفلها ونامت، ونمتُ أنا على الأرض بقربهما.

42

غريبٌ هذا الإنسان، تصرّفاته تفاجئُني، تكشف عن شخصية مختلفة غير التي عرفتها، فها هو يتحول إلى أب حنون، يحضر لي الطعام يوميًّا، ويحمله إلى فراشي، ويلّح عليَّ كي أكمل ما في طبقي بلطفٍ لم أعهده فيه:

- هيا أكملي ما في طبقكِ، يجب أن تتغذي وتتعافَي، فطفلكِ بحاجةٍ اليكِ.

يحضـر لـي وجبة الصباح قبـل ذهابه إلـى العمل، وعندمـا يعود يحضر لي معه كل ما يحب ويشـتهي الأطفال. كان يدللني أنا وطفلي وكأننا طفلاه معًـا.. بـدأ ينتابني شـعورٌ غريب تجاهـه، بتُّ افتقـده وأنتظر عودتـه، وكأنَّ الـذي قتل أهلي شـخصٌ آخر لا أعـرف الآن أن أحدِّد مشـاعري، الأمور مختلطة عليّ كليًّا، فمنذ أن استيقظتُ بعد الولادة ووجدتُ طفلي نائمًا قربي شـعرتُ بطفولتي وأمومتي في آن، فهو الآن لُعبتي التي أرسلها الله لي ليملأ بهـا فراغ سـجني، وهو أيضًا مسـؤوليتي فأنا أمه رغم طفولتـي. تلك الخبرة التـي اكتسـبتها من تربيـة إخوتي قد سـاعدتني كثيرًا على رعايتـه عند غياب ايفان عنا، كانت ملامحه جميلة، عيناه تشـبه عينيْ إيفان بخضرتهما، وشعره أيضـا، وما تبقى من وجهه كان يشـبهني ويشـبه إخوتـي. كان خليطًا جميلًا بين قوميتين. تسـاءلت كثيرًا هل سـيرميه الله في جهنم لأنه نصف مسـيحي ونصـف مسـلم؟ وما ذنبـه إن وُلد هنا أو هناك، وكيف يعاقبـه الله على ذنب

ليست له إرادة فيه؟ كنت أتلمس بشرته الناعمة، وأغني له، وأضحك معه. لقد أعاد البسمة إلى ثغري، فأنا لم أضحك منذ زمن. حاولت أن أرضعه مرارا ولكنَّ نهديَّ فارغان وليس هناك ما يقتات به، ولولا الحليب الصناعي الذي كان يحضره له إيفان لمات من الجوع. إنه حقا والد حنون، كنت ألاحظ هذا، يلاعبه ويضحك معه.. هو أيضًا ضحكته جميلة، لم أره يومًا بعيدًا عن قناعه الأسود، ولكن لم أفهم بعد هذه التغيرات، لماذا يصرّ على احتجازنا في المخزن رغم مبيته معنا هنا. ربما لا يزال بحاجة إلى بعض الوقت ليثق بي؟ ربما!

شهران والأمور تسير بشكل جيد، باستثناء بعض الليالي حين كانت تتوعّك فيها صحة بياسي، فيصر على أن يعتني به بنفسه، لكن تلك الليلة حل على وجهه انطباعٌ آخر. كان خائفًا، فلم يتوقف طفلنا عن الصراخ رغم الدواء ورغم كل المحاولات التي جرّبها كي يريحه. انتابني قلقٌ مريع، رجوته بأن يحمله الى الطبيب.. حاولتُ أن أطمئنه وأقسمت بأني لن أشي به. كنت خائفة، فصوت بكائه يقتلني. وأخيرًا، بعد توسّل وإلحاح، وافق ولكن بعد حلول الصباح.

بعد تناوله للدواء بدقائق قليلة، استسلم إلى النوم. كان متعبًا، فمنذ ساعات وهو يبكي وأنا أبكي معه. وضعه بقربي بعد أن غفا على ذراعيه.. مسحتُ دموعه، وغفونا جميعًا ساعات الليل المتبقية، والتي مرت وكأنها ثوانٍ.

فتحتُ عيني، فوجدت النور وقد ملأ المكان. التفتُّ إلى صغيري.. وجهه كان شاحبًا!! وضعت أصابعي أتحسس بشرته، وإذا به باردٌ

كالأمـوات، رفعـت عنه الغطـاء، ورفعت يده كـي أقبلها، فسـقطَت من بين أصابعـي. إنه متلاشٍ! ربما قد مات! عقدت الصدمة لسـاني، أريد أن أوقظ إيفان، لم أستطع، كان نائمًا بقربنا، ولكني شعرت بأنه في القطب الآخر من الأرض، وبيني وبينه جسد طفلنا الميت.

43

سمعت صوتًا مبحوحًا يناديني:

- انهض إيفان! لقد مات. لا تأخذه إلى الطبيب لم يعد بحاجة إلى أي دواء.

هل تورث العصافير صغارها السجون؟ ظننت أني أحلم للحظات، ولكن لم يكن حلمًا. كان جسده باردًا، وقد رسم على وجهه ابتسامة جميلة وهو يودّعنا. حملته وحضنته ورحت أقبله، تساقطَت دموعي على وجهه..

- قتلته.. أنت قتلته كما قتلت أهلي.. هل أنت مرتاح الآن؟ لن يشي بك، ستبقى بأمان، وسأبقى أنا سجينةً هنا.. لقد مات، ولن يذهب إلى المدرسة، ولن يكون له وطن أو هوية..

أخذته من بين يديّ وضمّته إلى صدرها:

- إنه طفلي، لن تأخذه مني.. سأحتضنه إلى أن أتعفن معه هنا!

إنني فعلًا قاتل. لقد أنهيت حياة الكثير من الأطفال والنساء والمساكين. ولكني الآن بريء، لم أقصد أبدًا أن أقتله.. لقد أحببته حقًّا، وتجاوزت عاطفتي كل الانتماءات. كنت سأجهز أوراقه وأجعله يخرج إلى النور ليحمل اسمي. لا أعرف إذا ما كانت تلك النقاط الإضافية هي التي تسبَّبت

في موته، ولكني لم أقصد! لم يكن في نيتي أن أقتله والرب شاهد.. أردت فقط أن أريحه من ذلك الألم!

- شكرًا لك إيفان. لقد نفذتَ إرادةَ الله، فما كان ليعطيه حياة ناقصة، دون وطن، أو دين، ودون عائلة وانتماء.

صرخت باكيا، رجوتها ان ترحمني من موتي هذا:

- اصمتي! اصمتي وهاتي ابني كي أدفنه في تراب الحديقة كما فعلت بأحبابي!

مسحتُ دموعي وأنا أتأوّه من شدة البكاء. ها أنا إنسان من جديد، والمشهد يعيد نفسه، لأكمل دفن كل من أُحّب! لماذا أعاقب، فأنا لم أختر يومًا قدري! سحبته من بين يديها وهي تصرخ. أخذته وأقفلت الباب خلفي. ذهبت إلى الحديقة.. لأول وآخر مرة تشرق الشمس على وجهه الجميل قبل أن يدثره التراب.. حفرت الأرض بأظافري كما فعلت منذ سنين.. نام هناك، بعد أن رددت ما تبقى من تراب فوق جسده المتعب البارد، والذي تركنا فيه أنا وهي ألم وظلم ومعاناة ما عشناه. نمت على ذلك التراب الرطب، مرَّغت وجهي برائحة جسده لآخر مرة، ويده الصغيرة في الذاكرة تداعب وجهي وأنفي وهو يضحك لي قبل رحيله.

أهي تعتقد أني سعيد بهذه النهاية؟! حزني لا يتجزأ عن حزنها وربما أكثر، فشعورها بالظلم سيخفّف عنها، ولكن شعوري أنا بالذنب سيقتلني آلاف المرات. عدت إليها، كانت تنتحب وهي تحتضن غطاءه. لم أستطع أن أقاوم شعوري، فركعتُ أمامها ونظرتُ إلى عينيها:

- سامحيني!

ها نحن نعود إلى وحدتنا.. غمرتُها، ورحنا نبكي سويا وكأننا جسد واحد.. جسد قد فقد أحد أعضائه؛ ربما فقد العينين، لقد أصبحنا عميانا.. لقد فقدنا الغد، النور والأمل.. رحت أتكلم وأتكلم.. لا أدري ماذا قلت، لكني كنت أشعر أني بحاجة إلى هذا البوح.

44

نعـم، لقـد مات طفلـي. لا أدري ماذا حصـل، ولكن ما أدركـه هو ذلك الألـم الخانق الـذي ذبحني من الوريـد إلى الوريد حين أخـذه مني وألقيت نظرتـي الأخيرة إلى وجهه الحبيب. ذهب معه وعـاد وحيدًا والتراب يلوّث يديه وملابسه.. ركع أمامي وطلب أن أسامحه! كيف أسامحه؟ وعلى ماذا؟ فأنا ضحية حية ذات جسـد ميـت. فجأةً وجدته بين ذراعي، وجدت نفسـي أحتضنه بكل رفضٍ وقبول، فهو العدو والحبيب..

- يجب أن تسـمعيني! لقد كنت الابن الأكبر لعائلة سـعيدة سـقطَت ضحيةً علـى يد مجرمي الحرب. وبعد عدة أحداث وعدة جرائم امتدت نار الثأر والانتقـام، لنحصدَ نحنُ ما زرعَـه الآخرون. كنا نتحضر لمغادرة المكان، ولكنهم دخلوا علينا واغتصبوا أمي وأختي وقتلوا أبي وإخوتي، وأنا كنت أراقبهم من مكانٍ ما في سقيفة البيت، لم أقوَ على الدفاع عنهم، ولم أجرؤ كجبان على إظهار نفسي. بعد أن صرت وحيدًا انتسبتُ إلى فرقة الإعدام؛ حيث تعلمت كيف أطلق الرصاص على الرؤوس وكيف أغتصب النسـاء وأقتـل الاطفـال. تعاطيـت المخـدرات وأدمنـتُ الخمر، فكانت نفسـي هـي أول ضحاياي. لو بقيـت روحي على قيد الحياة لما اسـتطعتُ القتل هكذا.. من أجل الدين ومن أجل الله والقومية والانتماء أصبحت هكذا..

ولأني إن لم أقتُل فسوف أُقتل لهذه الأسباب نفسها. واليوم، أدفن ابني كما دفنت أهلي من سنين.. سامحيني..

أخبرني كيف ذبل جسد ماري بين أيدي القتلة.. أردتُ أن أحتضن رداءها الذي لبسته يومًا وأقبله.. وأخبرني عن أمه، آنا الجميلة صاحبة الرسائل، وولدها الذي مات وهي بعيدة.. وعن إخوته الصغار وقصصهم، وعن والده وحبه لأمه وتحديه للجميع من أجلها.. أخيرًا فهمت سبب حقده عليّ، وسر اختطافه لي وانتقامه مني. لم أدرِ كيف أحس.. لقد فقدت مشاعري، كنت أريده أن يذهب، أن يرحل، أن يقفل خلفه الباب وأن يتركني هنا وحدي مئة عام.. لا أريد أن أغادر هذا المكان.. أريد أن أعيش هنا مع ذكرياتي وكتبي إلى أن أموت.. فكلٌّ من يدخل الحرب قاتل، أخيرا عرفت أن الضحية والجلاد مسألةٌ نسبية، كلٌّ يراها من منظاره!

45

مرّت أشـهر وأنا أتجنب زيارتها. كنت أشعر بحقدها عليّ، وأعرف أنها لا تريد أن تراني. أشـتري لها ما تحتاج وأضعه أمام بابها، أطرقه بهدوء علّها تـأذن لـي بالدخول، فلا يُجيبني سـوى الصمـت. واحترامًـا لرغبتها لم أكن ألّـح.. أفهمها.. فهي محطمـة، وأنا مثلها، أنغمس يومًا بعـد يوم في حزني. لـم أكن أجيد اكتشـاف طريقي، حتى في عملي كانت أموري تسـوء بسـبب اضطـراب مزاجي، وتلـك الحديقة التي أعبرها كل يـوم، والتي زرعت فيها جسـد طفلـي كانـت تعيدنـي إلى ذكـرى قاتمة، لم يكـن أمامي مـن متنفس سـوى الحانة، أحـارب فيها ضعفي وعجـزي وأهرب من واقعـي إلى عالم النسيان..

شـربت حتى الثمالة، وعدت أدراجي إلـى البيت ووقفت عند بابها. لقد افتقدتها، منذ أشهر لم أرَ عينيها، فتحت الباب ودخلت..

- نوريستا، أريد أن أتكلم معكِ، أرجوكِ اسمعيني.

استوت في فراشها..

- أشـعر بحزنكِ، و أشـعر بمسـؤوليتي تجاه ما حصل، يجب أن تعلمي هذا جيـدًا، إننـي أحبه وأفتقده، لقد بعث صوتُه فيَّ أشـياءَ كثيـرة، ليهدم بموته كل ما بعث..

ردت عليّ بصوت مخنوق ولأول مرة:

- وكيف يمكنني مساعدتك؟ هل أنا من احتجزتك واختطفتك، وهل أنا من قتل طفلك؟

- لا.. ولكن يجب أن تفهمي أني لم أولد قاتلًا ولم أختر قدري. صحيح أنَّ قرار الالتحاق بالجيش قراري، ولكن ما تبقى من وطني وأرضي كان بحاجة إلى حمايتي..

- كان عليك أن تدرك بأنك ستموت ان لم تصل إلى هذا الطريق المسدود..

رغم ذلك الحزن الذي أغرقت نفسها فيه كانت تغريني، فلقد تبدَّل جسدها بعد ولادة الطفل، استردَّت شيئًا من عافيتها وبعض الوزن، وبرزت تفاصيلها. كنت أشعر تجاهها بنوع مختلفٍ من المشاعر، مزيج يذكرني بضعفي وبقوتي. اقتربت منها بعد أن ساد صمتٌ غريب في المكان..

- نوريستا، أريدكِ الآن! لا تمانعي، سآخذكِ برضاكِ، لا أريد أن أغتصبكِ، لم يبقَ لكِ سواي وأنتِ قلتِ هذا، تعالي إليّ ودَعينا نعتصر ألمنا سويًّا..

أمضيت معها بضع ساعات، ثم عدتُ إلى غرفتي أقاوم رغبتي في النوم على ذراعها حتى الصباح، أقاوم رغبتي في حضنها والاعتراف بها؛ وكأني أحبها! لا أعرف، ربما أحبها من شدة كرهي لها! لا، سأقمع نفسي، سأقمع هذا الشعور، فأنا أعرف جيدًا أنها إن سنحت لها الفرصة فسوف تهرب مني، إنها تكرهني.. شعرتُ بهذا، فجسدها كان يرفضني رغم شوقها لي.

46

طوال هذه الأشهر الأخيرة لم يحاول الدخول إلى غرفتي، شكرت الله على ذلك رغم افتقادي له. أتخيله أحيانًا مستلقيًا بقربي، كما كان يفعل قبل رحيل طفلنا، أو قبل أن يقتله. كنت بحاجة إلى هذه الوحدة، لكي أتلمس جراح جسدي وروحي، فما مرَّ عليّ منذ موت أهلي إلى الآن كان أشبه بكابوس متسارع الأحداث. لقد كبرتُ وهرمتُ مئة عام دفعةً واحدة، تلقفت مراحل حياتي واحدة تلو الأخرى دون أن أقف عند أيٍّ منها، من الطفولة إلى البلوغ إلى الحمل والولادة إلى الأمومة ثم إلى الموت من جديد.

بعد أن تعافى جسدي وجفت دموعي قليلًا على طفلي، عزَّيت نفسي بقبول القدر وما كُتب لي. رغم أنَّ ذكراه وكل ما فيه، رائحته وصوت بكائه لم ولن يفارقاني مدى العمر، ورغم انكساري، كان عليَّ أن أبحث لنفسي عن عزاء.. عن متنفس لحزني ولسجني الأبدي هذا، فلم يعد عندي أدنى رغبة في الهرب، حتى وإن فتحت لي الأبواب. وتلك المشاعر تجاه إيفان كانت تخيفني، فمنذ أن عرفت قصة أهله بدأت أشفق عليه، فهو ضحية مسكينة مثلي. إلا أنَّ صورة عينيه الشيطانيتين وهو يطلق النار على عائلتي وعندما اغتصبني لم تفارقني، حتى في لحظات جنوني معه، وأجدها تعود بإلحاح لتداهم مخيلتي، فمعاناته لا تبرر سلوكه هذا الطريق القذر. وجدت

نفسي بين نار الحقد ونار الحب، وكلاهما سيحرقني إذا ما اقتربت أكثر. بعد غياب طويل عاد إليَّ وكان ثملًا كالعادة..

- نوريستا يجب أن نتكلم..

جلست أستمع إليه، أعاد على مسمعي قصته الحزينة، كنت أراقبه وقلبي ينبض وجسدي أيضًا يتنامى فيه صراعٌ غريب.. أمسك يدي وراح يرجوني بكلام رقيق أفتقد سماعه:

- إني أريدكِ.. لا تمانعي.. أريدكِ برضاكِ... أرجوك.

لم أسمع المزيد مما قاله.. غمرني وكنت بحاجة إلى ذلك الاحتضان، رغم رفضي له، رائحة الخمرة تعيد إليَّ صور الماضي، فيما حنُّو يديه وأحضانه تنسيني تلك الصور.. خضرة عينيه تأخذني إلى صورة القاتل، ودموعه على طفلنا تمسحها.. لقد نضج جسدي، وروحي أصبحت ربما بحاجة إلى تفهّم الحياة بعيدًا عن العنف، وربما حان الوقت أن أعيش مشاعري وأن أتلمس بعضًا من سهول المتعة في ظل جبال الألم والمعاناة التي عشتها. أبعدته عني وجذبته إليّ، تهرّبت منه ورجوته أن يقترب، كان الحبيب وكان القاتل..

- لماذا تفعل بي هذا، لماذا تغير أسلوب تعذيبك؟ هذا الأسلوب سيقتلني أكثر!

- دعينا لا نفكر الآن، فنحن بحاجة إلى هدنة نختبر فيها مشاعرنا.

لا يزال صغيرًا على هذه المعاناة، لقد أحسست عمره الحقيقي الذي يعيشه الآن لأول مرة، فهو في العشرينات، في ربيع العمر الذي لوَّنَته الحرب

بدخانها الأسود. شعرت به يخترقني وكأنها أول مرة، وهي فعلًا المرة الأولى التي أختبر فيها مشاعر الجسد والبلوغ، بعيدًا عن أصابعي وأحلامي الطفولية. لم يجتَحني التفكير في دينه، ولا في صوت أمي ووصاياها، ولا حدة نظرات أبي وقسوته، أردتُ أن أعيش هذه اللحظة بكل ما فيها انتقامًا من كل ما حدث معي.

بعد ساعات، تركني ورحل ولم ينظر خلفه. رحل وأقفل الباب. عدت أتحسس جسدي ومشاعري العارية مثلي، هل كانت هذه العاطفة مجرد رغبة؟ هل استعملني واغتصبني بأسلوبٍ آخر من جديد؟ لو كان صادقًا لماذا رحل، ولماذا تركني وحيدة، ولماذا أقفل الباب خلفه؟ هل سأبقى هنا أنتظر لحظات حاجته وشوقه، ثم أعيش برد روحي ومشاعري وحدي؟

- إنه غريب، ألم أقل لك ألّا تثقي بالغرباء، ألم أقل لك أن تحمي جسدك منهم. أنتِ لم تعودي الآن ضحية مغتصبة، أنتِ الآن عاهرة تستمتع بملذات الجسد، وربما هذا ما يريد أن يختبرك به الله؟

لقد قتلني هذا الإحساس بالذنب. يجب أن أعاقب نفسي بألمٍ ما، يجب أن أترك أثرًا ما على جسدي يذكرني بما حدث، لكي لا أرتمي في أحضانه مرة أخرى. أخذت السكين وجرحت ذراعي عدة مرات، ولففت الجرح النازف بقميصه الداخلي الذي تركه هنا، فإن نفذت بعضًا من عقاب الله بنفسي ربما سيخفف عليَّ هذا الألم الذي يقتُلني، ويقتنع الله بأني نادمة، وبأني أحاول ألا أعصاه وألّا أنغمس بملذاتي من جديد..

- سامحني لأني انجرفت بمشاعري معه وهو غريبٌ عني وعن ديني ودينك، فهو مجرد قاتل.

يجب أن أقاوم مشاعري هذه. أنا متدينة ومن عائلة محافظة، وإن أراد أن يأخذني فليغتصبني من جديد، فلن أسمح له أن يستبيح جسدي برضاي كما فعلت اليوم. سأقتل رغبتي فيه، سأنصرف إلى الصلاة والعبادة، وعسى أن أقدر وأن يسامحني الله على ضعفي.

47

سنواتٌ مرّت وأنا أحاول فيها أن أحسِّنَ علاقتي معها. لقد تعوّدتُ على وجودها، وأصبحَت دون أن أشعر جزءًا من حياتي.. جزءٌ غريب أحبه وأكرهه وأشفق عليه. لا أستطيع البقاء معها وقتًا طويـلًا، ولا أقوى أيضًا على الابتعاد عنها. فكرت عدة مرات أن أخرجها من المخزن، وأن تعود إلى حياتها الطبيعية، ولكنها باتت ناضجة وتظهر ذكاءً غريبًا، علمًا ومعرفة لا أعرف كيف اكتسبتهما وكيف تمكنت من تطوير نفسها وهي سجينة بين هذه الجدران.

كل هذا كان يخنقني ويجعلني أكثر حذرا، أخاف أن تغدر بي. وتديّنها الظاهر إثر موت طفلنا ساهم في زيادة قلقي، لقد دخلت عليها مرارًا وهي تصلّي واضعةً الغطاء على رأسها. رغم مشاعرها الرافضة والحاقدة عليّ، كنت أحس أيضًا ونحن في قمة نشوتنا أنَّ رغبتها وشوقها لي يوازيان لهفتي عليها وربما أكثر، وبعد أن تهدأ ثورة جنوننا أجدها وقد تحوّلت إلى مخلوقٍ آخر، مخلوق حاقد بغيض.

أنا أيضًا كنت أعيش ما يشبه هذه الحالة.. أذهب إليها وكلي شوق ولهفة شاعرًا بها كحبيبة، وبعد أن تفرغ مشاعرنا، كنا لا نجد ما نقوله، فأعود سر إلى غرفتي أو أركض إلى الحانة كمن يهرب من ذنبٍ ما. أجل كنت أشع

بالذنـب، فعلاقتـي بهـا ليس لها اسـمٌ أو رابـطٌ مقدس سـماوي، هي علاقة خطيئـة.. نعـم، كنت أتخبط في الخطيئـة، وأحاول مثلها أن أعـود إلى الله، أن أذهب إلى الكنيسة وأن أداوم على الصلاة، ولكن عندما يعصف بي نداء الشـوق أجدني أرمي كل هـذا خلفي، وأعود مسـتعدًا للموت تحت قدميها فقط من أجل قُبلة.

كانـت الأيام تسـير حاملـةً معها الجيد والسـيء. عملي فـي تطور دائم، أجني المال وأحاول أن أبني نفسـي وأن أؤسـس وكالـةً خاصةً بي في نفس المجـال. بعد أن هدأت الأوضاع السياسـية في بلادي، لم أعد أكترث كثيرًا بما يجري هناك. قرار رحيلي كان صائبًا، شكرت الرب عليه، فبرغم الهدوء الأمني إلا أنَّ البلاد قد دخلت في أزمات اقتصادية خطيرة، كما يحصل عادة بعـد الحروب، وتلك الروابط الاجتماعية التي كانـت قائمة قبل الحرب قد تفككـت. صحيح أنها روابط مزيفة بين أبناء الأديـان المختلفة، ولكن الآن بات الشـرخ أقـوى وأعمق، فالجميع يحمل في داخلـه جراحًا يصعب على الأيـام إزالتهـا، فالقلـوبُ برغـم السـلام مليئةٌ بالحقـد والحسـرة، وها هي الجمعيـات النسـائية والإنسـانية الدوليـة وجمعيات حقوق الإنسـان تطارد مجرمـي الحـرب، ولقد سـمعت أنهم قد اعتقلـوا بعض الأشـخاص منهم قائـد مجموعتي. لقد أعطت نسـاءُ المخيم وبعض مـن الناجين من حفلات الإعـدام التي كنا نقيمها اسـمه للجهات التي تلاحـق مجرمي الحرب، وهو الآن مـع الآخرين في محكمة العـدل الدولية يخضع للتحقيق، ومن المؤكد أنهـم قد اعترفوا عليّ، وأنَّ اسـمي على لوائـح المطلوبين الآن. لقد حوَّلت هـذه الأحـداث حياتي إلى سـجنٍ كبيـر أتنقل بحـذر، وأتكلم مـع الناس

بحذر، أستعمل كنية جدي في أغلب الأحيان لكي أبتعد عن التساؤلات.. وهذا ما جعلني أيضًا أخاف من نوريستا أكثر، ومن كل ما يتعلق بالماضي. إن أطلقتُ سراحها لن أقدر أن أتحمل ذلك القلق التي سينتابني منها ومن كل تحركاتها. إنني لا أثق بها، أعرف أنها ستنتقم وستعترف عليّ وستكون نهايتي في السجن أو على حبل المشنقة. غريبٌ هو هذا العدل الدولي، لماذا يحاكموننا نحن فقط؟ وهل نحن آخر مجرمي الحروب في العالم؟ لماذا لا يحاكمون اليهود على ما فعلوه بفلسطين؟ ولا يحاكمون الألمان على ما فعلوه باليهود؟ ولا يحاكمون المستعمرين الأمريكان والإيطاليين والفرنسيين والأتراك والروس وكل قاتل مجرم؟ من قتل الأرمن وهجّر الأكراد؟، ولماذا لا يعدمون الأمريكيين على ما فعلوه في العراق؟ لماذا المكيالان؟! حتى العدل الدولي يسير حسب مصالحهم وأهدافهم.

كنت أحاول أن أهرب من كل هذا إلى الحانة، فأشرب وأشرب كي أنسى.. أعرف أنَّ ما أفعله لن يحل المشكلة، بل سيغرقني يومًا بعد يوم أكثر وأكثر بالخطأ والخطيئة. فكيف، ومن سيغسل يديَّ الملوثتين بدماء الأبرياء، وكيف ستكون نهايتي؟ لا أحد يعرف حتى الآن!

48

2010 / 5

مرَّت هذه السنوات الخمس عشرة ببطء. كنت أعتقد أني سأشيخ هنا، فرُحت أدرّب نفسي على تقبل المكان وتقبل الفكرة. تقربي من الله خفف عليّ وحدتي، كنت أصلي كثيرًا وأطلب الغفران.. أبكي من شدة التأثر، أرثي أهلي حينا وطفلي أحيانا.

أخرجت ثياب جد إيفان وجدّته، وملأتُها بأخرى، وصنعت منها جسدًا لوالدي ووالدتي، وأخرى لإخوتي. قصصت ملابس أخرى، وصنعت منها دمية صغيرة لابني. كنت أتحدث إليهم، نضحك ونبكي، أخبرهم عما قرأت في الكتب، وما سمعت من أخبار، وعند مرور أغنية جميلة، كنت أحمل أيديهم وأرقص معهم، إلى أن أرتمي على فراشي من التعب. وعندما يقترب موعد عودة إيفان، أجمع عائلتي هذه، وألفُّ بياسي طفلي الصغير بغطائه، وأخفيهم جميعًا داخل الخزانة. لم أكن أكترث لنفسي، كنت أشعر أني ميتة، ومن حسن حظي أني أسكن قبرًا فيه كتب. وحدها تلك النافذة في أعلى الحائط والتي يدخل منها نور الشمس كانت تذكرني بأنَّ هناك حياة أخرى، وتلك الأخبار التي كنت أسمعها عن مآسي العالم، من صديقي الراديو، هذه الأخبار كانت تحزنني، فأغضب من الله أحيانا لأنه قد سمح

بهـا، وأعـود وأسـتغفره بندم. أما أنـا وايفان، فتلـك العلاقة كانـت تدميني، عقلـي يرفضهـا، فأنا أدرك حـد اللـه، وأدرك أن ما أفعله معـه محرم، ولكن ما ينتابني من مشـاعر لـم يعد بمقدور أي دين أو خوف أن يحدّه. فأنا أحبه.. أجل أحبه، وبتُّ متأكدة. وبرغم رفضي له ولماضيه، كنت أستسلم وأستمتع وأحلم وأنتشـي معه حتى الثمالة، ثم أعود لأكره نفسـي وهذا الولع، وألعن ضعفي وأسـخط على رغبتي، وأحاول أن أقمعها وأعاقب طبيعتي الضعيفة هـذه. كانت الملائكة تحدثني عند صلاتي، وتعلن لي غضبها رغم التزامي، فأبكـي كثيرًا.. أصوم، وأقوم محاوِلةً أن أكفِّر عما أقترفه من ذنوب بالتشـدد في أداء الفروض. أدرك الآن بوضوح أنَّ أكثر المتزمتين دينيًا هم أكثر الناس ارتكابًا للمعاصي، وما تزمّتهم هذا سـوى قناع يتخفون خلفه لإظهار نقائهم والتزامهم أمام الآخرين.

ما أخذ مني مرارة هذه السـنين هو محتويات تلك المكتبة، التي سـبقَتني إلى سـجني وانتظرَت قدومي بفارغ الصبر، فبعد أن أعدت توضيب المكان وتنظيـم الكتـب بدأت رحلتي في كتـب الدين والتي كنت أغـوص فيها بعد ذهـاب إيفان من البيـت، وفي وقت تواجـده كنت أقرأ بعـض الروايات من الأدب العالمي والتي اختارها لي ذلك الجد المثقف، أما في المساء، فيحين موعد الدراسـة في كتب أمه، لقد سـرت معها مرحلة بمرحلة بمساعدة تلك المعاجم.

جرتنـي الأسـماء والمراجع إلـى بحورٍ أخرى، أحسسـت معهـا بعقلي يتحـرك، يتثـاءب، محـاولًا الخروج من سـباته، محـاولًا الوصـول إلى الله مـن باب آخـر. فهل يتنافى عمـل العقل مع الإيمـان؟ ومادامـا متفّقَين على

ضـرورة ترويـض النفس وزهدها في متطلبات الجسـد تقربًـا للذات العليا، ومادام الهدف واحدًا وهو تآلف الإنسـان مع جوهره الإلهي لكشـف أسرار الـروح والفـوز بالنعيم أو بالمعرفـة، فلماذا إذًا يتناقضـان؟ كنت أبحث عن مبـرر لرغبتـي التي تشـتعل في جسـدي رغم عشـقي للـه ورغـم قمعي لها ورغم تمرّسـي على ترويض نفسي ورغباتي. في بعض الأحيان كنت أفصل روحي عن جسـدي، وأرسلها إلى مكان آخر بينما يتمتع إيفان بما بين يديه. تقنيـة خطيـرة أعاقـب بها رغباتي، لكي أحرم جسـدي من تلـك المتعة التي كان يسـتميت في طلبها، ولكن للأسـف كلما كنت أتمـرس في فنون القمع كانـت تتفنن هي في أسـاليب الاشـتعال وطلب المزيد، فتلـك النار الأفعى التـي تحدثـت عنهـا الفلسـفة الهنديـة وعـن إمكانيـة توجيهها، ربمـا بقيت حكـرًا على القلة من المتنوريـن والعارفين والرهبان المتنسـكين، فالتعفف والتطهـر لا يمكـن أن يكونا - أو يصعب أن يكونـا - في حياة مفتوحة، بين رغبات الآخرين فينا ورغباتنا أيضًا في ملذات الحياة. انقسمت بين الخطيئة والتعفـف، بيـن جسـدي ورغباته وبين قمع مشـاعري عندما يناديني شـوق إيفان وعندما أطلبه أنا بشغف.

عبـر كل هـذه السـنين كانـت مواجهتي مـع الشـيطان معلنـة، وربما في السـجون والصوامع تكون الحرب الداخلية أكثر فتـكًا، لأننا نخوضها دون أي مقاطعـة مـن الحياة ومشـاغلها. كل هذا كان يفتح في داخلي تسـاؤلات كثيرة، بين عقلي وديني، تصديقي وشكي. ولماذا حمّلوا الجسد - بما خلَقَ الله فيه من غريزةٍ- خطيئَة هذا الكون وإثم العقاب، رغم أنَّ الجسـد جزءٌ لا يتجزأ من الأقانيم الثلاثة، فلولا الجسـد لما اسـتطاع هـذا الثالوث الخروج

إلى النور بطاقته الكونية الخفية! وكيف نصل إلى قمةِ سرِّ التلاحم الجنسي بدون روح، دون عقل وعاطفة إلا عبر آلة الجسد؟ أم أنه حقًّا مسكنٌ للشيطان بكل ما يرغبه ويحتاجه في نشأته واندثاره؟

فجأة، علا صوت خافت من أحد أركان الغرفة، صوت سمعته سابقا. سقطت بعض الكتب أرضا، فحدقت مليا والخوف يربكني، لأتأكد من هوية هذا الزائر. قال راجيا:

مهلًا! مهلًا.. هل لي أن أدافع عن نفسي قبل أن تطرديني؟

نفض معطفه البالي من الغبار وهو يبعد الكتب ليخرج من بينها.. وجه قبيح يغطيه الشعر، وعينان ثاقبتان.. فم بارز و أكثر من ذراع كل منها له حركة مختلفة عن الآخر، واحدة تشبه الأفعى والأخرى ذيل العقرب وثالثة يد سلطعون البحر وسابعة تشبه حافر الماعز.. ساقان وقدمان يقف عليهما وجسد واحد يبرز من معطفه المفتوح، وقد نما عليه شعر أسود كثيف.. نظر إليّ وهو يبتسم، فقلت له وأنا أسحب جسدي إلى زاوية الغرفة الأخرى لكي أحمي نفسي منه:

- وأخيرا تجرأت وظهرت. لقد أرقني صوتك منذ ولادتي، فماذا تريد مني؟

- لا تخافي فلن أؤذيكِ، تذكرين حين كلمتكِ منذ زمن ولم تعيريني اهتمامًا؟ حاولت أن أحرّركِ من سجنكِ، ساعدتك كثيرًا لكي تتخلصي من إيفان وسهّلت عليكِ الفرص، وأنتِ غافلة وغارقة في الصلاة والتفكير، فقررت أن آتي شخصيًّا لأبرّئَ نفسي من هذه التّهم! وكل متهم يحق له الدفاع عن نفسه؛ أليس كذلك؟

ضحك بهدوء، وأكمل بعد أن جلس وأسند ظهره على حائط الجهة اليمنى من الغرفة:

- اسمحي لي ان أعرفك بنفسي شخصيا.... (انحنى قليلا ثم أكمل مبتسما) أنا اسمي إبليس، أو سلطان الظلام، الشيطان، سميني كما تشائين. وها أنا أحاول أن أجد مفرًّا من كل ما يلصقه بي البشر من تُهم، فأزرع نفسي في فيلم، عمل مسرحي، كتاب أو رواية ما. لقد داعبت خيال أدباء عظام، مفكرين، فلاسفة، عباقرة وسياسيين لكي يخرجوني من ظلمتي ومن التاريخ..

نظر بخبث، فاركًا يديه ببعضهما البعض، ثم أكمل وهو يبتسم:

- ومنذ مدة قصيرة خرجت على صفحات إحدى الروايات، بعد غزوي لفكر كاتبها، غازلته إلى أن استجاب، والحق يقال إنه قد أبدع. تصوري مدى ذكائه وتمكنه.. لقد أخرجني بوضوح بالاسم الأحب إلى قلبي، وجعل اسمي هذا في كل بيت وعلى كل لسان وفي كل اللغات، وكان منبري، فدافعتُ عن نفسي بجدارة. ولكِنْ كلٌّ يفهم الموضوع كما يريد، وهكذا لم يلاحظ أحد قصته معي ودفاعي عن نفسي وتبرئتي لساحتي، فما إبليس في الحقيقة إلا أنتم، تستدعونه وتفعلون ما يحلو لكم، ثم تلصقون التهمة به. لا لن أسمح للبشر بوضع أخطائهم في خزانتي!

- وماذا تريد مني؟

- نوريستا، تعالَي نلعب سويا كما لعِبتُ في تلك الرواية مع بطلها الراهب، فهو أيضًا رغم تدينه قد ارتكب المعاصي، وأنا بكل فخر من شجعه على الكتابة لكي يحرر نفسه من الخطيئة.

حاولت أن أفهم وأستوعب ما يقول. كان ذلك صعبًا رغم كل ما قرأتُهُ عنه في كتب الدين والأساطير.

أرخى جسده على الحائط ومد ساقيه وراح يلاعب أصابعه بتبرم وضجر وأكمل بغضب وهو ينفث بخار أنفاسه المشتعلة في الهواء:

- اكتبي، كوني صادقةً وحاولي أن تبرئي تاريخي من التفاحة الأولى إلى التفاحة الأخيرة.. لا تَنْسَيْ أننا في عصر التفاحة الثالثة! وأنَّ العالم قد أصبح قرية صغيرة، ولم تعد هناك أسرار.

نظر إليّ بأمل وتوسل وهو يغوص عميقا في جذور عيني متسللا إلى فكري ملاعبا أطرافه بخجل، وبصوت منكسر هامس أكمل قائلا:

- لكن الآن أنت وأنا هنا، فلنبدأ من جديد يا نوريستا! أريدك أن تكتبي. أنتِ حقيقة ولستِ قصة راهب وهمية تداعب خيال كاتب.. أنتِ حقيقة.. هيا اكتبي أرجوك، اكتبي عن صراعكِ مع نفسكِ وكيف خُلقت أنا منكِ، وكيف أجتاح أنا جسدكِ وأدغدغ أحلامكِ رغم كل تقواكِ وتديّنكِ ومحبة الله التي تسكن قلبكِ.. برغم ذلك الظلم الذي سمح له بأن يدميكِ.. إني أراقبكِ منذ يومك الأول، واستغربت جدًّا حين عدتِ إلى حضن الله بعد كل ما حدث معكِ، أنتِ فعلًا قوية الإيمان! هيا يا صغيرتي اكتبي وربما ستجدين أجوبة كثيرة عن أسئلتك، عن الرغبة وعن الروح وعن الإنسان والموت.. اكتبي، وسوف تستحضرين عندها أرواح عائلتك وطفلك وضحايا الحروب والأموات والأحياء فوق صفحات دفتركِ، فأنتِ الآن سجينة هنا منذ زمن طويل، ولم تغيّر صلاتكِ مرارة الواقع، ولم يحمِكِ

إيمانكِ من هجمات إيفان ورغباتِ نفسكِ.. جربي أن تخرجي نفسكِ من سجنكِ إلى تلك الصفحات..

كنت أستمع إليه بإصغاء، وبات الهدوء ظاهرًا على ملامحي، فلم أعد خائفة منه كما كنت..

- إنه أنت إذن.. أعوذ بالله منك، ما أطغاك!

نظر اليَّ بإمعانٍ وضحك عاليا:

آه من بني البشر! يصنعونني ويستدرجونني ويستنجدون أخيرًا بمن يعتقدون أنه عدوي. لا يا جميلة، أنا أقرب إليكِ من الله، وأنتِ من استحضرني وليس هو من أرسلني. أنتِ وحدكِ بإمكانكِ طردي، ولكني أدرك أنكِ - ولو فعلتِ- فلن تستطيعي إبعادي، لأنكِ بحاجة إليّ. أنتِ بحاجة إليَّ نوريستا فتعالَي نتعاون بهدوء. أنتِ سجينة وليس لكِ حول ولا قوة، تعالي نبحث عن حلول.. دعينا نكمل ما بدأ بكتابته ذلك الكاتب..

- أيها المضِلّ، اذهب الآن ودعني بسلام.. أريد أن أنصرف للصلاة..

تحول مظهره فبات نسخة عني، وكأني أنظر إلى نفسي في المرآة..

- سنصلي معًا.

49

كانت تلك الصورة لنصفي الآخر في داخلي قاتمةً ومشوّشةً، رغم مرور هذه السنين الخمس عشرة، فما زالت صورة الموت والقتل تؤرقني، إلى درجة أني كنت أشمّ رائحة الدماء في أنفي وألمسه في حواسي. ليس سهلًا أن تقتل وتحصد الأرواح على مدار أربع سنوات وتعود بعدها لتحيا كأن شيئا لم يكن. لقد أنساني نجاحي في عملي هذا الماضي بعض الشيء، خاصة اليوم وأنا أفتتح وكالتي الخاصة لتجارة السيارات. لقد انفصلت عن الشركة التي كنت أعمل فيها بعد أن اكتسبت وطورت خبراتي ولمع اسمي في هذا المجال. صحيح أنني مزاجي وعصبي، لكني ورغم هذا استطعت أن أكسب ثقة العملاء، فهم يدركون أني إنسان مستقيم في تعاملي ولا أجيد المراوغة، رغم سوء طباعي. أما ماغي ففرحها بما أقدمت عليه لم يكن ليوصف، فلقد راهنت على نجاحي أكثر من مرة. إنها تحبني كثيرًا، بل تعشقني.. حاولت عدة مرات أن تعيد إحياء العلاقة بيننا، ولكن بعد فشلي تلك الليلة لم أجرؤ على تكرار التجربة مرة أخرى. عدا أن مشاعري وأحاسيسي كانت تقيم في ذلك المخزن حيث نوريستا، فهي وكل ما يحيط بها كالخنجر العالق في حنجرتي لا أستطيع ابتلاعه ولا استخراجه. تلك الحبيبة لم أستطع برغم هذه السنين إصلاح الأمور معها، فأي معاهدة سلام يجب أن تبنى على إطلاق سراحها وأنا لا أضمن وفاءها لي.. كنت أحاول،

وحاولت فعلًا عدة مرات أن أبتعد عنها. كنت أقاوم شوقي لها ورغبتي فيها، وأحاول أن أتقرب أكثر من ماغي، فربما وجود علاقة أخرى سيأخذ مشاعري إلى مكان أكثر وضوحًا، ولكني لم أستطع أن أفعل هذا، ولم أستطع أن أنساها. ورغم قراراتي الصارمة أجد نفسي دون أن أشعر واقفًا على بابها مرتميًا بين أحضانها. كنت أحس بشوقها لي، هذا الشوق جعلني أستطعم معها الوصال، جعلني أتنشق أنفاسها وأغوص بخلاياها وأختبر معها أدق تفاصيل تلك الرحلة المثيرة بين الرغبة والنشوة والاستسلام. كم شعرت بالاشمئزاز عندما تعود بي ذاكرتي إلى مخيمات الاغتصاب، وأي حيوان كُنْتُهُ، وكيف لأي رجل أن ينتشي على أجساد متصلبة فاقدة لمتعة الوصال! أي ألم قد سببت لأولئك النساء؟ كم كرهت نفسي وكم قادني هذا الشعور إلى تعنيف نوريستا في بعض الأحيان، فهي تلك العملة الواحدة ذات الوجهين، وجه منها يذكرني بالماضي والوجه الآخر يأخذني من جديد إلى آدميتي، ثم أهرب منها - بعد أن أنتهي من جولات حبي لها- إلى صقيعِ ذاتي وأنا الذي أتمنى أن أرتمي في أحضانها طول العمر.. أتركها وحيدة وأرحل، وأمعن أكثر في تعذيبها، وكم من مرة رأيتها تبكي وكأنها ترجوني أن أبقى معها، فأغيب أيامًا طويلة بعدها، لأنني أدرك أنني لو عدت فسوف يقتل أحدنا الآخر. لقد تمنيتُ مرارًا أن تخبرني بأنها تنتظر مولودًا جديدًا، وعندما كنا نمارس الحب كنت أطلب من كل قلبي وبكل محبة أن يرسل الله لنا طفلًا آخر. إن حدث هذا، من الممكن أن أعيدها إلى الحياة، من الممكن أن نبني سويًا أسرتنا من جديد، عندها سأكون والد طفلها، وستفكر ألف مرة قبل أن تهجرني أو تشي بي. لقد وعدت نفسي أنها إن حملت فسأعتبر هذه إشارة من الله كي نبدأ حياتنا من جديد.

ولكن يبدو هذا صعبًا، فلربما قد حدث خطأ ما خلال الولادة قد تسبب في عقمها.. هل لن تنجب ثانية؟ هل دمرتُ أنا حياتها وحياتي للمرة الألف؟ هل هذا هو العقاب الذي أستحقه كثمن لتلك الجرائم الفظيعة التي ارتكبتها؟

علي أن أصلّي، أن أطهر نفسي لكي يغفر الله لي ما فعلت.

50

لقـد بـدأت أحس بـأنَّ هناك طاقة غريبة تتسـرب إلى جسـدي، فالسـيد المضِـلّ مفعـم بالحياة متفجِّر بالحركـة، عنده حلول لكل المشـاكل وعنده أجوبـة لـكل الأسـئلة. أخبرني بأشـياء كثيرة عـن مسـتقبل الأرض ومصير البشرية. لم يكن وضعي يرضيه وأنا هنا سجينة بين هذه الكتب أنتظر حالات الشـوق التي تعصف بإيفان لكي أمتعـه عبرها. لم يكن عندي حتى الحق أن أطلب متى أريد، أو أن أرفض لو لم تكن عندي رغبة، رغم أني قد أصبحت أكثر استسلامًا ورضوخًا، وأحيانًا أكثر استمتاعًا بلحظاتنا الحميمة تلك..

- يجب أن تخرجي وتتحرري نوريسـتا، فلن تُمضي عمركِ كله سـجينة هنا فقـط لكي تكتبي عنـه وعن تجربتكِ معـه، ولتصفِي تحوّل مشـاعرك بين لمس النهد والخد، وعن علاقتكِ معي وماذا أضاف وجودي إلى حياتكِ! يجب أن تخرجي وأن تكتسـبي المزيد من الخبرات، وتستشـعري المزيد من المشاعر، وأن تكتبي وأنا أخوض مجاهل أخرى فيكِ ومعكِ..

- لا أعرف.. حتى وإن ترك الباب مفتوحًا فلن أتمكن من الخروج.. أشـعر بأني غير قادرة أو مؤهلة للعيش خارج هذه الجدران. أسمع كل يوم على الراديـو أخبار مـا يدور في الخارج، ويدميني هذا و أبكـي أحيانًا، وأحيانًا أشكر الله أني سجينة هنا..

- ما كتبته يا صديقتي لا يكفي، يجب أن تكتبي المزيد عن هؤلاء البشر الذين تستمعين إلى أخبارهم، يجب أن تتلمسي نداءهم لي، وأن تكشفي الحقيقة.. تلك الحقيقة التي سترفع عن عاتقي وعاتق الله مسؤولية أخطاء البشر.. الجميع يجب أن يدرك أنَّ الإنسان وحده المسؤول عما تقترفه يداه، ولا يجوز أن يلقي أحماله لا على الشيطان، ولا على الله! فبنو البشر مسؤولون عن خياراتهم.

- صحيح أنك هنا، ولكنك لم تلغِ وجود الله في قلبي، فأنا أزداد إيمانًا يومًا بعد يوم، وكلما زاد نقاشي معك ازددت تعمقًا بحب الله وبتُّ أكثر قربًا منه..

- لم أطلب يومًا من أحد أن يبتعد عن الله، بالعكس، وجودي يساعدهم على التمسك به أكثر، ويأخذهم إليه عن طريق العقل وليس فقط عن طريق الإيمان الأعمى.. هيا دعينا من هذا الجدل البيزنطي، ولنبحث عن حل. يجب أن تخرجي من ضعفكِ هذا..

بدأت أفكر جدّيًا في الهرب. بات هذا العالم الذي حولي ضيقا عليَّ وكأني أدركت حقيقة المكان أخيرا.

وها هي محكمة العدل الدولية تُعقد اليوم لتقفل ملف حرب البوسنة والهرسك، وملف الاستئناف، وكل قضايا المحاكمات لمجرمي الحرب، ومازال هناك آلاف المجرمين خارج السجون وآلاف المفقودين، وها أنا هنا، وها هو إيفان طليقًا بعيدًا عن كل ما فعله. إنها مهزلة! كيف يعيدون لمن وقع عليه الظلم حقه.. مؤكد أنه محق.. يجب أن أخرج.. ولكن كيف؟ إنه السؤال الأصعب، فأنا أحب إيفان فعلًا ويصعب عليّ فراقه بعد هذه

السـنين. ولكني لست واثقة من مشـاعري، هل هي حب حقيقي، أم خوف، أم تعـوّد، أم قبول بالأمر الواقع، لهذا عليَّ أن أبتعد، أن أراقب ما سـيعتريني من مشاعر عند غيابه.. ولكني خائفة! فبعد خروجي من هنا سيكون مصيري مجهولًا، فأنا لا أعرف ماهية هذا العالم فيما بعد هذه الجدران، أين سـأنام، وماذا سآكل، ومن أين سأحصل على النقود، لست أجيد عمل شيء!

جلـت فـي الغرفـة حائـرة ، وكأني ألاحـظ لأول مـرة جدرانهـا الضيقة وسقفها المنخفض. ولكني لن أبقى هنا حتى أموت.. يجب أن يطمئن إليَّ، سـأظهر له حبي، سأكسـر قلقه مني.. لن أمثّل أو أدّعي هذا، بل سـأكون كما أنا، دون قيود. ربما سيصعب عليّ بعدها الرحيل، ولكن يجب أن أدفع ثمن قراراتي.

51

الوقـت، أو ربما هي العاطفة ما أدارت دفـة الأحداث في هذا الاتجاه.. نوريستا، تلك الطفلة التي أخرجتها من الموت، يبدو أني قد وقعت في غرام عينيها من اللحظة الأولى.. حتى عندما اغتصبتها تعذبتُ كثيرًا لأنني سـببت لها هذا الألم، وهذا سـبب من أسـباب إدماني على تلك الحانة وغرقي أكثر و أكثر بين مسكراتها. لقد تغيّر سلوكها معي في الآونة الأخيرة، وما أراحني أني لم أعد ألاحظ تزمتها الديني، والذي كان يقلقني.. جلسنا وتناقشنا بهذا الخصوص، وأخبرتها عن المسيحية وأخبرتني عن الإسلام وعما لا أعرفه. تلك النقاشـات ردمت بيننا هوة عميقة، وفتحت قلوبنا على آلامها. أخبرتها أنـي حلمت بأن أكون طيارا، وأخبرتني أنهـا أرادت أن تكون معلمة. قصّت لي قصص أهلها وإخوتها، أشـعرني هـذا بالذنب لأني أنهيت حياتهم، إنهم فعلًا أبرياء، فكيف يدفعون ثمن جريمة لم يرتكبوها؟ أدركت هشاشـة تلك الحجج التـي نتذرع بها كي نحقـق مآربنا ونخوض الحـروب ونبرر القتل، وكيـف نسـتعمل الأديان واللـه ذريعةً لإجرامنا. المسـيح إلـه محبة، فكيف أُرضيه عندما أسـفك دمـاء الأبرياء على قدميه؟ هكذا قالت نوريسـتا، وهي على حق. هل حان الوقت كي تهدأ رياح الجنون والتعصب؟ هل أسـلم لها حياتي وأضعها بين يديها؟ ومن لي سـواها؟ فهي الوحيدة التي أسـتطيع أن أعترف لها بكل شيء فعلته، هي الآن كنيستي ومعبدي.

بتُّ أذهب إليها كل ليلة. لم تعد سهرة الحانة تعنيني، قرّرت أن أقلع عن شرب الخمر! أشعر أنني إنسان آخر، حتى أجسادنا قد أفصحت عن حبها وتصالحها. بالأمس، سكرنا من خمرة ذلك الحب من دون خمر وحتى الصباح.. انتشينا عدة مرات، قبل أن يسدل علينا الإنهاك ستائره. لقد كانت حبيبتي، نعم، هي حبيبتي وروحي ولا أقوى على فكرة فراقها! سأحاول أن أجد حلًّا ما، يجب أن نخرج من هذه الحالة المعيبة.. حبيب يسجن حبيبته خوفًا منها؛ الخوف والحب لا يقيمان معًا. يجب أن أسوِّي الأوراق وأن نتزوج.. يجب أن نذهب إلى الطبيب وننجب أولادًا.. لا يهمني على أي شريعة سنتزوج، أو ماذا سيكون دين أولادنا، ما يهمني أننا سنعيش سويا. اليوم سأفاتحها في الموضوع، سأطلب يدها، وستكون ليلتنا الأخيرة في ذلك المكان، لنودع الماضي الأليم بكل ما فيه.

اشتريت لها الورود، قلادة ذهبية وخاتما، وكل ما أعجبني. ومن متجر آخر ابتعت لها فستانًا جميلًا وثيابًا داخلية وأشياء أخرى، ثم ارتديت بدلتي وذهبت إليها.

عندما فتحَت الباب، كانت الدهشة بادية عليها، هدايا وورود حمراء وزجاجة نبيذ.. قلت لها والسرور يملؤني:

- أحضرت لك مفاجأة! خذي هذا الكيس وارتدي ما فيه.

غابت قليلا، لتظهر من جديد وكأنها شخص آخر.. كيف لم ألاحظ أنها رائعة الجمال؟ هل يفتح الحب أعيننا، وهل يعميها البغض؟

- انظري ماذا أحضرت لك أيضا؟ كل هذا الذهب في الصندوق هو لك، هو مهرك، لعلّي أعوّضك بعضًا من ذلك الألم الذي سببته لك.

فتحته بلهفة الأطفال، فصعقتها المفاجئة عندما رأت ما في داخله:

- آه هذا كثير!

- ليس كثيرا! سأشتري لك المزيد، وستكون هذه الليلة آخر ليلة لنا هنا. سوف تنتقلين إلى أجمل غرف هذا المنزل، لتكوني سيدته وصاحبة المكان.

حضنت يديها بين يدي وقبلتهما بلطف:

- نوريستا، هل تقبلين الزواج بي؟ بأية طريقة تريدين، فلم تعد هذه الامور تعنيني.. لقد أجبرتك كل هذه السنوات على الإقامة هنا، كنت خائفًا منك، والآن سأضع حياتنا كلها بين يديكِ فهل توافقين؟

لاحت في عينيها حيرة غريبة وهي تبحث في عيني عن شيء ما.. حاولت الكلام ولكنها فضلت الصمت..

- اسمعي، لا تعتقدي أن انتقالك من هنا هو ثمن زواجنا، لا أبدًا وبإمكانكِ أن ترفضي، وبإمكانكِ أن تنهي علاقتكِ معي ولن يتغير شيء. أعدك بأني سأكون إلى جانبك، وستكونين حرة حتى وان سلَّمتِني إلى الشرطة لن أعترض، وسيكون هذا جزاءً مناسبًا لما اقترفته من جرائم. أنتِ منذ اليوم إنسانة حرة، وأنا أضع مصيري بين يديكِ.

بعد تفكير طويل، آثرت الكلام على الصمت، وأخبرتني ما أتوق إلى سماعه:

- لا تفكر أنَّ بإمكاني أن أؤذيك إطلاقا إيفان!

غمرتهـا كما لـم أغمرها من قبـل.. راحـت تقبلني كالمجنونـة، وكأنها تتنشق الحياة من أنفاسي، وكأنها تودع فيَّ كل ما كرهته يومًا..

- إني أعشـقكِ منذ أن رأيتكِ، برغم كل تلك الظروف، سـأحاول أن أنسيكِ كل هذا الألم وإلى الأبد.

غرقنا في سـكرات اللذة بكل ما فينا، وكأنَّ الحب هو الأب الذي يعلن الغرباء زوجًا وزوجة، وكأنَّ ملائكة السماء هم الشهود..

- اخترقيني حبيبتي، أريد أن ينتهي بي العمر الآن، وألا أستفيق من جديد..

- سامحني أنت أيضًا، ومهما حدث تذكر أني أحبك، وأني سامحتك، وأني أعشقك!

حضنتهـا وغفونـا متعبين.. نامت على صدري.. آه مـا أجمل الحبّ، لو تذوقه الناس لما تمكنوا من القتل، ولما كانت الحروب!

52

لم أزيّف مشاعري ولم أتظاهر، فأنا أحبه فعلا. جل ما فعلته أني قد تركت نفسي تبوح له بمكنوناتها دون قيود، دون أن أفكر فيما مضى، دون ذكرى الحرب والدين، الحقد والعنصرية اللذين يسممون بهما أفكارنا ضد الآخر. باتت زياراته الليلية فرحتي التي أنتظرها، نتكلم سويا ونتحاور، أخبرني عن أحلامه وعن إخوته، بكى وبكيت معه. كاد يغمى عليّ حين أخبرني كيف حفر تراب الحديقة بأظافره ليدفن عائلته ومعهم ضميره وقلبه. أردتُ أن أعطيه صندوق وأغراض أمه، ولكن خفت أن يعذبه هذا، فيعود لينتقم مني من جديد، وبعضُ حزني كان على أهلي الذين لم يدفنوا ولا أعرف ماذا حل بأجسادهم. ومرات كثيرة يقطع أخبارَنا الحزينة تلك قصصُ طفولتنا القصيرة، فنضحك معًا وكأننا عدنا إلى هناك بالروح والجسد. ولكني رغم هذا لا أزال سجينة، ولا يزال يقفل خلفه الباب كل ليلة بعد رحيله!

أحيانًا يساورني الخوف والقلق، فأعدل عن التفكير في الهرب، وأعد نفسي بسعادة مرتقبة ومستقبل أفضل. وأحيانًا تعود رغبتي في قتله لتقلق مضجعي.. لقد خبأت ذلك السكين الحاد الكبير الذي وجدته في المخزن بين أغراضي. لايزال ذلك الصراع في داخلي يدميني منذ دخول وليد روحي وخوفي وقلقي بشكل مباشر في حياتي. كان يحارب ضعفي،

ويقف لي بالمرصاد بصوته الذي يسبقه الشرر من عينيه الحادّتين المبطنتين بالطيبة:

- أنتِ جبانة، ولاتزالين طفلة. هل ذهبت كل تلك الدماء والدموع سدى؟ كيف تثقين به؟ ها هو رغم كل هذه السنين وهذا الانسجام والحب يقفل الباب عليكِ ويتركك وحيدة بعد أن ينال ما يريد!

بقيت سجينةَ هذا الجدال المميت، إلى أن دخل عليّ في تلك الليلة وهو يحمل الورود ويرتدي بدلة أنيقة وقد مشط شعره ببعض المثبت إلى الوراء، فظهرت خضرة عينيه الجميلتين اللتين أضاءهما لأول مرة بريق غريب اسمه الحب. قفز قلبي من مكانه، هذا الفارس الرائع لي! لم أرَ آثار الدماء على يديه، ولم أشم رائحة الموت تنبعث منه، وكأنه قد ولد من جديد طاهرًا نقيًّا. أعطاني كيسًا ورقيًّا ملونًا وطلب مني أن أرتدي ما في داخله.. دخلت إلى الحمام لأتفحَّص ما اشترى لي بفرح الأطفال.. فستان رائع! لم أستوعب فرح هذه اللحظات، وقررت ألا أفكر في شيء آخر أكثر مما أعيشه الآن. أسدلت شعري على حرير ذلك الرداء، فشككت أنا نفسي في صدق مرآتي، وعندما خرجت تعلقت عيناه بي وكأنه يراني للمرة الأولى. أعطاني علبة كبيرة مخملية.. لم أصدق ما رأته عيناي..

- نعم إنها لكِ، عسى أن تسامحيني على تلك الآلام التي سببتها لك.

لم أستطع الكلام، فأخذ يديَّ وقبلهما بحنان وشغف، وطلب مني الزواج. كان صادقًا، أعلم هذا، لكن لا أعرف إلى متى. لقد وعدني أن تكون هذه الليلة ليلتنا الأخيرة هنا.. وعدني بأنه سيطلق سراحي، وسأكون حرة في خياراتي، حتى إن قررت رفض الزواج فلن يؤثر ذلك إطلاقًا على

مصيري! لقد رماني في نار الحيرة من جديد، فأنا لا أعرف أيَّ مستقبل ينتظرني إن بقيت أو رحلت.

قررت أن أترك الأمور لحينها، وأن أستمتع بإنسانيته وحبه، فربما عاد غدًا وأقفل الباب. غمرني بحنو وشغف، ورحت أقبّله وكأني أحتفل به وأودعه في آن..

- اخترقيني حبيبتي أريد أن ينتهي بي العمر الآن!

- سامحني أرجوك ومهما حدث تذكر أني أحبك!

ساعات مرت من الحب والنشوة، إلى أن أُنهكت أجسادنا، فغفا وغفوت أنا على صدره.

أيقظني ذلك الصوت المخادع من جديد..

- نوريستا، هيا استيقظي إنها فرصتكِ!

- ماذا؟!

- هيا اجمعي ما تريدين وارحلي، بإمكانك أن تقتليه أيضا، فهو نائم ولن يستيقظ بسهولة، أنت حرة الآن..

كيف سأرحل بعد ما سمعت ورأيت، وإلى أين سأذهب؟ لا لن أقتله، فرحيلي سيميته ألف مرة، وربما سيعيده إلى مجاهل الجريمة، عندها سيبحث عني إلى أن يجدني ويقتلني، وربما قتل نفسه. لا لن أرحل، فليس لي مكان غير هنا. ولكن ماذا لو أخلف وعده، وأقفل عليّ الباب طوال العمر؟ إنها فرصتي الوحيدة.. ماذا سأفعل؟!

- مازلتِ تفكرين؟؟ انهضي بسرعة! إنه قاتل، هل يعقل أن يصبح ملاكًا من قتل طفله واستباح كل حدود الله؟

تحركت بحذر كي لا أوقظه.. أحضرت الحقيبة، ووضعت فيها بعض الملابس والكتب. كنت أراقبه بين الحين والآخر، فلو فتح عينيه ورآني لأنهى حياتي فورًا. يجب أن أتحرك بسرعة قبل أن يستيقظ..

- ماذا سأفعل؟

- ضعي المجوهرات في الحقيبة، وخذي بطاقة ماري من محفظته؛ هيا بسرعة وإلا فستموتين.

لم يكن عندي متسع من الوقت كي أفكر فيما يدور من حولي وفيما أفعله

- ولكن هذه سرقة..

- إنه جزءٌ بسيط من ثمن اغتصابك وقتل أهلك..

كسَرَ سكون الصمت حركةُ جسده وصوت أنفاسه وهو يتقلب في الفراش.. كاد أن يغمى عليّ.. هل سيفتح عينيه؟ هل سيبحث عني ليحضنني؟.... لكنه بقي مستغرقًا في النوم. تنفست الصعداء، أكملت ما بدأت وجسدي يرتجف.

- يجب أن أخرج بسرعة من هنا. إني أخافه فعلا، ولا يمكن للحب والخوف أن يولدا من رحمٍ واحد. سأترك له رسالة صغيرة، وسأعطيه أغراض أمه، ستكون عزاءً له بعد غيابي..

أخذت الصندوق، فسقط على الأرض ذلك السكين الحاد الذي كنت أخبئُه خلفه، وسقط قلبي معه. تجمّدت في مكاني أستمع إلى ترددات صدى الصوت في أرجاء المكان..

- آه.. إنه مستغرق في النوم.. ما هذا الخوف الذي يعتريني؟ كيف سأعيش معه ومع هذا الخوف؟ السكين هنا، هل أقتله وأرحل ولطالما كنت أحلم بهذا؟ تلك الفكرة التي تدربت على قبولها، وها هو القدر يضعها أمامي على طبق من ذهب..

- ماذا؟؟؟ لا فلأرحل بسلام..

أخذت قلمي، وكتبت له آخر كلماتي، ثم فتحت الصندوق بحذر ووضعت الرسالة في داخله. أخذت محفظته، ورحت أبحث عن بطاقة ماري فلم أجدها. كان هناك الكثير من النقود، ترددت جدًّا قبل أن آخذها وأضعها في حقيبتي. سرت بحذر، الباب مفتوح، عبرته وصعدت على الدرج إلى الصالة.. منذ سنين طويلة لم أَخطُ عتبة هذا المخزن.

دخلت إلى غرفته لأول مرة لأبحث عن البطاقة.. كان قلبي يقرع كطبول الحرب.. حملت ثيابه وشممتها لآخر مرة..

- دعيكِ من هذا.. سيستيقظ في أي لحظة.. خذي البطاقة وارحلي!

رحت أبحث عنها في كل مكان، فبدونها سيصبح تنقلي شبه مستحيل. بين الثياب في الخزانة وجدت مسدسه، فحملته وتفحصته. لقد حاول أن يقتلني به.. عاد إلى ذاكرتي صراخ أبي وأمي وإخوتي وكل تلك المشاهد.. هل أنا وهذا المسدس هنا كي أنتقم؟

- نوريستا، أنتِ خطيرة وتفوقينني خبثًا ودهاء! تريدين أن تقتليه؟؟

- أجل.. أفكر في هذا.. ولكني لن أفعل.. سآخذ المسدس معي كي أحميه، ربما قتل نفسه، ولكي أحمي نفسي مما ينتظرني عندما يدرك أني قد رحلت..

بعد الكثير من البحث بيديَّ المرتعشتين، وجدت البطاقة. ودون أن أتردد أو أعطي فرصة للعقل والمنطق، ولست متأكدة إن بقيت هل كنت سأصبح مستجيبةً فعلا للعقل؟ وهل الله هو من فتح لي الطريق أم الشيطان؟

- حذارِ.. لم نتفق على هذا.. فلم أقرر يومًا عنك، كذلك عندما أخطأ الراهب في تلك الرواية، كل ما حدث كان قراره كما هو قراركِ أنتِ الآن، هيا عودي إن كنت ترغبين..

أيقظني من شرودي وحيرتي صوتٌ ما صادر من الصالة في الخارج..

- ربما قد استفاق، يا الله، سيقطعني إربا إربا!

حملت المسدس بيدي، وسرت على رؤوس أصابعي إلى الباب، ورحت أراقب الصالة وكل زواياها وأرجاءها من هناك. كنت جاهزة لكي أطلق النار، فلن أسمح لأحد بعد اليوم أن يخيفني، حتى لو كان أغلى الناس على قلبي، فأنا أكره ضعفي هذا ويجب أن أتحرر منه.

تحركت بحذر خارج الغرفة، سرتُ إلى الباب الرئيسي على رؤوس أصابعي وأنا أتلفت يمينًا ويسارًا، والمسدس يرتجف في يدي، وأستدير إلى الخلف وكأني أودع ممر المخزن حيث يرقد. مشيت بخطى مترددة نحو الباب إلى أن خرجت من هناك.. خرجت من باب البيت الذي دخلته منذ

خمس عشرة سنة.. وحدي! شممت الهواء النقي، وداعبت الشمس وجهي لأول مرة. شمس الفجر اللطيفة.. جالت عيني في الحديقة حيث دفن ابني، هنـا قد دفن من أحب، وفـي الداخل يرقد من أحب وأكـره. لا أعرف، ربما لـم أحبـه فعلا، فصعبٌ على الضحية أن تختبر مشـاعرها؛ لا يقرر في قضايا الحب والحياة إلا الأحرار! وأنا سـأكون حـرة كي أمتلك قراري، ولأبني ما كسرته الأيام في داخلي، ربما سأعود، وربما لا

53

استيقظت من نومي ولم أرد أن أفتح عيني. كانت ليلة الأمس حلمًا جميلًا، وبداية صفحة جديدة من كتاب حياتي النظيف. نوريستا جنبي، وبعد قليل سنخرج من هنا سويًا إلى حياتنا الجديدة. تقلبت يمينًا ويسارًا أبحث عنها لأحتضنها فلم أجدها. فتحت عيني ونظرت حولي، المكان فارغ وثوبها لا يزال على الأرض. ربما هي في الحمام.. ناديتها:

- نوريستا أين أنت حبيبتي؟ تعالي إلى حضني!

ظل صدى صوتي يتردد في حنايا السكون. ناديتها من جديد، فلم يأتِ جواب. نهضت من الفراش لأبحث عنها، ورحت أجول في غرف البيت لربما هي في إحداها تحضر نفسها للانتقال، فلم أجدها. انتابني خوف شديد شل تفكيري، فعدت إلى المخزن راكضًا أتفحص كل ما فيه.. صعقتني رؤية سكين كبير حادّ ملقًى على الأرض، وبجانبه صندوقٌ مخملي، فتحته فوجدت رسالة بخط يدها:

"إيفان الحبيب، ما زلت لا أعرف حقيقة مشاعري تجاهك.. فكرت كثيرا في قتلك، ولكني لم أستطع، وها هو السكين هنا. لقد أخفيته طويلا. أعرف أني أحبك، وأعترف، ولن أقوى يوما على أذيّتك. لكن كان عليَّ أن أرحل كي أكون حرة أكثر في خياراتي، وإن بقيَت مشاعري كما

هي، وتأكدت من حبي لك، وإن قتلَ الحبُّ الخوفَ سأعود، وإلا فسأبقى بعيدة وإلى الأبد. لا أريدك أن تحب من تكره وأن تتعذب من أجله، فلتكن أنت أيضًا حرًّا في خياراتك. أرجوك لا تبحث عني، ودعني أختبر نفسي وأجرب الحياة، وربما سأعود إليك قريبًا. في هذا الصندوق أشياء أمك، لقد قاسمتك حبها كل هذه السنين، ولم أشأ أن أُطلعك عليها كي لا تتألم، أما الآن فسوف أتركك معها، فمن المؤكد أنها سترعاك ولو من بعيد. اعتنِ بنفسك وسامحني، فأنا ربما أحبك؛ أعطني فرصة كي أختبر نفسي..

سقطت الرسالة من يدي.. وكأن أصابعي لم تعد قادرة على حملها. حتى جفوني لم تكفكف عيوني التي ملأتها الدموع، أنفاسي راحت تعبر مسارها مجبرة، وقلبي وعقلي لم يستوعبا قساوة هذه اللحظات.

- ماذا؟ لقد رحلت! تبًّا لك نوريستا من هذا الانتقام! لقد قتلتني، لقد ثأرتِ أخيرًا لموت عائلتكِ، ومن كل الظلم الذي ألحقته بك. لم أتصور يوما أنكِ بهذه القسوة! تخبّئين أشياء أمي عني كل هذه السنين، ثم تتركينني معها وحيدًا وترحلين!

رحت أعبث في محتويات الغرفة كالمجنون، ألعن نفسي ألف مرة على ثقتي بها، وعلى ندمي على قتل عائلتها، وعلى قبولي بها رغم تديّني. دقائق قليلة وأصبح المكان خرابًا.. أردتُ أن أكسّر، أن أحطم كل ما يحمل أيّ أثر منها، رغبت بأن أحرق المكان بما فيه وأن أحرق نفسي معه. لقد رحلت! كيف فعلت هذا؟ وهذا الحب الذي منحتني إياه؟ كيف خانتني؟ لقد أقسمت لها بأني سأتزوجها! تركت لها حرية الاختيار، كانت تستدرجني إلى هذا؟ كم أنا غبي! كيف أعطيتها هذه الفرصة؟ جلست على الفراش

بعد هذه الثورة وكأني صنمٌ حجري فاقد الروح.. ساعات مرت لم أستطع فيها الحراك، وراح شريط حياتي يُعرض أمامي، وكل من عبر فيه مدَّ يده وصفعني على وجهي، ورأسي كان يستدير بين اليمين واليسار من شدة تلك الصفعات..

مسكين أنت يا إيفان! ما هذا القدر؟ ما هذا المصير؟ من المفترض أن يكون اليوم بداية حياتك الجديدة، وهل حياتك غير هذا؟ ها هو التاريخ يعلن اليوم بداية نهايتك الجديدة..لقد رحلت نوريستا وتركتني مع رسائل أمي وصور إخوتي. لقد قتل أتباعُها أهلي، وأكملت هي على هذه العائلة. كيف سلمتُها حياتي؟ يا ليتها قد طعنتني بهذا السكين، يا ليتها لم ترحمني من موت الجسد، ويا ليتها رحمتني من هذا الموت البطيء!

54

كدت أتجمد من البرد وأنا جالسة منذ ساعات على أحد مقاعد محطة القطار. منذ أسبوع وأنا على هذا الحال، أجوب أرجاء المدينة ثم أعود إلى هنا لأستريح قليلا، أستجمع قوتي ثم أعود الى الشارع من جديد، وكأن مكان انطلاقي قد أصبح بيتي. اعتقدت أن المدن الكبيرة التي سمعت الكثير عنها وعن الحياة فيها من الراديو تتسع للجميع، وربما ساعدني الحظ ووجدت لنفسي عملًا ما أعيش منه، ولكن الأمور سارت عكس ما تصورت.

نزلت من القطار عند المحطة الأخيرة ذلك اليوم، سعيدة بحريتي، لكنَّ مروره الدائم في مخيلتي كان يفسد عليَّ جني ثمار إنجازي ويشعرني بالأسى، كيف يعيش، وماذا يفعل الآن بعد رحيلي؟ ولكن ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم بدأت تلك المسافات البعيدة التي قطعتها تظلل الصورة بوشاحِ النسيان، وتُلهيني عن النظر إلى الوراء، فأنا الآن هنا، وأمامي عالم غريب مخيف يجب أن أدخل في خضمه، فالمدينة الضخمة أشعرتني بالانسحاق.. آلاف الوجوه الغريبة تعبر أمامي كل يوم، شوارع، مشاة، إشارات مرور.. وأنا لا أنتمي إطلاقا إلى ما يدور حولي. لقد أمضيت طفولتي في قرية نائية، وشبابي في ذلك المخزن بين الكتب والانتظار، وصراع الحب والحقد. رغم أني حضرت نفسي لهذه المرحلة، إلا أنَّ قسوة

الواقع أكبر مما تخيلت، والنقود التي أخذتها من محفظة إيفان قبل أن أغادر اشتريت بها بطاقة القطار ووجبة واحدة يوميا. كان من الصعب أن أجد فندقا أو حتى نزلا صغيرا، فالأسعار مرتفعة وما معي لن يكفي لليلة واحدة هناك، ويجب أن أقنن مصاريفي إلى أن أجد من أبيعه هذا الذهب الذي معي.. مهمة صعبة وشبه مستحيلة، فلغتي لا تساعدني على الكلام، رغم أنَّ فهمي لها كان ممتازا.

بعد ليلتي الأولى، والتي نمت فيها على مقعد المحطة، لاحظت أنَّ المتشردين وبعض الغجر المتسولين الذين يجوبون الشوارع في النهار يقصدون الحديقة العامة بعد منتصف الليل ليناموا هناك، فأخذت لي مكانًا مثلهم بين بعض الأشجار الكثيفة، وافترشتُ أوراق الصحف التي كنت أجمعها من نفايات المحطة، وبعض ما عندي في الحقيبة من ملابس، وتلحفت ببعضها الآخر.. أستيقظُ عند بزوغ الفجر، وأترك المكان قبل قدوم دورية الشرطة مثلما كانوا يفعلون، وأمضي معظم نهاري مثلهم أجوب الشوارع وحقيبتي على ظهري، وعندما يضنيني التعب أستريح في محطة القطار إلى أن يحل المساء، فأعود بعدها إلى الحديقة. كنت أرتعش من البرد والخوف من كل ما حولي.. من الشرطة، ومن المشردين السكارى، فبعد منتصف الليل لا يبقى في المدينة سوى من ليس لهم مأوى. ذلك المسدس الذي زرع الخوف في قلبي لسنين، لكم يشعرني الآن بالأمان، فكنت أقبض على زناده طوال الليل، وأخفيه في الحقيبة خلال النهار، فلو فتشت الشرطة أمتعتي ووجدته معي لأدخلتني السجن.

وكان الوقت صانع المعجزات الوحيد، فبدأتُ آلف هذه المدينة بعد أن جبت معظم شوارعها. كان التعب قد نال مني، فلم أستحم منذ أن تركت البيت، وملابسي أصبحت قذرة من رطوبة عشب الحديقة، وأتساءل أحيانا بحيرة هل أخطأت باتخاذ قرار الرحيل. حتى ذلك المضلّ وليد روحي اختفى ولم يجرؤ على مواجهتي.. اختفى، لأنه لا خيار أمامي سوى القبول بالواقع، فذلك الشيطان الذي فينا لا يؤرقنا إلا في أوقات حيرتنا وتشتتنا، وعندما نتخذ قرارنا يجلس متربعًا أمام شاشة القدر، كي يرى ماذا سنفعل وكيف سنتصرف، يأكل الفشار ويشرب الكولا ويقهقه ضاحكًا أحيانًا ويظهر تأثره أحيانًا أخرى.. إنه محق.. وما كتبته عن علاقتي بإيفان يثبت نظريته، إنه بريء، ونحن، كلٌّ من لديه عقلٌ كامل هو المسؤول الوحيد عن قراراته، ولكنه بصورة ما شريكي ولا يستطيع أن ينكر هذا!

صباح الخير..

أيقظني من شرودي صوته وهو يربت على كتفي. إنه هو ذلك العجوز الذي كنت أراه يوميا في كل مكان. ترددت قبل أن أجيب، فلو تكلمت سيدرك أني غريبة، وربما عرف أني مسلمة ومن بلد آخر. ولكن عندما ألقى تحية الصباح مرة أخرى، لم يعد هناك مفر من الإجابة، قلت مبتسمة بحذر..

- صباح الخير..

- أنتِ جديدة هنا؟ لم أشاهدكِ من قبل!

حاولت الاختصار..

- نعم.

- أهلا بك إذا في عالمنا الرائع، اسمحي لي أن أدعوكِ إلى الغداء، اِبقي هنا وسأعود بعد قليل..

غريبٌ هذا العجوز، برغم قذارته ومظهره الرث إلا أنَّ ملامحه تعلن طيبته، وإنسانيته تشع من وجهه وعينيه اللتين تغرقان في بحر من الدموع، رغم ابتسامته الدائمة والتي تظهر أسنانه أو ما تبقى منها. غاب قليلا وعاد يحمل معه بعض السندويشات..

- هيا تفضلي، لنتقاسم طعام الغداء! ما اسمك؟

- اسمي ماري..

- من أين أنت؟

- من أرض الله الواسعة! وتحديدًا من صربيا، إني جديدة على المكان.. كنت أتسول في مكان آخر ومنذ أسبوع وصلت إلى هنا.. وأنت؟

- كما ترين.. منذ سنوات طويلة وأنا أعيش نمط الحياة هذا، أتسول، آكل، أشتري الخمر، ثم بعد أن ينام الجميع أذهب إلى الحديقة وأبيت ليلتي هناك، وفي بعض الأحيان عندما أجني ما يفيض عني، أحاول أن أرفِّهَ عن نفسي فأذهب للاستحمام أو أقضي ليلتي في بيت أحد الأصدقاء.. آه نسيت أن أعرِّفكِ باسمي.. اسمي (شيشو) ولستُ أعرف إن كان هذا اسمي الحقيقي، فلقد وعيتُ على الدنيا وهم ينادونني به.. أين تنامين؟

- في الحديقة بين الأشجار..

- لي صديقة عندها منزل متواضع، هي أيضا متسولة، ولكنها وظّفت حياتها بشكل أفضل، فمن يتعب من رقاد الشوارع بإمكانه أن ينام هناك أو أن يستحم، أو يمارس الجنس أو يتعاطى المخدرات مقابل مبلغ من المال. لكنها مادية، ولا تفتح بابها لأحد دون نقود فلكل شيء ثمن، هكذا تقول لنا دائمًا، فهي قد أجّرت هذا البيت من أجل راحتنا..

ضحك وهو يكمل الحديث:

- سأعرّفكِ عليها، هيا معي!

سرنا إلى هناك، فالمكان ليس ببعيدٍ عن المحطة. منزلٌ صغير ذو حديقة مهملة وسور خشبي مهترئ، وأمامه أرضٌ كبيرة فارغة، وخلفه تتعالى المدينة بكل زخمها وصخبها. طرق شيشو الباب، ففتحت لنا امرأة غريبة الشكل كأنها خرجت من إحدى الاساطير، ترتدي قميصًا قطنيا مفتوحًا وسروالًا ضيقًا أسود كلون شعرها نصف المحلوق، وغطى بياضَ بشرتها وشمٌ يمتد على معظم أنحاء جسدها، وقد توزّعت الأقراط المعدنية على أجزاء كثيرة منه أيضا.. رموش اصطناعية كثيفة، وأحمر شفاه قاتم.. هذه المرأة الخمسينية على ما يبدو قد أنهكَتها هموم الحياة ورغم هذا ترفض أن تشيخ أو أن تهرم، وكأنها تخفي خلف شخصيتها وألفاظها وملامحها الصلبة الكثير من المآسي..

قالت متهكمة وهي تضع إحدى يديها على خاصرتها:

- هذا أنت! ومن هذه التي معك؟ أين وجدتها؟

قهقه ضاحكًا:

- (كيكـي)! كم أنتِ لطيفة، يبـدو أنَّ مزاجكِ معكر اليوم، أعتقد أنَّ الصنف الأخير لم يتلاءم مع طبيعتك المرحة!

ابتسمَت باستهزاء:

- كم أنت لطيف أيها العجوز، هيا قل باختصار ماذا تريد؟

- أريـد أن أعِّرفكِ على مـاري. قدمت الى هنا منذ أيـام وليس عندها مأوى وهي تنام في الحديقة منذ أسبوع..

رمقتني بنظرة متفحصة محاولة إخفاء إعجابها خلف فظاظتها:

- وكيف بإمكاني أن أسـاعدها؟ إن كان معها نقود فبإمكانها أن تنام هنا وأن تستحم أيضا..

- هيـا كيكـي، أنـتِ طيبـة، لقـد وصلـت منذ أسـبوع. غـدًا سـأعرّفها على الشـوارع التـي بإمكانها أن تجنـي فيها الكثير من النقود، وسـآخذها أيضا إلى الجمعيات الخيرية، فربما تحصل هناك على بعض المساعدات..

- حسنا ستدفع أنت إذًا.

- إنك سافلة.. سأدفع لا تخافي..

لقـد فهمـت مضمـون حوارهمـا ولكـن بصعوبة، فهمـا يتكلمـان اللغة المحكية غير تلك التي كنت أسـمعها في الراديو، ويبدو أنَّ المشـكلة تدور حول المال.. كلمتني بلهجة صارمة قائلة:

- بإمكانك أن تدخلي أو أن تذهبي وتعودي متى شئت، ولكني لن أفتح لك الباب إن لم يدفع العجوز النقود..

بات الغضب ظاهرا على وجه العجوز وهو يشير لي إلى الباب:

- أُدخلي ماري، لا تقلقي سأحل المشكلة، فلقد وفرت بعض النقود وسأقرضك إياها إلى أن تتدبري أمرك.. المهم ألا تنامي في الحديقة، فالمكان هناك ليس آمنًا.

دخلت المنزل، وجُلت بناظري في أرجائه. كانت الملابس مبعثرة في كل مكان، أما السجادة فلقد غاب لونها من تراكم القذارة فوقها على مر السنين، بالإضافة الى ذلك الكلب الكبير العجوز الذي كان ينام عليها مسترخيا. على الطاولة أطباق مليئة بفضلات الطعام وأعقاب السجائر وكؤوس الخمر وأشياء أخرى غريبة. أما الزاوية التي فيها المطبخ، فكأنها قد تعرّضت لإعصار بدّد وشتّت ولوّث كل ما فيها. رائحة المكان مقززة، ولولا ذلك الهواء النقي الذي تُدخله النوافذ المفتوحة، لما تمكن أي كائن حي من البقاء على قيد الحياة..

- هيا ماري لنذهب الآن، وسأوصلك إلى هنا في المساء..

قبل أن أغادر دخلت الحمام، وأخرجت بعض قطع الذهب من الحقيبة. وبعد أن ابتعدنا عن البيت أعطيتها لشيشو:

- أريد أن أبيع هذه القطع الذهبية؛ لن أجعلك تدفع عني، تعال نذهب إلى محل الذهب..

- لا ماري، إننا متسولون ولو دخلنا هذه الأماكن سيعتقدون أننا قد سرقنا ما نريد بيعه وسيسلموننا للشرطة. سأبيعها لصديق وأعطيكِ النقود.

ذهبنا سويًّا إليه، وأخذتُ النقود مقابل الذهب. لقد كان المبلغ أقل بكثير من قيمتها الحقيقية على ما أعتقد، ولكنَّ هذا أفضل من الحاجة. ثم توجّهنا إلى أحد الأحياء الراقية وجلسنا على الأرض..

أنبأني حدسي بمصيري الأسود الذي ينتظرني، أما شيشو فأكمل حديثه بحماس:

- إن هذا الشارع هو أفضل شوارع المدينة للتسوّل، يعبره الكثير من الأثرياء يوميًّا. هيا مدّي يدك، وحاولي أن تركزي في عيون المارّ، تمسكني واطلبي بخشوع. أشعريه أنه السيد، إنَّ معظم الناس التي تعطي هم ممن ينشدون هذا الإحساس بأنهم أفضل من الآخرين، وبأنهم أصحاب قلوب رحيمة.. باختصار، هؤلاء هم مجموعتنا المستهدفة، استمري بذكر الله وذكّريهم بالثواب الذي سيجنونه، ولا تلّحي كثيرًا لكي لا يتركوكِ ويرحلوا.

شعرت بالذل والندم على ما أقدمت عليه. هل سيكون هذا مصيري الذي تركت إيفان من أجله؟

- لا أعرف.. لا أستطيع شيشو.. أريد أن أبحث عن عمل.

- ستعتادين، إن إيجاد عمل شبه مستحيل، هيا البسي نظرات الحزن والمأساة وردّدي معي "ساعدونا أرجوكم ابنتي مريضة ساعدونا ساعدكم الله'

تساقطَت في قبعة شيشو بعض النقود..

- هل رأيتِ؟ ربما سيتجاهلكِ البعض، ولكن في آخر النهار ستشترين ما تأكلين وما تشربين وستجدين مكانًا تنامين فيه.

في المساء أوصلني إلى بيت كيكي. دفعتُ لها النقود ودخلت، الإيجار كان زهيدًا بالنسبة للفنادق حتى الرخيص منها، مشورة شيشو مناسبة وستحميني من النوم في العراء، وتجعلني أوفر نقودي، وقد أتدبر أمري وأجد مخرجًا لما أنا فيه قبل أن ينفدَ ما معي من ذهب.

في آخر الصالة قرب طاولة الطعام وضعت لي فراشًا على الأرض، بقربه مصباح كهربائي وخزانة صغيرة ذات قفل لأضع فيها أغراضي. تركت حقيبتي في داخلها بعد أن أقفلت بابها، ثم دخلت الحمام لكي أستحم من ذلك النتن الذي لم أعتده يومًا عليّ. كان أروع حمّام في حياتي رغم قذارة المكان، وبعد أن انتهيتُ رميتُ كل ملابسي في الغسالة..

- آه شيشو، لن أنسى لك هذا الجميل ما حييت..

عدت إلى الصالة، فوجدتها وقد ملأت الطاولة بزجاجات الخمر وما يرافقها من طعام وأدوات، وزوار كيكي كانوا هناك أيضًا، رجلان وسيدة أشكالهم غريبة مثلها، أجسادهم تغطيها الألوان والزركشات الغريبة، وقرب الباب كلبٌ جديد كان نائمًا قرب كلب كيكي. قالت وهي تبتسم بفخر:

- أصدقائي نسيت أن أعرفكم على ماري، ستبيت معنا هنا الليلة. تعالي ماري أعرّفكِ على المجموعة، بإمكانك أن تشربي معنا إن أردتِ. شعرت بالخجل والارتباك، فجاوبتها بسرعة ودون تفكير:

- لا شكرا، أفضل أن أنام فأنا متعبة..

جلست في الفراش أحاول أن أتجاهل ما يدور حولي، وأن أفصل نفسي عما يحيطني، ولكني لم أستطع، فأحاديثهم المحرجة حول الجنس كانت

تفجعنـي. ما هذا؟ هل أصبـح هكذا الكون في غيابي؟ ماذا فعلت بنفسـي؟ كيـف سأتماشـى مع هـذا العالم الجديد؟ لـم تكن فقط أحاديثهم الجنسـية والكحـول، بـل كانـوا يتعاطـون المخـدرات التي كنت أسـمع في نشـرات الأخبار ملاحقة الشرطة لتجارها. ما أرحم اغتصاب إيفان! ما أرحم السجن بين الكتب في ذلك العالم المثالي، فمنذ رحيلي وأنا أشعر أنَّ الله قد أصبح بعيـدًا عني، وكأنه يقيم هناك فقـط، لا يقطن المدن المزدحمة. الغريب أنهم كانوا يستمتعون بما يفعلون.

عنـد منتصـف الليل، بعـد أن تخدّروا، فتحـوا التلفاز علـى أحد الأفلام الإباحية.. استرقتُ النظر من تحت الغطاء الذي أخفيت رأسـي تحته، كان الجو مقزّزا، ما هذا، وأين أنا؟ لم أستطع أن أتحمّل المشهد، بعد أن شرعوا فـي ممارسـة الجنـس الجماعـي، فأخـذت حقيبتي وكتبـي والغطـاء معي، وتركت المنزل.

سـرت فـي الظـلام وحيدة، إلـى أن وصلـتُ إلـى الحديقة. عـدت إلى مكانـي، فالغابـة أرحـم ممـا رأيت وسـمعت. ذلك الهـواء النقـي وصمت الطبيعـة سـاعداني من جديد علـى الاسـترخاء، فصلّيت كثيـرًا لأطرد تلك الصور والأصوات من داخلي، إلى أن منَّ الله عليّ بنعمة النوم..

55

بعـد أن هـدأَت نـاري قليـلًا، عـدت لألملم جراحـي لعلـي أتمكن من النهـوض مـن جديد. بدأت أسـتجمع تفاصيـل ما حدث، لاحظـتُ أنها قد عبثَـت بمحتويات غرفتي، ولـم أجد المسـدس حيث تركتـه، وكذلك بطاقة ماري..

- كان بإمكانهـا أن تقتلنـي به ولكنها لم تفعـل، لكن لماذا أخذته معها؟ هل مازالت تخاف أن أقتلها به؟ أم أنها خافت أن أقتل نفسي؟

لقـد أخـذت النقـود أيضا مـن محفظتي، وأخـذت معها الذهـب الذي اشـتريته لها. هي تملك الآن المال والقوة، وحتى جذوري سرقَتها وأخذت هويـة أختـي مني. كنت سـأقتلها بذلك المسـدس، يـا ليتني فعلـت فهي لا تستحق حبي ودموعي.

منـذ رحيلهـا وأنـا فاقد للحيـاة، أجلس في المخـزن أبكي أحيانا، أشـم رائحتها على الوسادة وألعنها أحيانًا أخرى.. ربما هي محقة، فكيف ستحبني وأنـا قاتل ومجرم حرب؟! حتى طفلي مات على يدي، إني أحترمها، أحترم صدقها، لـم أعنِ لها شيئًا، ولـم أجلب لها سوى الألـم منذ رأتني إلى الآن..

رن الهاتـف ليقطـع شـجوني، إنـه موظف المكتـب، فالزبائن يسـألون ويريـدون متابعة أعمالهم معـي. لن أجيب، فلتذهب الوكالـة إلى الجحيم،

أريـد أن أبقى وحيدًا مع وجعي. حتى ماغي تحاول أن تكلمني منذ أيام ولـم أقوَ على الإجابة، ربما سأنهار أمامها ولا أريد أن تراني على هذا الحال..

لـم يتوقـف الرنين، إنها ماغـي من جديد، فلم يتبقَ لي سـواها.. أفرغت غضبي بوجهها وكأنها المسؤولة الوحيدة عما حصل..

- ارحلـي عنـي، لا أرغب في الكلام معكِ ولا مع أي أحد آخر، ارحلي من حياتي!

- مـا بـك إيفـان؟ أيـن أنت؟ هـل حصل لـك مكروه؟ لقـد اتصلـوا بي من الوكالة.. كانوا قلقين عليك، فالعمل هناك شبه متوقف..

لم يعد بإمكاني أن أخفي ما ينتابني، وانهرت أمامها أخيرًا:

ماغي تعالي إليّ فأنا أموت. أنا في مخزن البيت.

أغلقت الخط، ولـم تمضِ سوى بضع دقائق حتى كانت بقربي..

- أبواب البيت مفتوحة والشبابيك أيضا وأنت تجلس هنا في هذا الخراب؟ لماذا؟ ماذا حدث؟

ركعت أمامي على الفراش، وراحت تمسح وجهي ودموعي بيديها..

- هل أنت مريض؟ وكأنك شخص آخر!

حضنتنـي ورحـت أبكي علـى صدرها وهي تبكـي معي، وبعـد أن هدأ محيط الحزن ورسـت أمواجه، التقطتُ أنفاسـي وأخبرتها قصتي من البداية إلى النهاية. كنت بحاجةٍ إلى هذا البوح، كنت محتاجًا إلى رمي حمولي على قلبٍ عطوف يحبّني ويقبلني كما أنا..

- يا إلهي! كل هذه المعاناة، كل هذه السنوات وأنت صامت؟

ألم يقتلك سكون الصمت داخل أحقادك!؟

- لقد قتلني ملايين المرات، ولكن هل ستدينيني أنت أيضا؟

- لا يا صغيري، لطالما أحببتك كما أنت. يا صديقي جميعنا ضحايا ظروفنا الصعبة، حتى ذنوبنا نقترفها رغمًا عنا فكيف لنا أن ندين ونحاكم الآخرين؟ أنا أعذرك وأتفهّم كل ما فعلت، أما نوريستا فدعها لمصيرها..

- كيف؟ ربما أبلغت عني الآن، وربما أعادوا محاكمتي. ربما حللوا جسد طفلي ووجدوا أنه قد مات بسبب الدواء، سيعدمونني مؤكد!

- لن تبلغ عنك، إنها تحبك. لو كانت تريد أذيّتك لطعنتك بالسكين قبل رحيلها، فالسكين كان قُرب الفراش كما أخبرتني؛ هي قد تركته عمدًا كي تُطمئنك. كما كان بإمكانها أن تطلق عليك النار من مسدسك قبل أن تهرب، لا تقلق، فلقد كتبَت لك الرسالة لتعلمك أنها بحاجة إلى فرصة لتتأكد من مشاعرها تجاهك، إن كانت تحبك فستعود، وإلا فعليك أن تنساها وتعتبر أنها قد ماتت مع عائلتها في ذلك اليوم..

- كيف وأنا أحبها؟ إني أعشقها، سأموت حتمًا، لن أستطيع الاستمرار بدونها!

كنت أرى تلك المرارة في عينيها وأنا أعلن عشقي لامرأة اخرى.. رحنا نبكي سويًّا من جديد.. هي كانت تبكي من أجلي، وأنا أبكي من أجل نوريستا..

56

النوم في الحديقة لم يكن آمنًا دون المسدس، أضعه تحت رأسي بين لفافات الملابس تحسبًا لأي طارئ، فلن أسمح أن يستبيحني أو يعتقل حريتي أحد. خرجت من بين الأشجار -منزلي الجميل- فوجدتُ شيشو قادمًا يشير لي بيده من بعيد..

- ماري! ذهبت أسأل عنكِ فقالت لي كيكي إنكِ قد تركتِ المنزل، ماذا حدث؟

- أصدقاؤها كانوا هناك، وبعد منتصف الليل حدثت أشياء أخجل أن أخبرك بها، ولم أستطع أن اَحتمل ذلك فأخذتُ أغراضي ورحلت..

ضحك عاليًا:

- ماذا؟ هل تريدين أن أجد لك صديقًا أيضا؟

لا! أنا لا أحبذ العلاقات غير الشرعية..

كاد أن يغمى عليه من الضحك:

- لقد عرفت الآن لماذا أنت فقيرة رغم جمالك. يا ابنتي هذا هو كنه الطبيعة البشرية، وهذا ما ميزنا الله به عن سائر المخلوقات، لا يمكننا أن نقمع هذه الرغبة مهما فعلنا، لا يمكن أن نقتل ما زرعه الله فينا..

- ولكنه ضَبَطها بروادع وقوانين!

- إن لم تكن ظروف الإنسان الذي خلقه الله تسمح بأن يعيش حياته الطبيعية ضمن القانون، وإن لم يكن له أن يتزوج ويقدم كل ما تتطلبه شروط أية علاقة شرعية فماذا سيفعل؟ من المؤكد أن جسده سيتمرد عليه ونفسه أيضا، وسيصبح عدائيًا متزمتًا، متطرفًا، فهو ليس محرومًا من الجنس فقط بل هو محرومٌ من إنسانيته ومن طبيعته البشرية ومن المشاعر التي تنبعث من هذه العلاقة بغض النظر عن ظروفها. إنَّ من اشتهى وكأنه فعَل، فالنية تسبق العمل، وإذا كانت هذه العلاقات خطيئة وسنحاسب عليها نيةً وعملًا، فلتكن إذا عملًا ولنستمتع بطبيعتنا البشرية وبتلك المتعة التي ميز بها الله إنسانه الجميل!

- هناك الكثير ممن يستطيعون..

- وهل تعتقدين أنَّ عقد الزواج يبطل الحرام؟ معظم النساء ينمن مجبراتٍ مع أزواجهنَّ والعكس صحيح؛ هذا غباء حقيقي، إذًا ابحثي لنفسك عن زوج، من سيتزوجكِ وأنت ابنة الشارع؟ في النهاية ستسعين بنفسكِ إلى حضن رجل، أول رجل تلتقينه..

سأمنع نفسي.. سأحاول..

أدار رأسه متذمرا من طريقة تفكيري، محاولا إنهاء هذا الجدل العقيم:

- حسنا.. كيكي سألت عنكِ، فلنذهب إليها، أرجوكِ تجاوزي هذا، فلا يجب أن تنامي هنا مرة أخرى، سوف تمرضين أو تغتصبين..

كان محقا، فأنا أوشك على الانهيار، ولن أستطيع تحمل هذه الظروف القاسية. مرَّ النهار سريعًا، جمعنا بعض النقود واشترى لنا أحد المارة وجبة الغداء، وودعت شيشو وعدت إلى البيت..

استقبلتني كيكي وعلامة الاستياء بادية على ملامحها، بادرتني سائلة:

ماري لماذا رحلتِ؟

- لقد أزعجني ما حصل، لم أحتمل أن أشاهد ذلك أمامي..

قهقهَت عاليًا:

- آه أنا أسفة! كنت سأدعو أحد أصدقائي لكي أعرّفكِ عليه، هو أيضا عازب مثلكِ، ولكني اعتقدتُ أنّ لديكِ حبيبًا فأنتِ جميلة ومغرية..

- لا أريد أن أتعرَّف على أحد فهذه الأمور لا تروق لي.

- تعالي واجلسي قربي!

جلستُ على طرف الصوفا بحذر..

- هل لا تزالين عذراء؟

أطرقت رأسي بخجل وأنا أجيب:

لا للأسف..

عادت لتضحك عاليًا:

- لا للأسف! لكن مادمت قد خضتِ تجارب سابقة لماذا لا تريدين أن تتعرفي على أحد؟

- لقد مررت بظروف قاسية يصعب عليَّ الخروج منها..

- لا تحزني يا طفلتي، الوقتُ كفيلٌ بإزالة آثار أي جرح مهما كان عميقًا..

كان هناك حنوٌّ في عينيها تجاهي، أشارت إليّ بالسيجارة التي بيدها:

- خذي، انفخي عليها تنجلي، سوف تساعدكِ على النسيان، إنه اختراع مميت ولكنه فعال!

أبعدت رأسي باشمئزاز..

- أنا لا أشرب السجائر ولا أحبها..

سكبت كأسًا ووضعَت فيه قطع ثلج..

- سوف تعتادين، دائمًا هناك أول مرة، خذي اِشربي وسوف تلاحظين الفرق، أرجوكِ من أجلي، القليل فقط!

كادت أن تسكبه على وجهي، لم أعرف كيف أخرج نفسي من هذا الموقف المحرج، فأخذته منها وشربت قليلًا، وكان مذاقه مقرفًا..

- سيصل (جو) بعد قليل، سأعرفكِ عليه، إنه شاب طيب..

شعرت أنَّ الأمور ستخرج عن سيطرتي.. لقد شربت الخمر، وربما سأنام مع جو أو مع غيره، وربما سأشرب السجائر! يا إلهي ماذا فعلت بنفسي؟ لقد كان ذلك السجن أرحم، ومن اعتبرته منتهكا لحرمتي هو من كان يحميني من نفسي ومن مصيري هذا. هل أدرك الله أني سأنحرف، ولهذا جعلني أواجه هذا المصير وأبقاني سجينة كل هذه السنين؟ إيفان المسكين! لا بد أنه يتعذب الآن، إني أسمع بكاءه أينما ذهبت، ولا أستطيع أن أمنع

نفسي عن التفكير به، لقد افتقدته فعلا! رحت أبكي بمرارة، لأسباب لم أبكِ من أجلها سابقًا، ولم ألحظ نفسي إلا وأنا في حضن كيكي وهي تمسح دموعي..

إني أموت كيكي! أنا وحيدة..

- لا تبكي أرجوكِ! الحياة بسيطة ولا تستحق أن نضيعها بالبكاء على ما مضى وراح، أنا هنا وسأكون بقربك، خذي اشربي بعض الخمر، سيخفف هذا عنك قليلا!

وضعت الكأس على فمي وشربته حتى آخر قطرة، كما لو كان سمًّا قاتلًا لعاشق الانتحار. أردتُ أن أنسى. آه يا سيد الظلام، هل أنت سعيد الآن؟ بعد قليل تسرب الدوار إلى رأسي، وسار خدرٌ غريب في أعصابي وأطرافي، ثم أصابتني حالة أخرى وكأن المكان يرقص بي. رحت أضحك و أبكي في آن.. رحت أكلم نفسي بصوت عال:

- مسكينة يا نوريستا، كم أنتِ غبية! هل أنت سعيدة الآن؟

- من هي نوريستا؟

- إنها صديقتي الغبية..

أكملت بلسانٍ متلعثم:

- دعينا منها، إنها غبية تعتقد أنها تملك قدرها وأنها تملك أيضا زمام الأمور، وتمتلك كذلك العلم والمعرفة. تصلّي وتعاقب نفسها كلما أخطأت.. لا أفهمها هل تريد أن تكون ملاكًا أم أنها تطمع في النعيم الأبدي؟ كيف

يسعد بالنعيم الأبدي من كان معذبَ الروح على الأرض، ها.. انسي ما قلت، هي غبية وحسب!

- أنا أكره هذه الشخصيات المركبة.. دعينا منها فأنا سعيدة لأنكِ هنا وتشاركينني بيتي، بعد قليل سيصل جو، سنستمتع برفقته وأنا متأكدة أنك ستحبينه.

لم أكن أسمعها جيدًا، ولم أعد أراها بوضوح، وكانت هي الأخرى تترنح. بعد قليل دخل علينا رجلٌ وسيم حليق الرأس، وكما الآخرين كان الوشم يلف ذراعيه حتى عنقه.

- أخيرا وصلت؟ أعرّفك على ماري..

جلس معنا وأكملنا سهرتنا، أعطاني سيجارة..

- جربيها ماري إنها من الصنف الممتاز..

كانت ذكرى إيفان تحرقني، أريد أن أعود إليه، إني حقًّا أحبه! سحبت ذلك الدخان وأنا أشم رائحته فيه.. أشتاقك وأشتاق نوريستا تلك الملاك البريء، كم أنا غبية..

بعد ساعات فتحت عيني بصعوبة، لا أعرف ما حل بي، وكأن ذاكرتي قد مسحت تماما..

- أين أنا؟ آه إني في منزل كيكي!

جالت عيني في المكان.. كانت نائمة على الكنبة، سمعتُ أنفاسا أخرى قريبة مني، التفت إلى مصدرها، فوجدت جو نائما بقربي وهو عارٍ، وأنا

أيضـا كنت عارية!! تجمّد الـدم في عروقي.. يا إلهي! ما هـذه القذارة، ماذا فعلـت؟ وكيف وبأي عين سـأرفع رأسـي إلى الله وأصلـي؟ هل أهرب من ذنـب مفتَـرض لأقع فـي خطيئة مؤكَّدة! سـامحني إيفان لقـد خنتك! خنت محبتك، وعقاب الخونة الموت!

57

أراحني قليلا بوحي لماغي. إنها امرأة عظيمة، لقد تفهّمت موقفي ودوافعي. لا أعلم إن كان تفهمها هذا نتيجة حبها لي أم أنها مقتنعة حقًّا أن ظروفي هي السبب الأكيد في انحرافي. نوريستا أحبتني أيضا، ولكنها لم تعذرني ولم تسامحني. أريد أن أبحث عنها، سأعيدها إلى هنا وأسجنها من جديد. هذا سيثير الشبهات حولي، فمحكمة العدل الدولية أقفلت ملف محاكمات الحرب نهائيًّا منذ ما يقارب السنة نعم، إلا أنَّ محاكم صربيا والبوسنة لاتزال تطارد المتهمين وتعيدهم أينما كانوا وتحاكمهم، وخاصة صرب البوسنة منهم، وكأننا وحدنا من صنع الحرب. لا، سأبقى هنا، ربما عادت ولم تجدني، سأنتظرها هنا إلى أن أشيخ

كان هذا حديثي مع نفسي طوال هذه الأيام ولم أكن أداوم في الوكالة إلا بضع ساعات، فلم يبقَ هناك سوى موظف واحد وعدد قليل جدًّا من السيارات. كانت الأمور تنذر بكارثة قريبة، نهايتها إعلان إفلاسي؛ وما همني، فأنا أعيش وحدي وعندي ما يكفيني إلى أن أموت، لقد فقدت الحياة بريقها بعد رحيلها. لم أكن أدرك أنها حياتي وأنَّ اختطافي لها لم يكن الانتقام دافعَه الأول، بل الحب! ابن الواحد والعشرين يغرم ومن النظرة الأولى بإحدى ضحاياه، وعندما اغتصبتها لأول مرة أردتُ أن أغتصب هذا

الحب، وعندما سجنتها كنت أريد أن أسجن هذا الحب وأحاربه كي يموت، وإن قتلتها يومًا سأقتلها لأقتل هذا الحب الذي أدماني، ولكن يجب أن تعود أولا وبعدها سأقرر.

أما الحانة بيتي الثاني، فلم يعد السهر هناك يغريني، لقد أصبح مظهري مزريا، ذقني طويلة وشعري غير مرتب، وحتى ملابسي لم أعد أختارها بعناية كما كنت أفعل سابقا. بتُّ أكره نظرات الشفقة في عيني ماغي وماركوس وحتى أيليز. أنا إيفان بطل فرقة الإعدام، أكره هذه الشفقة، فهم لا يعرفون من أنا وكم من روح قتلت وكم من امرأة اغتصبت.

ولكني الآن إنسانٌ آخر، أصفي حسابي مع إنسانيتي وأنصب قوس محاكمتي كل يوم، وأحاكم نفسي دون رحمة على كل ما فعلت، على كل ضحية قتلتها، أستحضر أعينهم وصراخهم، ما أقسى روح الله الموجودة فينا عندما نستدعيها ونسمح لها بأن تكون حقا، فترانا نحترق بنار ذنوبنا الأشد حرارة من نار الجحيم، رغم أنَّ رسل الله قد ماتوا من أجلنا، ورغم مغفرته لذنوبنا، فالأهم من هذا أن نسامح نحن أنفسنا ونتقبل ضعفنا وخطيئتنا، قبل أن يسامحنا الله أو البشر، فما يقترفه الجندي في الحرب لا يُنسب إلى أفعال البشر، فلولا تجرّده من إنسانيته لما تمكن من القتال.

وتراني أنظر داخل كأسي، فأرى نفسي ورفاق السلاح ونحن نتحضر بحماس لاقتحام إحدى القُرى النائية، تلك المتعة التي كنا نخوضها ببهجة المنتصر رغم شراسة المقاومة، بعد أن تدّكها المدفعية بقذائفها في كلّ زاوية لتخرس أيّ جيوب للمقاومة. كنا ندخل بعدها ونقتحم المنازل، فنقتل من تبقى هناك، نغتصب.. وبجنون، فتوتر الحرب والخوف من الموت منشط

يبث في الأرواح نهم الحياة والاستمرار فيترجم هذا عبر ممارسة الجنس. لهذا تكون أجساد النساء ساحة حرب مع الموت. بعدها نأسر من يروق لنا أسره، ونعبث بمحتويات تلك البيوت، وكثيرا ما وجدنا الطعام وقد حضر فسكبنا لأنفسنا وتناولنا غداءنا من أيدي من قتلناهم، لنجول بعدها على الغرف نفتش محتوياتها ونعبث بممتلكات أصحابها ونأخذ ما خف حمله وعلت قيمته، نكسّر ونحطّم ونشعل النار، نطلق الرصاص على المارة فيهربون من أمامنا كالفئران، ندوس بمصفحاتنا كل ما يعترضنا.. كل هذا هو أنا.. وأكثر، وأكثر.. فكيف لي أن أسامح نفسي!.. وأرفع الكأس وأتجرعه.

58

أظن أني قد أدمنت شرب الخمر كما إيفان، والسجائر التي كانت رائحتها تقتلني بدأت أنفق ما أملك كي أشتريها. لقد أغرقتني تفاحة حواء بين الدين والخطيئة، وتفاحة نيوتن، بين الفلسفة والعلم، بين الخطيئة وترويض النفس وقمعها.. ها أنا أختبرُ تفاحتي الثالثة لتختصر كل ما كان، وبعد كل هذا الكبت والتزمت وتهميش الجسد وإنكاره في دائرة الثالوث المقدس، أنجرف إلى آخر أيقونة كان محرمًا عليَّ أن أفكر فيها: "الجسد".. الجسد الذي هو مسرح العقل، الروح والنفس. صوت تصفيق يعلو من مكان ما..

- أيها المضِلّ! هذا أنت؟

- ممتاز! إنه استنتاج رائع، يجب أن تدوّنيه وأنتِ تخوضين في تفاحة الجسد المقضومة، عصر التطور والتكنولوجيا.. اكتبي يا نوريستا! باتت الفكرة واضحة، عودي إلى الكتابة ودوني مراحل حياتك الجديدة بكل تفاصيلها.

منذ خروجي من جنتي، من ذلك السجن، لم أكتب كلمة واحدة.. حتى أني لم أفتح المصحف، وعزفت كليًّا عن الصلاة. أصبح عندي نفور من كل ما هو ماورائيّ، الدين والجنة والنار وكل هذه المنظومة التي تبدو أسطورية.. هذا العالم الصاخب الصارخ أبعد ما يكون عمّا قرأت.. اغتصاب المتدينين

للإنسان وللدين فتاوي التحريم والتحليل واستباحة النساء.. الشرق وما يحدث فيه من عنف وقتل، وهم الأقرب لله ورسله.. أين هم من الله وأين الله منا؟!.. لم يتغير شيء منذ قتل أهلي إلى الآن.. القصة تعيد نفسها كل يوم ألف مرة في مكان ما على الأرض..

مسحت دموعي وانا أحدق في السماء، محاولة أن أستشعر ما أفتقده. لقد بات بيني وبين الله والدين سورٌ لا يمكنني تجاهله ولا اجتيازه، وها هي كيكي قد أعادتني إلى الشارع بعد أن نفدَت نقودي وبعتُ كل ما معي من ذهب. كنت أعتقد أننا قد أصبحنا أصدقاء! عندما طلبت مني أن أغادر البيت كنت أريد أن أخرج المسدس وأطلق النار عليها، لقد دمَّرَت ما تبقى مني.

أعتذر يا وليد روحي.. "لقد دمّرت أنا بمساعدتها ما تبقى مني صعقني هذا الشعور، أنا المؤمنة التي تذوَّقت ألوانَ الظلم بصبرٍ وإيمان، كيف تحولت شخصيتي هكذا؟ إني أفهم إيفان أكثر الآن، أحس بمشاعره، فمن ينخرط في دوامة الظلم يصبح قابلًا لأن يكون ظالمًا دون أدنى شعور بالندم. افتقدته وفكرت في العودة، لكن حتى هذه الفكرة باتت مستحيلة. رغم اني وفي ذلك السجن الضيق كنتُ أكثر تعبدا.. كنت أكثر رضا وأشد تسليما، أما الآن فأنا شخص آخر متمرد حاقد على الخلق والخالق وعلى نفسي. أفكر جديّا في الانتحار، فلم يبقَ لي شيء، ولم يبقَ ما أختبره، شربت الخمر وتعاطيت المخدرات ومارست الجنس من أجل الجنس ومن أجل المال مع كل من التقيت. أصبحت امرأة سلعة، تفاحة مقضومة كتفاحة التكنولوجيا. إنَّ الأنوثة والأمومة كما الدين والفلسفة قد أصبحت تفاحتهم مقضومة ومتآكلة وعرضة للخراب، وأصبح الكون بحاجة إلى تفاحة أخيرة كاملة تجمع كل ما فات وتحصن نفسها من التآكل.

عدت أنا وشيشو نتسكع في الشوارع لنتسوَّل، نذهب إلى مركز المشردين لنأخذ وجبة الغداء ونعود إلى الشارع.. كنت أراقب المارة، هؤلاء السيدات الأنيقات، سيدات الأعمال، الأمهات مع أطفالهنَّ، الحوامل، الحبيبات مع أحبتهن، من يتبادلون القبل والأحضان.. كنت أحسدهم وأتساءل حائرة عن ذنبي أني ولدت هناك وليس هنا في الجانب النظيف.. كنت أتساءل هل هم سعداء.. أحيانًا كنت أحقد عليهم، فكلٌّ منهم يعيش في دائرته متناسيًا ما خارجها، يشترون بالملايين ويرمون لي ما تبقى من قطع حديدية.

عرضت عليّ نقابة المتسولين أن أعمل معهم، وسوف يؤمنون لي السكن وكل ما أحتاج. هناك عصابات خطيرة تقودهم في الشوارع، وتدرس الأماكن وتوزع أفرادها في كل زاوية، المعاقون أمام الكنائس والنساء أمام الملاهي الليلية، والمسنون في الشوارع التجارية. طبعًا شيشو يعرفهم أكثر مني، ونصحني بأن أبقى حرة كي لا أصبح سلعة لهم، فربما يبيعونني إلى أحدٍ آخر يومًا ما. أكثر ما كان يثيرني، تلك العروض التي رحتُ أتلقاها من بعض الرجال مقابل مكان للاستحمام، غداء، وملابس نظيفة وبعض النقود وساعات من الذل وأحيانا من السادية.. نعم كنت أذهب معهم، وما أرحم سجن إيفان أمام ما أعانيه. كم أفتقد الكتب وتلك الجدران وكم أفتقده بكل ما فيه. أريد العودة ولكن خوفي يمنعني، ربما لن يتفهّم ما فعلت وربما قتلني. لقد أصبحت إنسانًا آخر متحررا من عقدة الخطيئة، أقبل نفسي بكل ضعفها وبكل ما فيها، ربما لن يروقه هذا.. ولكن ما أعانيه يجعلني أفكر جديا في العودة، حتى ولو قرر قتلي وسجني من جديد عندها سأشعر بالرضا لأني سأتلقى ما أستحق!

59

مـر زمـنٌ طويل ولم أسـمع عنها أيَّ خبـر، وكأنها غيمةُ صيف أنعشـت حياتي ثم تبدّدت في سـمائي الحارة. طلبت من ماغي أن تسـأل معارفها إن كان بإمـكان أحدهم أن يتقصّى أخبارها، فكانت تماطل وتراوغ. أعرف أنها لن تساعدني في العثور عليها..

- يجب أن تنساها. لقد رحلت، وأعتقد أنها لن تعود..

يدمـر هـذا الكلام مـا تبقى مني. رحـت أبعثـر أغراضها بحثـا عن دليل يكشـف لي وجهة سيرها، ولكن عبثا حاولت. وجدت أوراقـا كثيرة كتبت عليهـا رغبتها في الانتحار.. هل أخذت المسـدس معها لتنتحر في مكان ما بعيدًا عن هنا؟!.. رحت أبحث في صندوق أمي، في تلك الرسـائل التي لـم أتجـرأ حتـى الآن علـى فتحها وقراءتها. هـل تركت لي دليلا آخـر غير تلك الرسـالة؟ مـن بيـن المغلفات شـدّني عنـوانٌ غريـب: "من إيفـان إلى جده الحبيـب"، فتحت المغلف، إنها صورتي بعد الولادة مرفقة برسـالة من أمي إلى جدي باسمي..

"جدي الحبيب أنا إيفان حفيدك، أشـتاق إلى حضنك، فلماذا لـم تكن قربـي وقـرب أمـي حيـن خرجت إلـى الحيـاة؟ أمي تحبـك وكانـت تبكي غيابـك رغـم فرحها بقدومـي، يجـب أن تعـرف أنَّ زواجها مـن والدي لم

يكن بالأمر السـهل دون مباركتك، أحزنها جدًّا أن تخالف مشـيئتك، فلماذا لم تفهم ظروفها ولو قليلا، فهي إنسـان ويحق لها أن تقرر مصيرها بنفسـها. لم تحبَّ يومًا قريبك الذي كنت عازمًا على تزويجها منه.. لقد عشـت تسعة أشـهر قرب قلبها وعرفت أسـرار روحها.. حاولت أن تطيـع أوامرك ولكن رغبتهـا بأن تكون هي المالكة لحياتها جعلَتها تبتعـد، جعلَتها تختار طريقها بنفسـها. ربمـا لم يكـن قـرار زواجها بوالـدي قـرارا صائبًا، ولكنـه خيارها وهـا هي تتحمـل أعباءه.. مـن الممكن أن يكـون أبي -هذا الغريـب القادم مـن بلاد الصـرب- ليس بالرجل المناسـب بكل ما فيه من تمـرد وعنفوان، ولكن المشكلة كانت في رفضها لأسلوب الإكراه والإجبار. ربما لو تركتها يـا جدي لتحدد مصيرها بنفسـها ولـم تقيدها بخوفك عليهـا لكنت أنا الآن بيـن يديك أغفو على سـريرك وفـي حضنك، أنمـو دون أن أمتصَّ من رحم أمـي ذلك الشـعور بالظلم والقهر بين رجليـن، الأول أنجب أمي إلى الحياة والثاني امتلكها برباطٍ مقدس خانق. مشـاكلكم هذه سوف تضعف روحي، وتزرع فيّ وأنا الوليد الجديد بذور العنف والانتقام. أحبوا بعضكم كي أكبر بسـلام. سـامحها يا جدي، فهي لم تقصد جرحك بهـذا الرحيل، إنما كانت تبحث فيه عن نفسها ومصيرها الذي يجب أن تختاره بنفسها، ولـم يكن يومًا ضدك أو ضد إرادتك.

حفيدك إيفان"

أدركـت للحظات أنَّ أمي قد تنبّـأت بمصيري هذا، ولـم يكن عنفي وليد انتقام فقط، بل هو جينات الرفض والإحساس بالظلم الذي شربته من بذور والديَّ، ومن رحم أمي، ومن مشـكلتها مع والدها وزوجها.. تابعت تصفح

الرسائل، وأخرجت الصور التي كانت في داخل المغلفات.. رحت أبكي وأضحك.. إنها هدية القدر التي وصلتني على يد نوريستا. هل وجدت هده الرسائل منذ زمن، أم أنها خبّأتها لي كي تبقى أنيسي حتى تعود؟

لم تكره أمي والدها يوما، ولكنها رحلت رغم ذلك. أمي كانت أقوى من الظروف، ونوريستا أيضا، قررتا أن لا بد للإنسان من أن يصنع قدره بنفسه؛ أما أنا فلقد سلمت نفسي للموت.. ربما لأني أهوى الموت والقتل، أو ربما كما كتبت أمي بأني قد امتصصته من جدران رحمها، أو ربما كان والدي أو أحد أجدادي قاتلا، أو ربما مسحوقا تحت ظلم الآخرين، فتاريخ البوسنة مع الظلم حافلٌ ومرير، رغم تظليل التاريخ لآلامهم ومعاناتهم، كضحايا نكّل بهم الكثير من الحكام والأمم.. من المؤكد أنَّ ما أعانيه الآن هو إرثي من تلك الأجيال. شكرا للرب أني لم أرزق بأطفال، أورثهم بنفسي هذا العنف المدمر!

60

إن كان احترامُ رغباتِ الجسد انحرافًا، فلن أنكر انحرافي. ضبط النفس مطلوب ولكن صلبها وجلدها إن ضعفت فهذا هو حقًّا عمق المأساة، ولو أني تقبلت رغباتي مع إيفان واحترمتها لما كان إحساسي بالخطيئة مدمرًا هكذا، ولما تركت البيت. حبنا، الذي أحسه وأفهمه الآن، كان قدسي الروابط رغم اختلاف الأديان والعقائد، فكل القيود والطقوس الدينية بالية ومدنسة إن لم تكللها المحبة. هذه المعرفة باهظة الثمن، كلفتني أن أتقلَّب بين أحضان الرجال. الحقيقة أن إحساسي بالخطيئة لم يتبخر كليًّا، فمازالت أشعر بالعار والعري عندما تمرُّ أمامي امرأة مسلمة تضع الحجاب أو النقاب، وأشعر أمامها بفراغ أيامي، وأنا التي كنت مثال المرأة الملتزمة أواظب على الصلاة وعلى الصوم ومحاسبة الذات، وكانت روحي حرة موصولة بالله برباطٍ غير منظور.

ها هي قدمي تحملني إلى أحد المراكز الدينية في المدينة. كان قلبي متعطشًا لذلك الأمان والاحتضان. جلست أمام الباب، لكني لم أقوَ على الدخول، ورحت أراقب الوافدين والخارجين. عزمت على الدخول، ولكني عدت وبدلت رأيي.. مشيت بعيدًا وحقيبتي على ظهري، عدت إلى بيتي، تلك الزاوية تحت أحد الجسور، حيث يقيم شيشو مع أصدقائه المشردين،

فبعد أن اقترب فصل الشتاء باتت الحديقة مكانًا غير مناسب للنوم. كنت أفضل أن أمضي ليلي بالقرب منهم، فوجودهم يشعرني بالأمان. نحتسي النبيذ معا حتى نشعر بالدفء ونثمل، يسرد كل منهم قصصه وأحلامه، ونضحك ونذير سجائر الحشيش علينا إلى أن تشلَّ عقولنا، فننام ونتناسى واقعنا الغريب إلى أن تشرق شمس نهار جديد، فنغادر باكرًا قبل أن تجوب دوريات الأمن المكان. نتفرق، وكل واحدٍ منا يحمل على ظهره بيته وكل ممتلكاته. كانت رائحتنا نتنة، أيامٌ طويلة لا نجد فيها مكانًا للاستحمام، ننام في المحطات، أو نسرق غفوات قصيرة على أرصفتها، وعند تساقط الثلج وتعذُّر الانتقال سيرا على الأقدام، كنت أستقل أحيانا مع الآخرين وسائل النقل العامة دون بطاقة، فيطاردنا المراقب ويبلغ عنا رجال الشرطة، فيدب الذعر في قلبي وأهرب راكضة دون هدف الى أن أبتعد عن المكان، والحمد لله أني كنت أنجو كل مرة بمعجزة، فلو قبضوا عليَّ سيدركون أنَّ البطاقة التي أحملها لا تخصني، وسيجدون المسدس في حقيبتي، وسأسجن. لهذا كنت أفضّل السير على الأقدام.

لكوني امرأة كان وضعي أفضل قليلًا من الآخرين، فالعروض التي أتلقاها وأقبلها بترحيب، وكلما اصطحبني أحدهم لينام معي،كانت توفر لي فرصة لأستحم وأنظف نفسي وأحصل على ملابس جديدة، بالإضافة للنقود. والتي كنت أنفقها مع ما يجمعه الآخرون لشراء الأدوية لبعض أصدقائنا الذين كانوا بحاجة دائمة الى علاج.

بعد أن انتهى نهاري، عدت إلى مكان الأمس، المركز الديني، وجلست هناك قرب الباب. مر ذلك الشيخ الذي لاحظته بالأمس، وقد ذهب قلبي

معه بثوبه الأبيض، طاقيته ولحيته البيضاء.. لقد كان أثر الزهد والتقوى باديًا على هالته التي يشع منها النور. لا أعرف كيف لاحظني، مع أنَّ نظره لم يرتفع عن الأرض، كلّمني بصوتٍ رخيمٍ هادئ أذاب قلبي:

- لماذا تجلسين هنا؟ هل أنتِ بحاجة إلى مساعدة يا أختي؟

وقفت على مفرق طرق جديد.. بين أنا وأنا، فأيّ درب سأختار؟ لم أكن أعرف حقا إلى أين أسير..

61

بعد إعلان إفلاسـي وإقفال الوكالـة، عادت حياتي إلى دائرتها المغلقة: البيـت، الحانـة، والعكـس. انتابنـي حنين إلى دخول الكنيسـة.. فـي حياتنا السـابقة لـم يفتنا يومًـا أيُّ قـداس، مهما كانـت الظروف. كانـت أمي تقول "عندما تريد أن تقصد الله، عليك أن تذهب إلى بيته، رغم أنه موجود في كل مـكان" لقد مضـى زمانٌ طويل على عزوفي عـن الصلاة، رغم محبتي للـه. كان صوت الواعـظ يقتلني وهو يتكلم عن السـلام والمحبة. كم كنت أكره نوريسـتا عندما ألاحظ تحفظها وخوفها من الله واسـتغفارها من كل ما يحدث بيننا، وكأنني أنا الشـيطان الذي يدميه رؤية الصليب، مع أنني أموت فـداءً لـه. هناك على المقعد الخشـبي كنت أجلس لسـاعات، أراقب كل ما حولـي، أدخـل عمق الصمت، أتنشـق رائحـة البخور، أترك ذلك الخشـوع ليتلبّسني ويغسلني من داخلي ومن تراكمات الظلم الذي وقع عليَّ، وأوقعته بدوري على الآخرين. بدأت تنتابني رغبة في الكهنوت.. ولكن هل تغسـل العفة والتوبة آثار الدماء عن الضمائر؟

ماغـي كانـت قلقـةً عليّ كثيـرا. أخـذت تحاول منعـي من الإفـراط في التزهـد، ومـن الغرق في بحر المسـكرات مـن جديد، و أكثر مـا كان يقلقها

ذلـك النحول البادي علـيّ، فلقد فقدتُ الكثير من الوزن، ورغبتي في تناول الطعام باتت شبه معدومة.

- إيفـان يجـب أن ترافقنـي إلـى الطبيـب، حالتـك غيـر مطمئنـة، يجب أن توقف التدخين والخمر، أرجوك.. سـيعطيك بعض المقويات وستستعيد عافيتك..

جاوبتها وأنا أبتسم:

- يعني سأموت؟ تعرفين! بدأتُ أتمنى هذا، ففي كل مساء أعود إلى بلادي، وأتذكر ماضيّ يومًا بيوم، وتعود تلك العيون الخائفة التي كانت تمرّ أمامي على نقـاط التفتيش.. عيونٌ ترجونا وترتجف أمامنا من الخوف. كنا ننظر إلى البطاقات، وقبل أن ينطق المارُّ بأية كلمة ينطلق الرصاص ليستقر برأسه أو ليعبُـره. هم يقتلون أتباعنا، ونحـن نقتل أتباعهم، يغتصبون فنغتصب.. لـم نولد قتلَـة، لقد أجبرنا على هذا. في الحروب يحمل الجميع السـلاح ويتحـول الجميـع الى مجرمين.. هل تدركين بشـاعة المشـهد؟ تشـيعين الخـراب فـي الأرض، وتدركيـن أنَّ أحدا لن يسـتطيع محاسـبتك، حتى أنك تشـعرين أنَّ الله معك وهو سـعيدٌ جدًّا بمـا تفعلين، لأنك من يحميه ويحمي الأرض والديـن! أحيانًا يناديني صوتٌ صارم عميق قائلًا "إيفان اذهـب وسـلم نفسـك، يجب أن تعتـرف فالاعتـراف والعقـاب الأرضي سـيريح روحـك، أما وأنت طليق هكـذا معتقدًا أنك قد نجـوت بفعلتك، فسيجعلك هذا قابعًا في سجن ذاتك وفي قسوة عقابه إلى أن تموت"

مرت بأناملها على شعري محاولة إخفاء دموعها:

- لا تعاقب نفسك أكثر أرجوك.. فما عانيته كافٍ ليغسل كل ذنوبك تلك. عائلتك، طفلك، ونوريستا. لقد حرَّرَنا الرب بدمائه من خطايانا، ولكن علينا أولا أن نعترف بذنوبنا، وها أنت قد حاكمت نفسك بقسوة رحمك الله منها حين أخرجك من بلادك قبل نهاية الحرب. أريدك أن تتذكَّر دائمًا، نحن ننادي الله بالأب، أبانا الذي في السماء، وهل هناك أقرب من الأبناء إلى الآباء؟ ونحن أبناء الله، لقد رفض أن نكون عبيده، لكي يسقط عنا عبء العبودية، فهل ستكون هناك رحمة أكبر من رحمة الأب بأبنائه؟ تأكد يا إيفان أنَّ ذراعيه مفتوحتان دائمًا لنا كي يحضننا، يحبنا ويسامحنا!

سالت الدموع على وجنتي والتزمت الصمت، وهل هناك أقرب إلى الله ممن عصا وتاب؟.. شعرت أنني أرتمي على أثيره، أتبدد وأنساب هناك كقطراتِ ماءٍ في صحراء..

- هيا لا تعارضني، سآخذ لك موعدًا مع الطبيب، اتفقنا؟

- سأضطر إلى أن أظهر هويتي الحقيقية، وربما سيصل اسمي إلى الشرطة..

- لا تخف، فنحن نقيم في مدينة صغيرة، إنَّ البعض لم يسمع حتى الآن بما حدث في بلادك من حروب.

- كما تشائين، رغم أيماني بأنه ليس هناك طبّ على وجه الأرض يستطيع أن يشفيني من ذنوبي ومن حبي لنوريستا. إن هي سامحتني أعتقد أن الله سيسامحني، فهي من ملائكته!

62

ذلك الشيخ حبيب الله. لا أعرف كيف ولماذا حملتني أقدامي إلى (بيت النور) هذا، ولكن كل ما أعرفه أنَّ الله قد أعادني إلى أحضانه من جديد. دخلنا سويًّا، وعرّفني على زوجته التي شعرت بالأسى لحالي عندما عرفت أني مسلمة..

- (حبيبة) أرجو منكِ أن تعتني بنوريستا، ستقيم معنا في الدار في غرفة الضيوف..

- لا تقلق فهي بأيدٍ أمينة، تعالي نوريستا ستجدين في الغرفة ملابس نظيفة وصابونًا للاستحمام، وغدًا سأعطيك بعض النقود لكي تشتري لنفسك ما تحتاجين..

أشعرني هذا بالخجل ولم أدرِ ماذا أقول..

- شكرا لكم..

- لا داعي للشكر يا أختي، فهذا بيتك ونحن عائلتك. هيا أنهي حمامك، وتعالي لنتحدث قليلًا مع الشيخ حسن..

حبيبة امرأةٌ رائعة، وزوجها الشيخ (حسن) أيضا. يبدو أنهما من إحدى الدول الأوروبية المسلمة، فلقد لاحظت هذا من لغتهما.

- لو سمحتِ يا أختي أرجو أن ترمي هذه الملابس التي معكِ فهي متسخة، غدًا ستشترين أخرى وكل ما تحبين.

- أنا آسفة، فلم يكن عندي مكان لأغسلهم فيه، فأنا أنام في الشارع منذ شهور..

خنق الحزن صوتي..

- لا تهتمي، فكل ما حدث لو شئتِ سيصبح من الماضي! تعالي أريكِ الغرفة، ستبقين فيها إلى أن تتحسن ظروفكِ وتستقر أوضاعك، طبعا إذا أردتِ هذا، فنحن نريد مساعدتكِ لا أكثر..

- هذا لطف منكم أكثر مما أستحق..

- إنه واجبنا، لقد أمرنا الله بذلك، فرحمة الله تشمل الجميع وأحبُّ خلقه الخطاؤون التوابون، يا أختي لقد قادكِ الله إلينا وهو أعلم بمصلحتكِ منكِ.

بقيتُ وقتًا طويلًا تحت الماء الساخن، أغسل جسدي من القذارة ومن رائحة التشرد، أريد أن أعود إلى حضن الله. تعبتُ من هذه الحياة المتأرجحة، واشتقت إلى الإحساس بالأمان، وها هو اسمي يعود إليّ.. ها هم ينادونني نوريستا، لقد استرجعت هويتي أخيرًا. إني سعيدة بهذا.

نشّفت جسدي، وارتديتُ العباءة البيضاء التي أعطتني إياها حبيبة، وخرجت وكأنني إنسانٌ آخر..

- ما شاء الله يا نوريستا كم أنتِ جميلة! تاب الله عليك من التشتّت والتشرّد..

- شكرا لكِ يا أختي، لن أنسى لكم هذا ما حييت.

- لا عليكِ، هيا، الشيخ حسن يريد أن يتحدث إليك، إن كنتِ متعبة بإمكاننا أن نؤجّل هذا إلى الغد..

- لا طبعا، لقد اشتقت إلى سماع صوت الله والشيخ حسن خيرُ متكلم بلسانه..

- حسنا ـ ضعي هذا المنديل وسأناديه حالا

وضعت الحجاب على رأسي، وكم كانت فرحتي كبيرة. إنها فرحة العمر، إني على طريق النور من جديد. رحت أبكي دون أن أشعر، أردتُ أن أقبّل الأرض، فلقد فُتحت لي أبواب السماء من جديد..

- ما شاء الـه يا أختي، لو أنكِ ترين هالة النور التي تشع منك الآن فلن تصدقي..

قال ذلك وهو يظلل عينيه بيده كمن يواجه نور الشمس..

- لا أستحق هذا، فأنت لا تعرف شيئا عن ماضيّ..

- وما أدراك؟ إن اللـه يهدي من يشاء الهداية، وليس فقط من يشاء الله أن يهديه، وآمل أن تكوني من الأخيار الذين اختاروا درب الله سبيلًا..

- إن شاء لله..

تكلمنا ساعات وساعات عن الدين وعن الله، عن الجنة والنار، العقاب والثواب. لقد تفاجأ عندما عرف أني قد حفظت الكثير من سور القرآن،

وازداد بهجة عندما عرف أني أجيد العربية، وأني ذات اطلاع واسع على تاريخ الإسلام وكل ما يتبع هذا من أحاديث وأصاحيح..

- ما شاء الله يا أختي، تكادين أن تفوقيني علمًا وإلمامًا بكل شروط الدين..

- لقد تتلمذت على يد شيخ جليل كان يدرسنا القرآن، ووالدي كان صارمًا، لم يسمح لنا يومًا أن نتغيّب لأي عذر.

- عافاه الله وجازاه خيرًا..

- لقد توفيّ، أو بالأحرى لقد قتل في الحرب..

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وأين عائلتك الآن؟

- ماتوا جميعا، لقد دخل أحد المقاتلين إلى مخبئنا وأطلق النار علينا ولم ينجُ من العائلة سواي، وعاد ليختطفني ويحتجزني في قبو بيته خمس عشرة سنة، إلى أن فررت هاربة ووصلت إلى المدينة وبدأت قصة تشردي، وها أنا هنا الآن..

- لعنة الله عليه، يجب أن يعاقب، يجب أن تبلغي الشرطة، سيضعونه في السجن ليدفع ثمن جرائمه، فمازالت محاكم مجرمي الحرب في البوسنة مفتوحة، ومازالت أسماؤهم في سجلات الإنتربول الدولي.

كنت أعلم هذا، ولكن لم أفكر أن أشي به يومًا منذ هروبي. رغم كل ما فعله بي، فأنا أحبه ولن أستطيع أن أؤذيه. يكفيه الألم الذي سببته له برحيلي، أكاد ألمس دموعه وانكساره. ابتلعت مرار حلقي، وأجبته بإصرار غير قابل للنقاش:

- لا يا شيخ حسن، سأترك موضوع عقابه لله، فلقد قتل المسلحون أهله واغتصبوا أمه وأخته، وربما كنت أستحق فعلًا ما جرى لي بسبب تلك الجرائم المتبادلة بيننا وبينهم، وإن استمررنا هكذا فلن ينتهي الانتقام إلى الأبد!

قال بحزم وعدم رضا:

- أنتِ صاحبة الرأي الأخير، ولكن لو عرفت يومًا من يكون سوف أسلمه بيدي للعدالة، ولا تغضبي مني فكل مجرم يجب أن ينال عقابه عما ارتكبت يداه، وما فعله أهلك بهؤلاء الكفار الفاسقين كان حقًّا من حقوق الله عليهم، أنسيتِ أنَّ الجهاد ركن من أركان الإسلام؟

أظلمت كلماته زاوية كانت مضيئة في أفقي.. قلت في إصرارٍ أكثر

- لكني مصرة على أن أترك الأمر بيد الله، فهو العادل المنتقم الرحيم..

- حذارِ يا أختي أن تكوني قد وقعتِ في حبه، إنهم كفرة مشركون، ولا يجوز حتى أن نشفق عليهم أو نتعاطف معهم، فمن أحب قومًا أصبح منهم.

كلامه ذكرني بوالدي.. أنا أكره سماع هذا، وهذه المواعظ تجرح إنسانيتي. الأحب إلى قلبي "لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى"، فلقد عاشرتُ إيفان، ولولا تلك الجريمة التي حوّلته إلى مجرم، لأقسمت بأنني لم ألتقِ أحدا له نقاوة قلبه رغم قسوته المبررة. لقد كان أبًا حنونًا، وتلك الجدران التي سجنني خلفها كانت أكثر ما قرّبني إلى الله وإلى نفسي وفتح آفاقي وكسر خوفي من الآخر. كنتُ أدرك أنَّ ما يقوله ليس صحيحًا، ولكن كان عليَّ أن أسمعه وأطيعه وإلا فسيعيدني إلى الشارع..

- ما يهمني الآن يا شيخي هو أن أنقذ نفسي مما أنا فيه، إنني أشتاق إلى الله وأريد أن أرضيه، ربما غفر لي هذه المعاصي التي أغرقت نفسي فيها. أريد أن أجد عملًا وأن أعول نفسي بالحلال.

- ستتخطين كل هذه العقبات. جذوركِ طاهرة، وسوف تعودين إلى جذوركِ، عندها سترقد أرواح عائلتك بسلام في الجنة إن شاء الله، وأنت تعرفين ما الجنة؛ جعلنا الله مِن أهلها.

ودّعني وذهب، وسرتُ أنا إلى المضيفة مع حبيبة. كانت الغرفة نظيفة والفراش أيضا، أسماء الله معلقة على الجدران، وفي كل الزوايا آياتٌ وسور قرآنية. المكان بكلّ ما فيه يشعرك براحةٍ نفسية ليس بعدها راحة، وكأنك في بيتٍ من بيوت أولياء الله. مرَّ الليل سريعًا، فالفراش مريحٌ ودافئ. لقد أشبع إسمنت الشارع وبلاطُ المحطة جسدي بالرطوبة.. قطع الكرتون والملابس البالية لم تكن لتردَّ صقيع الأرض عن مفاصلي وملابسي.. لم تكن لتحميني من لسع الحشرات المتسلقة على جسدي.. لولا المسكرات التي تنسيني خوفي وتخدّرني لما تمكنتُ من النوم.

أحسست بحبيبة وهي تدخل عليّ، لتضع قربَ فراشي صينية عليها فطورٌ لذيذ. رائحة القهوة تسللت إلى أعصابي كالسحر، بعد أن ملأت المكان. تركتَها وانسحبت بهدوءٍ، فقد ظنت أني لا أزال نائمة.. ماذا؟ هل هذا حلم أم واقع؟ أخيرًا ستنصلح أموري! عسى الله أن يعينني وأتمكن من الإقلاع عن الخمر والتدخين! تناولت الفطور، وخرجت إلى الحديقة الصغيرة التي تفصل بيتهم عن المضيفة. أردت أن أشرب السجائر، ولكني

قد رميت العلبة مع ثيابي في كيس النفايات عن قصد. يجب أن أحاول، والحياة هنا ستساعدني.

بعد قليل، جاءت حبيبة مسرعةً وقالت لي بحياءٍ ولطف:

- نوريستا، نحن هنا في مركز ديني، فأرجو أن تضعي الغطاء على رأسك.. أعتذر عن الملاحظة. عندما تخرجين من هنا بإمكانكِ أن تتصرفي براحتكِ..

- آه أعتذر، أنتِ محقة، أنا آسفة، لم أعتده فقط، لهذا نسيت أن أضعه..

- لا عليكِ.. هذا سيكون بيتكِ، وبيوت الله مفتوحة للجميع، ولكن هناك بعض النقاط المهمة عليكِ مراعاتها، وأنا هنا دائمًا جاهزة للمساعدة..

إنها محقة، يجب أن أعود لالتزامي. إنها رسالة من الله. سأضع الحجاب وألتزم به، وسأشتري بهذه النقود ملابسَ شرعية تتناسب مع حياتي الجديدة، فسأقيم هنا إلى أن أجد عملًا وأجني ما أحتاجه بمجهودي، ومن المؤكد أنهم سيساعدونني.

63

لـم أقـوَ علـى إغضاب ماغـي، فهي مـن تبقى لي فـي هذه الدنيـا، ولقد أجبرني حبها لي والألم الذي يمزقني على التنازل عن تعنتي. كنت أشعر أنَّ هناك شـيئًا ما ينمو في أحشـائي كذلك الطفل الذي أنجبته نوريستا. قابليتي معدومـة، والدوار المزعج يلازمني معظم الأوقـات ويجعلني أتقيأ الى حدّ الإغمـاء. صدري أيضا كان يؤلمني بسـبب التدخين المسـتمر.. لم أكن آبه بما سـيقوله الطبيب، فكل الأمور عندي أصبحت سواء.. بعد انتظار طويل، نـادوا علـى اسـمي، فشـعرتُ أنّ كل الموجودين فـي العيادة قـد عرفوا من أكون. مشـيت مسـرعًا محاولًا الفـرار من عيونهم، وتبعتني ماغي مسـتغربةً قلقي الظاهر هذا.

- لِمَ أنتَ خائف؟ لم ينتبه أحد في الأصل لوجودك!

لـم أكتـرث بما قالـت، فهي لـم تقتـل يومًا، ولـم تجرب رهبة الشـعور بالذنب والخوف.. حتى اسمك يصبح تهمةً تحاول الفرار منها.. دخلنا إلى الغرفة رقم خمسة، عيادة الأمراض الباطنة، وبعد فحصٍ دقيق وأسئلة كثيرة أعطاني الطبيب موعدًا آخر في مختبر المستشـفى لإجراء التحاليل وفحص الرنين المغناطيسي.. كان القلق باديًا على وجهه عندما أطرق قائلًا:

- في الحقيقة لا أريد أن أستبق الأمور، سننتظر نتيجة الفحوص، وعندما تجهز سنحدد لك موعدًا جديدًا، وربما سأحوّلك إلى طبيب آخر، سيبقى هذا القرار رهنا بالنتيجة.

ماغي أصابها القلق في الصميم.. وأنا أيضًا، ولكني تمالكت نفسي، فلم أعتد على إظهار مشاعر الخوف والاستسلام أمام أيّ شيء؛ سلاحي بيدي وقلبي لم يعرف يومًا طعمَ الهزيمة والانكسار. ولكن الآن الوضع مختلف، فأنا مجرّد من الماضي ومجهولُ المستقبل، فهل سيكون الحاضر صراعًا مع الموت الذي كنت أنا حارس أبوابه، أفتحها لمن أشاء ومتى أشاء وأمنح الحياة لمن أشاء؟ هل انقلبت الآية وأصبحت حياتي أنا في أيدي الآخرين؟

ها هي الأحداث تتسارع بعكس ما توقعت.. لم يمضِ يومان على زيارتي للعيادة، حتى اتصلوا بي وحددوا لي موعدًا سريعًا مع الطبيب. دخلت إلى نفس الغرفة، وكانت ماغي برفقتي، وكان الطبيب بانتظارنا ومعه طبيبٌ آخر. جوّ من الرهبة يملأ المكان..

- أهلا إيفان، هذا الدكتور (فيلز) اختصاصي بالأمراض الباطنة وسوف يتابع حالتك معي..

- أهلا بك دكتور؛ إني أشعر بالقلق، يبدو أنَّ الأمور غير مطمئنة، أرجو أن تكون مباشرًا وصادقًا معي..

- بصراحة، ومن خلال النتائج التي بين يدينا، تبين أنَّ هناك ورمًا في المعدة. الحمد لله لا يزال في مراحله الأولى، ولكن يلزمه الكثير من العلاج من قبلنا، والكثير من الصبر والتفاؤل والالتزام من قبلك..

ارتجف جسدي وجف حلقي.. ورمٌ خبيث بذورُه الحقد وماؤه القلق وأرضه جسدي، فأمراض أجسادنا حصاد زرعنا.. ماغي أيضًا صعقت من الخبر، وحاولت أن تمتصَّ الصدمة كي تدعمني حتى لا نسقط سويا.. سألته بقلق يختبئ خلف صوتها الهادئ:

- هل العلاج فعال؟ هل بإمكاننا أن نجري جراحة ما أو أن نستأصله بالمنظار مثلا؟

- سيدتي سنحاول، سنجرب كل العلاجات الممكنة، وإن لم نفلح سنلجأ إلى الجراحة إن كانت هناك حاجة إليها.

أطرق قائلا وقد لاحظ خوفنا:

لا تقلقي، من الجيد أننا قد اكتشفنا المرض الآن. التزامه بقائمة الممنوعات والمسموحات وبالعلاج، وتفاؤله وتمسكه بالحياة سيجعله يتغلب على المرض.

نظر إليَّ وأكمل قائلًا:

- أليس كذلك سيد دافيتش؟ يجب أن نتحلى بالإيمان والإرادة.

أومأت له برأسي، لم أرغب في الكلام. كتب لي بعض الأدوية وتابع حديثه:

- يجب أن تتوقف عن التدخين والكحول وإلا فلن تفيدك هذه الأدوية بشيءٍ، بل على العكس.. سأنتظرك في الأسبوع القادم..

- إن السيجارة والكحول أصدقاء عمري، سيكون هذا صعبًا ولكني سأحاول ما بوسعي..

- لا تنسَ الموعد، فحربنا طويلة ويلزمها الكثير من المثابرة..

حربٌ جديدة، حربٌ مميتة مفروضة عليّ كتلك الحرب التي هربتُ منها قبل أن تقتلني، فهل سأموت الآن في حربٍ لا أملك فيها مقومات النصر؟

خرجنا من هناك، فأمسكت ماغي بيدي وعيناها غارقتان بالدموع. لم نتكلم وسرنا صامتين، اشترينا الدواء وعدنا إلى البيت، فجلست على المقعد وجلست بقربها، ثم وجدت نفسي كطفل غارق في حضن أمه لساعات لا يكسر الصوت رهبة الصمت. غفوت في دفء حضنها، وغفت هي أيضًا معي، وكأنَّ هذا الخبر قد أنهكنا. وكأننا نجري على ممرٍّ متحرك لا نهاية له منذ يوم ميلادنا إلى هذه الساعة.

64

كانت فرحة حبيبة كبيرة عندما شاهدت ما اشتريته من ثياب فضفاضة وأغطية رأس ملونة..

- ما شاء الله يا نوريستا. تعرفين؟ أتوّقع أن تفوقيني وتتفوّقي عليَّ بإيمانك وانضباطك. سيفرح الشيخ حسن بكِ كثيرًا..

حملتُ أغراضي ودخلتُ إلى غرفتي.. رتَّبت ما اشتريته في الخزانة الصغيرة، وأخرجت المسدس من الحقيبة ولففته بأوراق الصحف التي أحضرتها معي ثم اعدته الى مكانه، وخبأت الحقيبة خلف الملابس في علبة الحذاء الجديد على أحد الرفوف. إنها المرة الأولى التي سيبتعد فيها عن جسدي منذ أن غادرت البيت. أنا هنا بأمان، ولا أشعر بأية حاجة للحماية، السلم والسعادة يملآني.. مكانٌ نظيف، وفراشٌ نظيف، واسم الله في كل مكان.. ملابس جديدة محتشمة، حجاب وربما غدًا نقاب أيضًا.. لم يبق أمامي سوى أن أجد عملًا كي أعول نفسي، وأدفع لهؤلاء الطيبين إيجار الغرفة. إنني سعيدة جدًّا وأشكر الله على ما انا فيه.

إنها حياتكِ يا نوريستا، وستصنعينها بيديكِ. هيا اكتبي الآن ووحدك دون أن يدفعكِ شيطانكِ الذي غرَّر بكِ ورحل.. اكتبي كيف ستنتصرين على ذاتكِ، وتوقفين التدخين، وتصونين جسدك، وتحرّمين كل ما حرم الله

على يدكِ ولسانك. إنَّ أكثر الناس انحرافًا لو توفرت لهم أجواء نظيفة وحياة مستقيمة سوف يبتعدون عن الانحراف، ويفضلون الرزق القليل النظيف على الغنى المصحوب بالقذارة.

أما حبي لإيفان، فسيبقى رغمًا عني وصمة العار التي لن تمحوها السنون، إنه روحي، لا خوف النار ولا شوق الجنة سيسلبان مشاعري تجاهه. لم يستطع أحد ممن عاشرتهم أن يمحو ذكراه، رغم أنَّ الظروف تقف حائلًا بيننا، والأسوار ترتفع يومًا بعد يوم. كل ما يحصل معي قد قيّدني تمامًا بحاضري، وباتت العودة مستحيلة..

ارتديتُ ثوب الصلاة، وركعتُ بين يدي الحبيب من جديد.. سامحني يا الله، إن كان حبي له خطيئة فاغفر خطيئتي، ولكن لا تجعلني أنساه. احرسه يا الله أرجوك من أجلي!

كنت أحس بوجعه، أتألم مثله، انسابت الدموع بغزارة على وجهي حتى بللت ملابسي دون أن أشعر وأنا غارقة بابتهالاتي التي هجرتُها منذ سنين. سامحني أنا أيضًا يا الله إن كنت قد تسببت في عذابه..

دخلت حبيبة ولم أشعر بوجودها.. ربَّتت على كتفي وهي تناديني بصوتٍ منخفض:

- نوريستا يا أختي، آسفة على قطع صلاتكِ..

- آه أخذتني هذه السعادة من على الأرض إلى عالمٍ آخر..

- إني أحسدكِ، رغم كل ما مررت به مازلتِ تحافظين على علاقتك بالله..

لم أشأ أن أخبرها بأنني بعدتُ عن اللـه يومًا، وبأني قد كفرتُ بوجوده، ولكني عدت بعدها لأرتمي بحضنه، ولا أعرف إن كان قد سامحني أم لا

رحمته واسعة..

- أجل يا أختي. آه نسيت سبب قدومي، إن الشيخ حسن يريد أن يتكلم معكِ، هل تحبين أن تذهبي معي إليه؟

طبعًا بالتأكيد..

دخلنا عليه، فرّحب بنا بوجهه البسام المشرق:

يا أختي، أسرّت لي حبيبة بأخبارٍ جميلة عنك، فأن تتحجبي في هذا المجتمع الغربي الفاسق الذي نعيش فيه وأن تتحملي النظرات الحاقدة إليكِ وإلى دينك أينما ذهبتِ لهُو أمرٌ عظيم. إننا فعلًا فخوران بكِ وبوجودكِ بيننا، وإن شاء الله سيغفر الله ذنوبنا وذنوبكِ..

- أتمنى هذا يا شيخي، ولقد قررت أن أتنقب، من أجل الله سأفعل كلَّ شيء، ولو أخَّر هذا عليّ فرصة العمل، فتقرّبي لله أهم من طعامي وشرابي..

- مسكنكِ الجنة يا أختي، وأنا سأساعدكِ بما أستطيع..

صمت قليلا وراح يفكر، ثم سألني مستفسرًا:

- لقد قلتِ لي بالأمس إنكِ تجيدين اللغة العربية، هل تستطيعين أيضا القراءة والكتابة؟

- أجل، ولقد كنت أدرّس لإخوتي وأستاذي كان فخوًرا بي..

قال والسرور يملأ وجهه:

- عندي لك عرض عمل إن شاء الله سيعجبكِ..

قلت له بلهفة:

- أجـل أرجـوك.. أريد أن أعمـل وأن أجنـي النقود الحلال وأعول نفسـي بمجهـودي. لا يهـم ما نـوع العمل، في التنظيف أو الطبـخ أم في الحقول أو أي شيء..

- لا لـن تعملـي بالتنظيـف، سـتعملين كمعلّمـة، ستدرّسـين الديـن واللغة العربية. كانت عندنا معلمة وسـافرت منذ مدة، أصبح الصف شاغرًا فعاد التلاميـذ إلى بيوتهم. سـتكون فرحة الأهالي كبيرة عندمـا يعرفون أننا قد وجدنا معلمة أخرى تقيةً مثلكِ..

قفز قلبي من مكانه، إنه حلم حياتي! يا إلهي!

- أنت تسألني! بالتأكيد موافقة، إنه حلم حياتي!

تساقطت الدموع من جديد، ها هي أحلامي تتحقق واحدًا تلو الآخر في فترة وجيزة.. منزل ووظيفة وعائلة، وهداية من الله وفي حضن الله..

- لا تبكي يا أختي، إنَّ رحمته كبيرة وتشمل جميع كائناته..

- وكأنَّ ما مر من حياتي من مآسٍ قد اقتُطِع كي أبدأ من جديد حيث توقفت بـي الحياة؛ فقط بمكانٍ مختلف ووجـوه جديدة، وبين تلاميذ من المؤكد أنهم سيصبحون كإخوتي، وأنت وحبيبة ستصبحان أهلي.

- أكيـد.. وإن احتجـتِ إلـى أيـة مسـاعدة أيًّا كانـت فأرجـو أن تطلبيها منا، سأراسـل الأهالـي لكي أبلغهم بأننا قد وجدنا معلمـة جديدة، وفي ظرف

أيام سيصبح العدد كافيًا لكي تبدئي حصتك الأولى معهم. سيكون لك مرتبٌ شهري، ولن تحتاجي لأية مساعدة بعد اليوم..

- الحمد لله.

- اذهبي مع حبيبة إلى الغرفة المخصصة للدرس، يوجد هناك كل ما تحتاجينه من قرطاسية وكتب ووسائل تعليمية، وهناك أيضا حاسوب موصول بالشبكة العنكبوتية. لو أردتِ أن تحصلي على أي معلومات بالعربية سيساعدكِ كثيرا..

- هذا جيد، ولكن للأسف لا أجيد استعماله..

- ستدرّبك حبيبة. عليكِ منذ الآن أن تحضِّري الدروس، وكل ما ستعلّمينه للأطفال يجب أن تكتبيه أولًا وأن أطَّلع عليه. علينا أن نكون حرصين، فالأطفال أمانةٌ بين أيدينا، ويجب أن نوصلهم إلى الله ونبعدهم عن الكفر والكافرين.

- حاضر، سأكون جاهزة وفي الصباح سأسلمك تلخيص الدرس الأول كاملا..

ذهبت أنا وحبيبة إلى غرفة الصف. كانت جميلة مرتبة، الجلوس على الأرض، طاولات قصيرة الأرجل بإمكان الأطفال أن يكتبوا ويدرسوا عليها؛ إنها كتلك التي كانت في بيتنا. أخذت دفتر التحضير والسعادة والتحدي يملآن قلبي بالحماس. إني معلمة.. لو لم يمت ابني لكان الآن جالسًا هنا معي. لا أعرف لماذا الآن.. لم أتمنَّ هذا من قبل، فقد كنت أحمد الله أنه قد مات، ولكن الآن.. إنها الحياة التي أتمنى أن يشاركني بها (رحمَهُ الله)..

كتبت على الصفحة البيضاء: الدرس الأول "اِقرأ".. ثم رسمتُ جدولًا زمنيًّا، وقسّمتُ ساعاته: ساعة لغة عربية، نصفُ ساعة محادثة جماعية عن "أهمية ووجوب، الاستماع إلى الآخر، تحفيز دور العقل والمنطق فيما نسمع ونتعلم"، نصف ساعة قراءة وشرح من كتب الدين. حملتُ دفتري، وذهبتُ إلى الشيخ حسن وكلّي حماس. قرأ ما كتبتُ باهتمامٍ وعقَّب قائلًا:

- ممتاز يا أختي.. جيّد ما كتبتِ ليطبّق في بلدٍ إسلامي، لكننا نعيش هنا في وسط مشتّتٍ، إن لم نقل عليه ملحِد فإنه يقارب الإلحاد في سلوكه وعقائده، وما نريدهُ من الأطفال ليس الانفتاح، بل المحافظة على الدين ومبادئه، مع مراعاة المحيط الذي نعيش فيه وتجنبه، ومحاولة استقطاب أكبر عدد ممكن من المشكّكين والملحدين إلى دين الله.

- لكن كما تعلم، الدين ليس بالترغيب ولا الترهيب، الدين إيمان وروحٌ يجب أن تنبع من داخلنا، وإلّا فسيكون حديثَ لسان بعيدًا عن القلب وعشقه له.

- أنتِ محقّة. لكن في هذه المدرسة يجب أن نراعي تلك النقاط التي كلّمتكِ عنها. ستُعطي نصفَ ساعة لغة عربية، عشرين دقيقة دين، والمدّة المتبقّية ستكون للوعظ والإرشاد..

كنت ألاحظ وجهه في قلق، وشيء ما يؤرق فرحتي. أعطاني دفترًا كان يحمله بيده قائلا:

- في دفترِ التحضير هذا الكثير من الدروس والمواعظ، أرجو أن تقرئيها جيدًا، وإن رغبت في تحضير شيءٍ من هذا القبيل ويلتزم بهذا النهج ليس

هنـاك أي مانع، لكن دعيني أطّلع عليهِ مُسـبّقًا. أوليـاء الأمور هنا يراقبون عـن كثب أطفالهم وما نلقّنهـم إياه. هم يرسـلونهم إلينـا لهذا الهدف، ولا نريد أن ندخل معهم بمتاهاتٍ نحنُ بغنى عنها.

- أنتَ محقّ، سأعيدُ ترتيب مخططي، سأقرأ ما كُتِبَ وأبني عليه ما سأعلّمه للتلاميذ.

إنـه فعـلًا محقّ، فنحن في مدرسـة دينية فـي بلاد الغرب، يجـب أن ننبّه أولادنـا أولًا إلى مخاطـر الحياة ونهديهم إلى الصراط المسـتقيم.. نعلّمهم الدين، قبل أن نعلّمهم المنطق واستعمال العقل في فهمِهِ.

65

بدأتُ علاجي الأسبوعيّ في المستشفى. كم كنتُ أكرهُ ذلك المكان، فمنذ قدومي إلى هذا البلد وأنا أتجنب الانخراط في المجتمع ومخالطة الناس، ولم أحبّذ أبدًا فكرةَ الظهور في الأماكن العامة التي يؤُمُّها الكثير من الزوار؛ ولكني مجبر الآن. عندما كنت أسمع اسمي وهم ينادون عليّ، أجدني مرتعدًا خائفًا أتلفَّت مراقبًا وجوهَ الحاضرين، متمنيًا لو أستطيع أن أسدَّ آذانهم، أو أن أطلق عليهم النار كي لا يعرفوا من أكون. بعدَ ساعاتٍ من الانتظار والعلاج كنتُ أعود إلى البيت مستنزَفَ القوى، فأدخلُ غرفتي وأنام كما الأموات. لقد أعطيتُ مفتاح البيت إلى ماغي، فكانت تأتي يوميًا لتحضر لي الطعام وترتّب الغرفة وتعتني بكل تفاصيل حياتي، حتى الصغيرة منها، ولولا هذه المحبة والرعاية التي أرسلها الله إليّ لكنتُ الآن في عداد الأموات!.. ربّما هي ساقطة، وما همّني من ذلك، إنها حياتها الخاصة وجسدها هي، وما سيُدينُها الله عليه هو سلوكها مع الآخرين، فهناك الكثير من بائعات الهوى لهن قلوبُ الملائكة، والكثير من رجال الدين لهم أفئدة الشياطين!.. سقط مفهوم الخطيئة، الزنا، والطهارة، من مقاييس إيماني، وبات لكلٍّ مقامٍ مقال، ولكلِ حالةٍ ظروفها الخاصّة.

أيقظني صوتها من شرودي ومن زحمة الحانة:

- هل تناولتَ غداءكَ قبل أن تأتي إلى هنا؟

- أجل، وشربتُ العصير أيضًا.

- دونَ كحول؟

- إنني مدمن ماغي! لا أستطيعُ أن أقلع عن هذا السم الذي يخدر جسدي بين ليلةٍ وضحاها.. أريد أن أشرب بعض الخمر! لن أستطيع الاستمرار هكذا!

- أرجوك لا تنسَ ما قالهُ الطبيب وإلّا فستموت.

- إني أموت شوقًا لنوريستا، وهذه الخمر تجعلني أنساها وأنسى ما فعلتهُ بي وكيف خانت حبّي وثقتي بها.

- لا ينمو الحبُّ في الظلامِ والخوف، عليكَ أن تدرك هذا.

صحيح، لكن لم يكُن ما حدث بإرادتي. هي تدرِكُ جيّدًا أني أحبّها.

بعد ساعاتٍ من مراقبة الحياة وهي تعبر على كؤوس المتعبين اللّاهين، كنتُ أعودُ إلى البيتِ وأمضي معظم أمسياتي في المخزن مع ذكراها، أنامُ على فراشها، أحتضِن ثيابها حينًا وثيابَ طفلي أحيانًا أخرى. كلُّ ما حدث قد أيقظَ إنسانيتي وسرَّع عقابي على الأرض قبل رحيلي وموتي.. كنتُ أعتقد هذا إلى أن حلّت الكارثة التي أنبأني بها قلبي منذ حين، منذُ أن دخلتُ إلى تلك المستشفى.. قال الطبيب مطمئنا:

- جيّد يا إيفان، أعتقد أننا نسيرُ في الطريق الصحيح، إنني فخورٌ بكَ حقًّا، لولا التزامك وتجاوبك مع العلاج لما وصلنا إلى هذه النتيجة.

اسعدني ما سمعت كثيرًا..

- شكرًا لك دكتور، وشكرًا للربّ.

- ولكن هناك موضوع خطير يجب أن أعلمكَ به وأحذركَ منه. لقد أعلمني أحدُ الممرضين بأنه قد قرأ اسمك على لائحة المطلوبين للمحاكمة بجرائم الإبادة الجماعية في حرب البوسنة. لم أصدّق هذا إلى أن تأكّدتُ بنفسي من خلال النشرات الموجودة على الإنترنت. إيفان، قلْ لي بصراحة، هل أنت هو نفس الشخص المُشار إليه؟ هل أنتَ هو فعلًا إيفان دافيتش الفارّ من العدالة؟

تجمَّد الدم في عروقي، شعرتُ أنَّ ذلك السرطان الذي في أحشائي يلتهمني وينهشني.. لم أعرف بماذا أجيب، فهذه هي الحقيقة التي لم أجرؤ يومًا على الاعتراف بها حتى أمام مرآتي؛ فقط لماغي ونوريستا اللتين تشكّلان قطعةً من روحي.. استجمعت شجاعتي وأطلقت تلك الرصاصة الأخيرة على نفسي..

- نعم أنا هو، لكن لماذا يحاكموننا؟ فنحنُ أيضًا كنّا ضحايا لظلم عمرُه آلاف السنين.. كانت الحربُ طاحنةً، ومن لا يقوى على حمل السِّلاح يموت. لقد قتل منّا الكثير، اغتصبت نساؤنا ويُتِّمت أطفالُنا ايضا، كما أني تركتُ البلد قبل نهاية الحرب، وأقمت هنا في بيت جدي، فجذوري من هذه الأرض.

- أعرف هذا وأنا متعاطف معك. لكنّي قلق على مصيرك ولا أستطيع حمايتك. حاول أن تنتقل إلى مكان آخر إن استطعت، وخذ علاجك في

عيـادة خاصة إن كُنتَ تملـك الإمكانيات الماديّة، وربّمـا من الأفضل أن تغيّر اسـمك بطريقة ما في بلادك. أنت مطلوب للعدالة، وهناك معاهدات دولية لتسـليم مجرمـي الحرب أينما كانـوا. لقد مَنعـتُ الممرض بحُكم مركـزي الوظيفيّ وبسـبب ظروفك الإنسـانية من أن يبلـغ عنك، لكني لا أضمن سكوته. أنت تعرف أنَّ هناك الكثير من اللاجئين البوسنيين في كل مكان، ورغم معاهدة السلام لا يزالون حاقدين عليكم، والإعلام الدوليّ يحفز هذا الحقد ويرعاه.

هذا يعني أنه من الممكن أن يبلّغ عنّي وأن يُلقوا القبض عليّ ويسـلّموني إلى المحاكمة؟

- ليس فقط هنا، بل في كل مكان. لا أريد إخافتك، لكنّها الحقيقة.

خرجتُ من هناك مدمَّرًا حتى الموت، ألتفتُ ورائي وحولي، ربّما هناك أحـدٌ ما يراقبني ويرصـد تحرّكاتي.. ماذا أفعل؟ أين أذهب؟ وإلى من أتكلم وأنا وحيدٌ ومريضٌ، غريبٌ ومنبوذ؟

66

لـم أكُـن راضيةً عـن دروس الوعـظ المحضـرة والتـي كتَبَتهـا المعلِّمة السـابقة، ولكن كان عليَّ أن أغضّ الطرف. بعد الحياة النظيفة التي حصلتُ عليهـا، والراتب الشـهريّ الخياليّ الذي سـوف أتقاضاه، بـاتَ من الصعب أن أنطلـق بحرّيـة لأزرعَ ما أؤمنُ به في نفوس تلاميذي. مـا كانَ يُعزّيني هي تلك السعادة التي منحني إياها هؤلاء الأطفال، الذين أتوا من أعراق وألوان ومجتمعـات مختلفـة. كنـتُ أفـرحُ كثيـرًا عندمـا يتحلّقون حولـي بعيونهم المفتوحـة وكلّهـم لهفـة ليسـمعوا ما أقـول. الأطفـال كالحقول، مـا نزرعه سـنحصده، أمـا الحقد فثماره حـروبٌ وإرهابٌ لا نهايةَ لهمـا. كنتُ أحاول أن أُمسِـك العصا من الوسـط، ألا أكـون متطرّفة أو علمانية.. ببسـاطةٍ كنتُ أحاول أن أكون مسلمةً، بكلِّ ما يحمله الإسلام من قِيم ورُقيٍّ وخير، فبرغم إيماني الشـديد كنتُ أشدَّ بُعدًا عن التطرّف ومحاكمة الآخر أو أن أُنكِر حقَّهُ في رحمة الله.

لقـد قـدم العديد مـن التلاميذ الجدد. وبعـد أن كانت الـدروس مرّة في الأسـبوع، ازدادت لتصبـحَ شـبهَ يوميـة. هـذا ما أثـار حماسـي للبحث عن معلوماتٍ وأسـاليب أخرى عصريّة لتزويد هؤلاء التلاميذ بالعلم والمعرفة، فـكان ولابـد من الدخول إلى عالم التكنولوجيا. هكـذا قالت لي حبيبة التي

درَّبتني على استعمال الحاسوب.. داومتُ معها على العمل عليه لعدّةِ مرات، وشرحَت لي كل ما أحتاج، ولم يكُن هذا صعبًا، فحاجتي له محدودة لا تتجاوز البحث والطباعة، القراءة ومشاهدة الأفلام التعليمية والأخبار.

- ما شاء الله يا نوريستا، إنك تتقدمين في كلّ شيء وبشكلٍ رائع.. يتزاحم التلاميذ على دروسكِ.. والأهل راضون جدًّا.. وكما أخبرك الشيخ حسن، ففي المدينة الكثير من الوافدين الذين يرفضون فكرة الاندماج رغم هجرتهم إلى هنا منذ سنين طلبًا للرزق والحماية، إلا أنهّم يفضلون أن يفصلوا أولادهم عن هذا المجتمع الفاسد، ووجود مدارس دينية يساعدهم على ربط هذا الجيل المولود هنا بجذوره ودينه وعلى توثيق علاقته بالله.

- أنا سعيدة أيضًا بهذه النتيجة.

- إنَّ ما يحصل لإخواننا في العالم لهُوَ مِحنة حقًّا، الآلاف من شبابنا يموتون كلَّ يوم دفاعًا عن الدين وعن اسم الله..

- ومن يشنُّ الحرب علينا؟

- إنهم أعداء الله، ولقد هبَّ إخوانُنا من كلّ الدنيا لمساندة هؤلاءِ المستضعفين، وهم الآن يحاولون أن يبنوا دولة الخلافة.

هزَّني ما سمعت..

- ولكن هل تعتقدين أنَّ العودة إلى عصور الخلافة ستجدي نفعًا وستفيد الأمّة؟ أم أنها ستضفي عليها صِبغة التخلف والرجعية؟

- لا يا أختي، لا تقولي هذا! حُكم الخلافة صالحٌ لكل زمانٍ ومكان.

أدركت إخفاقي في مناقشتها، فحاولتُ أن أُنهي الموضوع كي لا أتورَّط بأي رأيٍ حرّ، لا يرضيها..

- هذا مؤسف.. ألم نكتفِ بعد؟ لم لا نأخذُ العِبَرَ من حروب الآخرين؟ لِمَ لا نُفكّر مَليًّا قبل خوض حروب جديدة؟!

- لن تنتهي اللعبة يا أختي مادام هناك شيطانٌ وحاكمٌ ظالم، وما يحدث في بلاد المسلمين حقا جريمة.

- أحاول يا حبيبة أن أبقى بعيدة، ما تتحدثين عنه يفوق قدرتي على التحمل، وأجدني أتجنَّب أن أُبدي أيَّ اهتمام به.

- لا يا أختي، يجب أن تسمعي وتشاهدي. لا نستطيع أن نغمِض أعيننا والأبرياء يموتون! لا لا يجب أن نهرب وأن نقول إنَّ الأمر لا يعنينا، فغدًا ستصل النار إلى كلّ مكان.

لم أرغب في مشاهدة ذلك الفيلم الذي فتحته من الملف. كان مريعًا، أشلاءٌ وقطع رؤوس واغتصاب.. فيلم آخر فيه بيعُ وسَبْي النساء والقاصرات.. وآخر وآخر.. كاد أن يُغمى عليّ، رحتُ أبكي بمرارة، الصور التي في ذاكرتي ليست بعيدةً عمّا أرى.. ؟ ولماذا يقتلون المسلمين؟ وإلى متى سنحتمل هذا الظلم وتلك الإبادة؟ أين هي دول العالم وأين هي جمعيّاتُ حقوقِ الإنسان؟ أخفيت رأسي بين يدي وخاطبتها راجية:

- أرجوك يا حبيبة! لا أستطيع أن أشاهد المزيد، أنا أيضًا ضحيّة من ضحايا الحرب!

- آسفة، لم أقصد إثارة مشاعركِ، لكن يجب أن تعرفي ماذا يحاك حولنا من مؤامرات..

- لقد أخبرني بعض الأطفال اللاجئين القادمين من هناك عن تلك المآسي التي تعصف بهم، وكيف واجهوا الموتَ حتى وصلوا إلى هنا، وأخبروني أيضًا كيف استقبلوهم وتلك العناية التي أحاطوهم بها رغم كونهم من مجتمع اخر..

أربَكها الكلام، فقالت محاولةً جذب انتباهي نحو منحى آخر من الموضوع:

- أجل، لكن هذا لا ينفي أنهم أعداءُ الله. ما نرجوه أن يُكتَبَ لنا النصر، فكلُّنا مقاتلون، كلٌّ على جبهتِهِ وفي مجاله.

- قولي لي يا أختي حبيبة، كيفَ لي أن أساعِد؟

- إنكِ تقومين بالواجب و أكثر، لكن إن رغبتِ فبإمكانكِ أن تتواصلي مع المجاهدين. هناكَ الكثير ممن يتكلمون لغتكِ، وهناك الكثير ممن يرغبون في تعلم اللغة العربية. بإمكانك أن تنظّمي لهم دروسًا في اللغة عبر مواقع التواصل الاجتماعيّ، فهذا أيضًا دعمٌ وجهادٌ فرضَهُ الله علينا.

- طبعًا، هذا يسعدني، لعَلّي أُعزّي نفسي وضحايا بلادي الذين لم أستطع أن أقدّمَ لهم أي معونة أو عزاء.

- حسنًا، سأدخِلُكِ إلى الموقع..

كتَبَت كلمة المرور في إحدى الخانات، ثم ظهَرت قائمة طويلة من الأسماء الغريبة، وكأننا قد فتحنا ملفًا تاريخيًا من عصرٍ مضت عليه مئات ومئات من السنين..

- انظري يا أختي، كلُّ هؤلاء المقاتلين يحاربون من أجلنا، من أجل الله.

ضغَطَت على أحدِ الأزرار، فظهرَ شابٌّ وسيم ذو لحية طويلة كثيفة، يلفُّ حول رأسه عصابة سوداء..

- السلامُ عليكَ يا أخي سيف.

- وعليكِ السلام يا أخت حبيبة..

- معي الأخت المجاهدة نور، وهي تتقن العربية وتدرّسها هنا في المركز..

- أهلًا بكِ يا أختي.

أهلًا بكَ يا أخي سيف.

- ما شاء الله تتكلمين العربية بطلاقة.

- أجل، لقد تلقيتُ دروس الدين منذ طفولتي..

- حماكِ الله وجزاكِ خيرًا على نشركِ رسالة الإيمان..

علا صوتُ إطلاق نار كثيف سمعناه عبر الجهاز..

- عليَّ الذهاب الآن، سأكلّمكم في المساء إن بقيتُ حيًّا ولم أستشهد..

- في رعاية الله، أنا ونوريستا سندعو لك..

أقفلَ وذهَب، وغرقتُ أنا في قلقٍ مميتٍ عليهِ وعلى كلّ من هناك. هل سيعود؟ هل سيموت؟ احرسهُ يا الله. سوفَ أنتظرُ عودتَه بفارغ الصبر، سأحاول أن أساعدهم بأية وسيلة..

67

هرعتُ مُسرعًا إلى ماغي كي أخبرها بما حدث. سوف يبلّغون عني، وسأقضي ما تبقى من عمري في السجن..

- ماغي أرجوكِ، إني بحاجةٍ إليكِ.

- ماذا حدث؟ اِلتقِط أنفاسك وأخبرني..

- قال الطبيب إنَّ أحد الممرّضين قد تعرّف على اسمي وأرادَ أن يُبلغ الشرطة، لولا تدخل الطبيب، وهو يرى أنهُ من الأفضل أن أبتعد وأن أبحث عن مستشفى آخر أو أن آخذ علاجي في عيادة خاصة. ماذا سأفعل الآن؟ حتى وإن بقيتُ حبيسَ هذا البيت، فلربما يأتون ويعتقلونني من هناك، لقد كُتِبَ عليَّ أن أموت من الألم والخوف..

بدا القلق ظاهرًا على ملامحها:

- لا عليك، سنجِدُ حلًّا سريعًا، سأبحثُ لكَ عن طبيبٍ خاص، لن تَعُود إلى تلك المستشفى.

- المشكلة ليست في المستشفى، المشكلة أنَّ شخصيتي باتت معروفة ومكاني أيضا، حتى وإن لم أذهب إلى هناك، فحياتي ستبقى بيَدِ ذلك الممرض وربّما الطبيب أيضًا، سأرحل من هنا، سأذهب إلى المدينة..

بـدا الامتعَاضُ علـى وجهها، وظهرَ قلـقٌ وحزنٌ غريبٌ فـي عينيها رغم محاولتها إخفاءه..

- كيـفَ ستتركُ بيتك هنا؟ أين ستسكُن؟ من سيعتني بـك؟ لا، لن أدعك تذهب، ستبقى هنا وسأعتني بك إلى أن تُشفى.

- لقد حزمتُ أمري، فإن بقيتُ هنا سأموت من القلق والخوف، وإن قبضَت الشرطة عليّ فلن تستطيعي أن تحميني وسأكمل ما تبقى من عمري في السجن. اسمعيني ماغي، لو حدث هذا فستموتين قَبلي ألف مرّة معذبة الضمير..

أمسكتُ يديها وقبّلتُهما بحرارة..

- دعيني أذهب، لا تخافي عليّ، قلبي سيبقى معكِ، أنتِ من تبقّى لي في هذه الدنيا، أرجوكِ باركي رحيلي، وإن لم تفعلي ستتحمَّلين عبء قراركِ، سأسجِنُ نفسي ولن أخرج من غرفتي ولن آخذَ علاجي، سأموت هنا بصَمْت!

- لا لا أريدكَ أن تموت.. ولن أحتملَ عذابكَ وعذابَ ضميري إن حصلَ لكَ مكروه..

مسَحَت دموعها وشدَّت من عزيمتها قائلةً:

- حسنًا اِذهب، فليباركك الله وليرافق خطواتك، سوفَ أُرتِّب لكَ حقيبتكَ وأضعُ لكَ نتائج المختبر وتقارير الأطباء أيضًا فيها..

- لستُ بحاجةٍ لهذه الأوراق..

قالت بحزم:

- اِسمع، إن لم تَعِدني أن تتابع علاجكَ سأبلّغ الشرطة عنك!

- حسنًا، أعدُكِ، لا تخافي، سوفَ أتصّلُ بكِ يوميًّا وأنقل لكِ كلّ أخباري سأتابع علاجي عند أهم أطباء المدينة، سيكون عندي بيتٌ ولن ينقصني شيء، سأُشفى وأعود إلى هنا قريبًا..

- عِدني ألا تشربَ الخمر والسجائر!

- أعدكِ يا ملاكي الحارس، أعدكِ بأن أعيش من أجلك.

سألتني بحذر..

- حتى وإن التقيتَ نوريستا؟

فاجأني سؤالها! فعلًا لم أعرف ماذا سأفعل لو حدث هذا.. ربّما سأقتلها، وربّما سأرتمي في حضنها و أبكي..

- لا أعرف، الأولويّة الآن هي حماية نفسي من السجن، علاجي ومستقبلي المجهول، سأجمع شتاتي وأعود إلى هنا.

أشعر أنَّ كلماتي لم تقنعها، لأني أنا نفسي لم أكُن مقتنعًا بما قلت، فنوريستا هي الأهمّ، والمكان هنا باتَ يخنقني، وأشعر بأني إن رحلت فلن أعود ثانيةً.

يا إلهي ما هذا التغيير الذي حل بي؟ وكأني أعود أدراجي إلى طفولتي، وكأني أعيش تلكَ المرحلة بين الألم والجريمة حين بقيتُ وحيدًا في منزلِ عائلتي بعد أن واريتهم التراب، وتلك اللحظات الخانقة عندما حزمتُ أمري وقررتُ أن ألتحق بالمقاتلين. اليوم وكأنَّ الحياة تعيدني إلى نفس الرحم لأولد من جديد!

68

كنتُ قلقةً على ذاك الشاب، فبقيت جالسةً أنتظر أن يفتح جهازه بفارغ الصبر لكي أطمئن عليه. مرّ الليلُ ولم يظهر له أثر.. تجوّلتُ في صفحاتِ الأخبار، فلم أرَ سوى تلك الصورة التي تركتُها ورائي منذ ثمانية عشر عامًا، قتلٌ وعنفٌ ودمارٌ، أجسادٌ مقطّعة ومخيّماتُ نازحين في كل مكان، يفترشون العراء ويلتحفون السماء..

أجبرني حزني ونعاسي ومسؤوليتي تجاه تلاميذي على الخلود إلى النوم.. قرّرتُ أن لا أشاهد المزيد، أنا بحاجةٍ إلى الهدوء والاستقرار العاطفيّ كي أتمكّنَ من زرع المحبة في قلوبهم. يجب أن أعمل على هذا رغم التزامي بما طُلِبَ مني، ولأنَّ المحبة كلمةٌ تدخل القلوب وتُحسِّن السلوك، وهذا صلبُ وجوهرُ مهنتي.

مرَّ النهارُ وصورةُ ذاك الشاب لا تزال تطاردُ مخيّلتي. كيفَ ينتظر الموت بهذا البرود؟ كيف يقتلع من داخله حبَّ الحياة؟ هل هذا من قوّة إيمانه بقضيته، أم هو يائسٌ من الحياة؟ ربّما قد فقَدَ أهله في تلك الحرب كإيفان؟ عندما أنهيتُ عملي عدتُ سريعًا إلى تلك الصفحة أترقّبُ عودة سيف. تركتُ له رسالةً، وبينما انصرفت إلى تحضير برنامج الغد ظهرَت صورتُه من جديدٍ على الشاشة.

- السلامُ عليكِ يا أختي.

قلت له بلهفة وسعادة لم أستطع إخفاءها:

- أخ سيف.. كنتُ قلقةً عليك!!

- لماذا، ألستِ مؤمنة؟ الموتُ حقّ، وخاصّة من أجل إقامة الجهاد في سبيل الله.

- طبعًا أنا مؤمنة، لكني أعيش في بلاد السلام، وكل ما يدور خارجَ إطار حياتنا اليومية هو عالمٌ آخر تحاول حكومتنا أن تُبعِدُنا عنه، فهنا مثلًا لا نتابع مآسي العالم بتفاصيلها، نشراتُ الأخبار مقتضبة ومختصرة على العناوين، ويومياتنا مليئة بالعمل على تطوير الذات.

- إنها حياةٌ فارغة، بعيدةٌ عن الله. الله الذي خلقنا لكي نفرض على العالمين مخافته ونعلمهم فروض الخوف من عقابه.

- وهل تعتقد أنَّ الحربَ والقتل يقرّبان الإنسان من خالِقه؟

- طبعًا، مادام موتًا من أجله..

- لكن يا أخي كما قرأتُ وكما أعلم فإنَّ الهدايَةَ لا تكون بالإجبار، والله من خلقَ هذا التنوّع، ولو أرادَ لجعلَ الجميع على قلبِ امرئٍ واحد..

- كيف هذا؟ لقد فتح إسلامُنا العالم وفرِض الدين بالسيف، انظري إلى أين وصلنا؟ لقد غزونا العالم!

- لكن الزّمانَ تغيَّر، في ذلك الوقت لم تكن هناك سبلٌ للهداية، وكانت المجتمعات غارقةً في الجهل وكانوا بحاجةٍ للدين وللتبشير، أما الآن

فهناك معادلاتٌ أخرى تحكمُ العالم! بإمكاننا عبرَ آلافِ الأساليب نشر الإسلام والسلام والمحبة دونِ عنف وقتلٍ ودماء، على العكس إنكم وبهذه الطريقة تحرّضون الناس وتحقنونهم ضدَّ الدين وتقودونهم إلى الإلحاد بدلا من أن تستخدموا هذا التقدم لخدمة رسالتكم.. أعتقدُ يا أخي أننا بحاجةٍ إلى إعادةِ نظرٍ فيما فات والتقدم بأسلوبٍ يتماشى مع لغة هذا العصر لكي نحميكم من الموت!

قال مستفسرًا والدهشة تأكل ملامحَ وجهه:

- مَن أنتِ، ومِن أينَ أتيتِ، وماذا تفعلين في هذا المركز؟ وهل سمعَ الشيخ حسن آراءكِ هذه؟ لقد قالت لي حبيبة بأنكِ معلّمة، كيف تدرّسين الأطفال بهذه العقلية؟ هداكِ الله يا أختي، الدين سيبقى كما هو، وسوف نقاتل ونُقتل كي نفرِضَه كما هو على من لا يقبلُه، ومن يعترِض سوف لا يكون أمامه إلا الموت!

استدركتُ الموضوع متذكرةً كلام الشيخ حسن، يجب أن أحذر، أفكاري المتنوّرة وديني الحبيب ليس لهما مكان هنا:

- ربّما أنتَ محقّ..

- أجل محقّ،، تعرفين أنَّ ستّين في المئة من المقاتلين هنا هم أوروبيون من بلاد الكفّار؟ يقدّسون الرسالة رغمَ أنهم لا يدركون اللغة ولا يفقهون شيئًا من الدين أكثرَ ممّا تلاهُ عليهم بعض المرشدين. هذا هو الإيمان الحقيقي وهكذا يريدنا الله. لا تنسيْ أنَّ علينا أن ننصر إخواننا ظالمين كانوا أم مظلومين!

كـدتُ أن أصـرخ من الغيظ، كيف هذا؟ لم يكُن الله يومًا مناصرًا للظالم على المظلوم! ما هذا؟ إلى أين يأخذونَ الدين؟ ولكن سـؤاله التالي أعادني إلى واقعي..

- هل أنتِ متزوجة؟

- لا لم أتزوج بعد..

- لماذا لا تأتين إلى هنا؟ سـتجدين لنفسـكِ زوجًا مؤمنًا تؤسسان معًا عائلة وتعيشـان على ما سَـنَّهُ الله بعيدًا عن الحرام.. صوتكِ يوحي أنكِ جميلة، هل أنتِ جميلة؟

قالها وهو يبتسـمُ فتحوَّلت ملامحه الميّتة إلى روحٍ حيَّة، إنه حقًّا وسيمٌ، لولا تعصبّه الذي يذكّرني بإيفان..

- لا أفكّر في السفر، خاصّةً أنَّ في بلادكم يقيمُ الموت والحرب والعنف..

- إنَّ الأمور ليسـت سـيّئة كما تعتقدين، إننا نعيشُ هنا بحريّة عكسَ حياتكم أنتم..

أنتَ محقّ، حياتنا هنا تحت المجهر وكلُّ تحركاتنا محسوبة علينا.

- هل تتزوَّجينني؟

صعقني السؤال، لم أستطع أن أجيب.. انه حقا مجنون.

- سأرسِـلُ لكِ النقود وتسـافرين إليّ وسأحميكِ وسـننجِبُ أطفالًا في بيتنا الجميل، نعلّمهم معًا حُبَّ الله والإيمان!

- ليس بمقدوري أن أترك هنا، فالمدرسة مسؤوليتي..

- سيتدبّرون أمرهم، سأفتح لكِ مدرسة. الأولاد هنا لا يذهبون إلى المدارس وهُم أحقّ بمجهودكِ..

هزّني هذا الكلام بعمق أعماقي.. إنهُ محقّ، فالأطفال هنا مرفهون، وربّما أستطيع أن أخدم الله والطفولة في مكان آخر، وأن أنقذ جيلًا بأكمله من الجهل..

- إنهُ الجهادُ الحقيقي، هكذا يجاهد كل منا بطريقتِهِ وبما يستطيع..

- أنتَ محقّ..

- هل من المُمكن أن تفتحي الكاميرا قليلًا؟ يحقُّ للزوج أن يرى زوجته قبل الزواج، إنها رؤيةٌ شرعية..

فاجأني طلبُه ولم أعرف ماذا أفعل.. هل هذا حلالٌ أم حرام؟ مضحكٌ ما يحدث، فمنذُ أشهرٍ كنتُ أضاجِعُ عابري السبيل، واليوم عندما يعرضُ عليَّ أحدٌ ما الزواج أقف متردّدةً وأفكّر قبل أن أكشفَ وجهي له.. إنهُ وسيم والفكرة تروقني، ربّما سأسافر ونتزوج، لِمَ لا؟

- العديدُ من الفتيات تركنَ بلادهنَّ وأتينَ إلى هنا، وها هنَّ يحيينَ حياةً سعيدةً مع أزواجهنَّ، وبعضهنَّ قد أنجبنَ، وبعضهن ينتظرن موعدَ الولادة بفرح. إنَّ حياتكم فارغة، هنا بإمكانكِ أن تساعدي المرضىَ والمصابين والجرحى، بإمكانكِ أن تحضري الطعام للفقراءِ والمجاهدين.. إنه الجهاد المحبّب عند الله عندما نضحّي بأرواحنا وبتعبنا ووقتنا لكلّ محتاجٍ وضعيف..

- أنتَ محقّ، حياتنا هنا فارغة حقًّا، الناسُ مرفهون ولكنهم يموتون من الوحدة، كلٌّ يُقفل بابَه عليه، لا يعرف، ولا يريد أن يعرف أيَّ شيءٍ عن الآخر..

- هيّا افتحي الكاميرا..

ضغطتُ على أحد الأزرار.. وكان له ما أراد:

- ما شاء الله، إنكِ رائعةُ الجمال، سبحان الله!

أحرجني جدا بجرأته هذه وأربك مشاعري:

- حسنًا، الآن يجب أن أقفل لأنَّ هذا لا يجوز..

- أرجوكِ لا، لا تقفلي، إني أموتُ بغرامكِ، أتؤمِنينَ بالحبّ من النظرة الأولى؟ هذا ما حدثَ معي!

شخصيته الثائرة أثارت روحَ المرأةِ النائمة في داخلي. لم أسمع هذا الكلام طوالَ حياتي ولم يُغرم بي أحدٌ من قبل، طبعًا باستثناء إيفان، لكنّي لم أبقَ معه لكي أستمتعَ بحبه، فعندما قرّرَ عشقي تركتُه ورحلت..

- عيناكِ ساحرتان، هل نور هو اسمكِ الحقيقي؟

- اسمي نوريستا..

- الله، اسمكِ أيضًا جميل يا أجمل نساء الأرض!

- يجب أن أذهب..

- لا أرجوكِ، أريد أن أتحسّس بشرتكِ، أن ألمسَ شفتيكِ رغمَ البعد، اقتربي منّي أرجوكِ، لا تخجلي فسأصبحُ زوجكِ إن قبلتِ!

لقد قلبَ كياني هذا المجنون المقاتل، وحرَّكَ غرائزي، إنهُ فعلًا ثائر بكل ما للكلمة من معنى..

- كيف تعيشـين وحيدة؟ جسـدكِ بحاجةٍ لهذه العلاقـات، لو جرّبتِ متعتها فسوفَ تندمين على كلّ ما فاتَ من عمركِ وأنتِ وحيدة!

- عليَّ أن أرحل..

- سأصبح زوجكِ، حلالكِ، سنمارس الحبَّ معًا، إن أردتِ ممكن أن نعقدَ قراننا الآن، هل توافقين؟ سـأنادي على الشيخ والشهود ونكمل ليلتنا معًا هنا إلى أن نلتقي..

- لا أرجوك، أريد أن أفكّر في الموضوع وأن أرتّبَ أموري قبل أن أجيب.

- حسنًا، لكِ ما تريدين. سأتركُكِ الآن كي تفكّري، وغدًا مساءً سآخذ منكِ الردّ.

أقفلَ وذهبَ وتركني وحيدة، ماذا سـأفعل؟ إني أحبُّ إيفان، لكنَّهُ بعيد، وعلاقتي معـه محكومٌ عليها بالإعدام، فهي محرّمة! لا أسـتطيع العودة إليه ولـن أسـتطيع أن أبقى وحيدةً طـوالَ العمـر، وفرصةُ أن أجدَ لنفسـي رجلًا مناسبًا هنا شـبهَ معدومة، ماذا سأفعل؟ هل أتزوّجه وأسافر وأخدم الإنسانية وأجاهـد بمـا تبقى من عمـري، أم أبقى هنا؟.. انه ليس بوطنـي فأنا هنا أيضًا وحيدةٌ وغريبة، وربّما بنيتُ هناك بيتًا وعائلة وأصبحَ عندي أولاد. سأستخيرُ الله في هذا القرارُ الصعبِ، لعلّهُ يهديني إلى الخير.

69

مرّ شهرٌ على رحيلي. نزلتُ من القطار في ذلك اليوم على رصيفِ محطةِ المدينة الرئيسية، واضعًا حقيبتي الصغيرة على ظهري، والتي لم أحمل فيها سوى رسائل أمي وأوراقي الطبية، الأدوية، كنزة ابني وقميص نوريستا وبعض الملابس. جالت عيناي في المكان، نظرتُ حولي لعلّي أرى وجهها في مكانٍ ما. تساءلت في سرّي، هل مرّت من هنا؟ هل سألتقي بها؟ ربّما، سأتمسّكُ بهذا الأمل وسأبحثُ عنها.

كانَ عليَّ أن أجد مسكنًا ومشفى قبل هذا. ساورني شعورٌ غريب وكأني أشتَمُّ رائحتها في كل مكان. أردتُ أن أسأل المارّة والمسافرين في المحطة عنها، وذلك الرجل العجوز الذي كان يتسوّل في إحدى الزوايا. دخلتُ إلى الحديقة العامّة لأستريح قليلًا.. رأيتها هناك، أحسستُ بروحها تتجول في المكان، ربّما مرّت من هنا وجلست على نفس المقعد.

بعدَ ساعاتٍ، قرّرتُ أن أتخلّص من هذه الأوهام، عليّ أن أجد مسكنا قبل حلول الظلام. وبعد جولةٍ على مكاتب السماسرة، وجدَ لي أحدهم شقّةً صغيرة في حيّ متواضع. المكان جميل، لكن ما كان يزعجني هو ذلك المركز الديني عند زاوية الشارع. كان عليَّ أن أمرّ من أمام بابه كل يوم عند ذهابي وإيابي. تبًّا لهم، لقد تغلغلوا في كلّ مكان، ولا يستطيع أحدٌ

أن يقتلعهم من هذه الأرض. لم تكُن مشاعري كما في السابق، فمحبّتي لنوريستا كسَرت الكثير من حقدي عليهم ومن عنصريتي. بالرغم من هذا فلم أستطع أن أكون متسامحًا، فلن أطرق باب المركز وأصافح الجميع وآخذهم بالأحضان.

لكنَّ موقع الشقّة المحاذي للعيادة التي آخذ فيها علاجي جعلني أتغاضى عن المركز الديني وعن زوّارِه. حتى أنَّ وضعي الأمني هنا أفضل، إن قرَّرت الشرطة أن تبحث عني فلن يتوقّعوا إطلاقًا أن أسكنَ في هذا المكان قربَ أعدائي. وضعي الصحي كان حرِجًا للغاية بعد انقطاعي عن العلاج لفترة، ولم يكُن هناكَ من يهتم بي وبطعامي.. ماغي بعيدةٌ الآن رغم اتصالها الدائم بي وحرصها على متابعتي. لم أخبرها طبعًا أني عاودتُ شربَ الكحول والسجائر، فإن عرفَت ستغضب مني وسوف تجبرني على العودة، وأنا لا أقوى على إغضابها ولا أطيق فكرةَ العودة. لقد تآكل جسدي وبرزت عظامي لدرجة أني لم أعد أعرف نفسي عندما أنظر إلى المرآة. لحية طويلة غزاها بعض الشعر الأبيض قبل الأوان، شعرٌ طويل وعينان غائرتان، غير ذلك الألم الذي يمزّقني بعد وخلال العلاج. كنتُ أشعر بالوهن يجتاح مفاصلي وخلاياي، ويزداد مرة بعد الأخرى.

في ذلك اليوم، خانتني ساقي وأنا عائدٌ لأرتمي على سريري. شعرتُ بالموت يهاجمني دفعةً واحدة، وما أذكرهُ أني قد سقطتُ على الرصيف أمام ذلك المركز اللعين. حاولتُ أن أفتح عينيَّ فلم أستطع، ومن بين جفوني المثقلَة رأيتُ أناسًا كُثرًا يتحلَّقون حولي، وشبحًا أسود يقترب مني.. خُيِّلَ لي أني أسمعُ صوتَ نوريستا يناديني!.. لقد أحسستها، سمعتُ صوتها،

شـممتُ رائحةَ جسـدها، وكأني أودِّعها قبل أن أنتقلَ إلى العالم الآخر.. تبًّا للمرض ولهذا الحبِّ الذي يُذهِبُ عقلي!

عدتُ لوعيي بعدَ سـاعاتٍ، لأجد نفسي في المستشفى. عندما استفقتُ تمامًا غادرتُ المكان وعدتُ هاربًا إلى بيتي. ربّما عرفوا من أكون، رغم أني لم أكُن أحمل أي دليلٍ يثبت شخصيتي، ومرَّت أيّام وأنا طريح الفراش، بابي مقفـلٌ عليَّ، آكلُ ما تبقى عندي من الخبـزِ الجاف والفاكهة. بعد أن تعافيتُ قليـلًا، خرجـتُ أجوب شـوارع وأزقّة الحـي، ربّما رأيتها هنـاك من جديد. إنـهُ صوتهـا.. إنها هي.. لكن دون جدوى. أدركتُ بعد يأسـي بأنَّ ذلك كان وهمًـا فقط من تأثير المـرض. لقد أنقذني طيفها من المـوت، إنها الحقيقة، فقـد كافحتُ كـي أبقى حيًّا حتى ألقاهـا، أدركُ حقيقةَ أنهـا تحبّني وبروحها تحرسني، لكنها بعيدةٌ جدًّا عن المكان والزمان..

لم تصدّق ماغي القصة عندما أخبرتها، كانت قلقةً عليَّ كثيرًا..

- إيفـان، يجـب أن تعود إلـى هنا الآن، لا يجـب أن تبقى وحيـدًا، وِحدتُكَ ستقتلك وستؤخِّر استجابتك للعلاج وحبّكَ سيقودك إلى الجنون.

- لا أنا بخير هنا، أشـعر أني قريبٌ منها، أشعر بروحها، سأجدُها صدّقيني، إحساسي ينبئُني بهذا.

- إنـه خيالـكَ المريض، ربما قد رحلَت وعادت إلـى بلادها، لا أحد يعرف أين هي سوى الله..

- لقد سمعتُ صوتها و أحسستُ بملمس يدها، ألا تفهمين؟

- إنكَ واهم، هيّا اِجمع أغراضكَ وتعال إلى بيتك، تعال إلى حضني، حياتي من بعدك جحيم إيفان، إني أحبكَ ألا تفهم؟ تعال أرجوكَ إلى حضني كي أعتني بك..

- دعيني وشأني، إني قلقٌ ولا أعرف ماذا أفعل..

أنهيتُ المكالمة ورحتُ أبكي كالأطفال. إنها تحبني وتموت لأجلي، وأنا هنا أموت وحيدًا، أبحثُ عن طيفٍ وأركضُ خلفَ خيالٍ أسوَد. ربّما ذهَبَت فعلًا إلى بلادها، فهي غريبةٌ وليس لها أحد. يجب أن أقرّر، فإن متُّ هنا سوف أتعفن قبل أن يعرف أحدٌ بموتي!

70

شـتّتني عـرضُ الـزواجِ هـذا، ماذا سـأفعل؟ هل أتـركُ كلَّ شـيء ورائي وأرحـل؟ الحرب هنـاك مدمّرة، وأعداء الله يبطشـون بالمؤمنيـن، تبًّا لهم! ربّما مات سـيف في إحدى هذه المعارك فهو مشـروع شهيد، ماذا سأفعل؟ كيف سـأحيا وحيدة؟ أيقَظَني من شـرودي جسـدُ رجلٍ ضعيفِ البنية هزيل هوى أمامي على الرصيف وأنا أعبر الشارع لأدخل إلى المركز..

- يا إلهي!.. استيقظ يا أخي، هل أنت بخير؟

عندما أدرتُ جسـدهُ ورأيتُ وجههُ كادَ أن يُغمى عليّ. إنه إيفان، لا ليس هو! له فقط بعض ملامحه، سمعتهُ يردّد اسمي..

- نوريستا إنني أحبكِ، إلى أين ذهبتِ؟

توقّـف قلبي وكُدتُ أسـقط بقربه.. إنه هو، إنه يصـارع الموت! أغمضَ عينيـه وغاب عن الوعي، اتصل أحد الموجودين بالإسـعاف، التي حضرت بعد دقائق ونقلته إلى المستشـفى. لـم أسـتطع الذهاب معه، ولـم أسـتطع أن أعـرف عنـه شـيئًا، فلقد خرج الشـيخ حسـن عندما سـمع الجلبـة أمام باب المركز:

- تبًا لهم ولهذا المجتمع الذي يتأرجح من السُكرِ إلى أن يسقطَ أرضًا ويموت. هيّا يا أختي لندخل، سيهتمّون به في المستشفى وربّما سيتمكنون من إنقاذه، لا حولَ ولا قوّة إلا بالله!

مشيتُ أمامهُ ودخلنا المركز وقلبي ينزف من الألم. ماذا حلَّ بهِ؟ يبدو مريضًا ومشرفًا على الموت. أكملتُ نهاري شبهَ ضائعة، لم تفارقني الدموع والشعور المُميتُ بالذنب، ماذا فعلتُ به؟ لقد انتقمتُ منه شرَّ انتقام دون أن أدري. كان يبحثُ عني وهو يلفظ أنفاسَهُ الأخيرة. بكيتُ بمرارٍ، إنّهُ حبيبي وشريك روحي برغم كلّ ما فعلَهُ. ماذا سأفعل لو بقيَ حيًّا وتعرّفَ عليّ؟ ربّما سيقتلني انتقامًا لمعاناته. مؤكّد أنه لم يعرف من أكون، النقاب يخفي كلّ ملامحي، لكنّهُ سمعَ صوتي.. لا، لا أعتقد، لقد كان غائبًا عن الوعي.

عادَ القلق ليشلَّ أعصابي، إن عرف بي فلن يرحمني من غضبه شيء. ليس أمامي سوى أن أرحل من هنا، سأذهب إلى سيف وأقفل خلفي كلّ هذه الأبواب. إنهُ القدر يختار طريقي من جديد! سأسأل الشيخ حسن ربّما استطاع مساعدتي.

ذهبت مسرعة ولم أتردد. سألتُ عنه حبيبة، فأدخلتني إليه..

- شيخ حسن.. أريدُ أن أستشيرك في موضوع خاص..

وضعَ سبحتهُ جانبًا وأصغى إليّ باهتمام..

- لقد تعرّفتُ على أحدِ المجاهدين على صفحة التواصل الاجتماعي، وقد طلبَ يدي للزواج ويريدني أن أذهب إليه..

- ممتاز يا أختي، وافقي دون تردّد، فجهادكِ هناك مع المساكين والمحتاجين يفوق عملكِ هنا بأضعاف.

- ولكن المدرسة؟

- لا عليكِ، سنجد من يأخذ مكانكِ، إنَّ الزواج رباطٌ مقدس ولن تبقَي وحيدةً طوال العمر، بالإضافة إلى أن فرص الزواج هنا شبه نادرة، عدا عن أهمّية دوركِ هناك.

- !

كلماته تلك قد اختصرت الطريق ووفرت عليّ كثيرا من الوقت كنت سأمضيه في القلق والتردد. كنتُ خائفةً جدًّا، بحاجةٍ إلى حضنٍ دافئ، إلى بعض الأمان. لم يحتضنيّ أحدٌ منذ زمنٍ بعيد.. إيفان قد مات أو ربّما يحتضر، وإن لم يمُت ووجدَني فسيقتلني! لن يحبني بعد اليوم لو عرف أين أعيش وما أنوي فعله. هرعت مسرعة الى الجهاز، كي أنهي هذا الموضوع بأسرع ما يكون.. ناديته، فرد عليَّ سريعا وللمرة الأولى.. يبدو أن دربي قد بات واضحا:

- سلامٌ عليكَ أخي سيف.

- عليكِ السلام نوريستا، لا تناديني بعد اليوم بأخي، فهذا لا يجوز. سأصبح زوجكِ وملككِ وأميركِ، قولي لي هل أنادي المأذون؟

أشعرني كلامهُ بالحمايةِ والاحتضان. هدَّأَ من حزني وخوفي وفتحَ أمامي بداية جديدة ومكانًا جديدًا من الممكن أن ألجأ إليه..

- لقد فكرت مليا بعرضك هذا.. إني موافقة، ولكن لن نتزوّج قبل أن أذهب إليك..

- لماذا؟ أريد أن أراكِ الآن وأن أكلّمكِ وأتقرّبَ إليكِ!

- سأكشفُ لكَ عن وجهي ونتكلّم، وسنعتاد على بعضنا البعض إلى أن نصبح في منزل واحد..

ظهرت علامات الغضب والامتعاض على وجهه، ولكنه تدارك الأمر، فأكمل حديثه قائلا:

- إن كان هذا ما يرضيكِ سأقبل به من أجلكِ. لقد أحببتكِ منذُ النظرة الأولى، وسأفعل المستحيل كي أسعدكِ.

كنتُ أودُّ أن أرتمي في حضنهِ و أبكي.. صادقًا كان أم كاذبًا، لا أريد أن أفكِّر، يكفي أنه يريدني ويقبل بي كما أنا.

- إني بحاجةٍ إليك، أنا وحيدةٌ وحزينة..

انفرجت أساريره لسماع هذا، ولاحت في عينيه رايات النصر. قال لي بلطف وهو يبتسم:

- لا عليك سنجتمع قريبًا، اطلبي من الشيخ حسن أن يُباشر تجهيز أوراقكِ وأنا بانتظاركِ.

عدتُ إلى الشيخ حسن، وأخبرته بقراري، وطلبت مساعدته.

- أريدُ أن أسافِر إلى سيف وليس لديّ أوراق ثبوتية..

لـم أخبرهُ عـن بطاقة ماريِ. خفـتُ أن يصلوا إلى إيفان المسـكين، وأن يبلغوا عنه. يكفيهِ ما هو فيه!

لا تقلقي، سنستخرج لكِ أوراقًا جديدة وجواز سفر، وستسافرين بأقرب وقـت ممكـن. إن كان هناك بعضٌ من تلميذاتـك المراهقات يرغبن أيضًا في السـفر والزواج أرجو منكِ يا أختـي أن تصليهن بإخواننا المجاهدين، فالـزواج نصـف الديـن وأفضـل لهـنَّ مـن الانحراف فـي هـذا المجتمع الغريب.

- حاضر يا شيخ حسن، سأتكلم معهنَّ.

- وأنا سأباشر تحضير أوراقكِ..

أشعرني هذا ببعض الاستقرار. هكذا ستكون روحُ عائلتي راضيةً عني، كانـت أمي تقـول لا يصون المرأة ويحميها من مصاعـبِ الزمن إلا الزواج، حتى لو كان الرجل سيّئًا لا يهم، فالمرأة المحترمة يجب أن تنحني وتتحمّل مصاعب الحياة بصبر وعزيمة !

71

عدتُ إلى بيتي، حيثُ تسكن روحُ جدّي وابني وذكرياتي مع نوريستا. تدهورَت صحّتي كثيرًا في هذه الأشهر الأخيرة، حتى بتُّ أشعر بأنَّ الموت يرافقني كظلّي. بدأت أتلمّسُ ملامحَه، وصورتُه باتت أكثر وضوحًا.. لا أخفي خوفي منه، كذلك المدير الذي يراقب إجاباتي على أسئلة الامتحانات وفي عينيه سكونٌ وصمتٌ ومشاعر مبهمة، ليس راضيا ولا غاضبا، ليس سعيدا ولا حزينا، لا قريبا ولا بعيدا.. هكذا هو الموتُ عندما يحلّ، يُخيّمُ الصمتُ ورهبةُ الحدث، يُبعثرُ أوراقَ عمرك في الهواء، لتعود بعد سكونه فتسقط متراقصةً على أقدام الحياة، لولا صوتُ ماغي الأنثويّ الجميل الذي كان ينتزعني من براثنه لأسلمتُ نفسي إليه وأغرقتُ روحي معه في ذلك الصمتِ الأزلي، ولعبَرنا السردابَ المُظلم الذي لا يعرفُ أحدٌ ما يوجد خلفهُ. ربما سردابُ الموتِ كرحمِ الأمّ، وربّما هو ولادةٌ جديدة وعبورٌ من رحمٍ إلى آخر..

- سنخرجُ اليومَ إلى الحديقة، سآخذ معي بعضَ العصير والحلوى وسنستمتعُ معًا بأشعة الشمس ودفئها.

- ليست لديّ رغبة في الخروج..

- هيّا لا تتكاسل، اطرح خوفك جانبًا، فلقد مرّت أشهرٌ طويلة على رحيلك وعودتك ولم يسأل عنك أحد. أعتقد أنك بأمان، والجيد أنَّ الطبيب الجديد قد طمأننا وأصرَّ على متابعتكَ للعلاج، فلا يزال هناك أمل، وإن تحلَّيتَ ببعض الصبر وحبِّ الحياة سوف تُسرِّع عجلة شفائكِ.

- إنني ضائعٌ يا ماغي. تلكَ المرأة التي أنقذتني كانت نوريستا، أعرفُ صوتها جيّدًا، إنها هي. حاولتُ جاهدًا أن أفتح عينيّ وأن أرى وجهها لكني لم أستطع، وكأنَّ غمامة سوداء قد حجَبَت الرؤية. هل كنتُ أحلم، أم أنَّ الله أرسلها لي كي تعيدني إلى الحياة وترحل من جديد؟ قالت غاضبة:

- انك تخبرني بهذه القصة للمرة الألف. انسَ أمرها أرجوك، دعنا نركّز جهودنا الآن على وضعك الصحيّ، إنه الأهم، ثم نتابع لاحقًا هذا الموضوع، أعدك بأني سأجدها.

أشرقت عيني وعاد الأمل إلى حياتي.. وأخيرا ماغي ستساعدني! سألتها بلهفة:

- كيف؟

- بدايةً عليكَ أن تعتني بمظهركَ الخارجيّ، أن تقصَّ شعرك وتحلق لحيتك، أن تعتني بلباسك، ثم تنطلق إلى الحياة من جديد!

- أتمنى لو أستطيع، لكنَّ ذلك الألم يُنهِكُ قوايَ، ومرارةُ الذكرياتِ أيضًا..

- أعرف، وأشعر بمعاناتك، لكنَّ ألمك هذا سيزيدُكَ ضعفًا إن لم تستقوِ عليه. يكفي أن تنظر إلى نفسك في المرآة وأنت متأنقٌ ومبتهج، حينها أشياء كثيرة ستتغير!

- سأفعل ان وعَدتِني وأخبرتني بما تنوين القيام به. وأُقسِم أني سأغيّر حياتي إن أعطيتني فقط بعض الأمل. أريد أن أراها يا ماغي قبل أن أموت.. أريدُ مسدس والدي الذي أخذَته معها، إنهُ روحي، وعندما سيعود إلى يدي ستعود روحي إليّ..

- حسنًا اسمع، لديَّ صديقٌ يعمل في قسم المخابرات السريّة الدولية، سأعطيهِ اسمها وأوصافها. يجب أن تكون قد سُجِّلت في مكان ما هنا أو في بلادها، وسوف يصل إليها؛ لا تقلق..

عادت الحياة تنبضُ في عروقي..

- سأصفها لكِ، أنا أحفظ تفاصيلها تمامًا. قولي له أن يبحث عنها تحتَ اسم ماري أو نوريستا، فأنا لا أعرف أي اسم تستعمل الآن!

سادَ الحزنُ ملامحها حين رأت حماسي وأنا أتكلم عنها. كنتُ أعلم أني مُجحِفٌ بحقّها، وأني أمعن في جَرحِها وظُلمِها دون إرادة. لكن كانت محبتها أقوى من ظلمي، وإلا لما بقيَت معي دقيقةً واحدة. كان وجهها وابتسامتها يحبسان دموعها لتكمل احتضاني إلى آخر دقيقة من حياتي.. أخذت يدي بحنان وقالت:

- كم هي محظوظة، لو وجدتُ من يحبني مثلك لارتَدَت حياتي ثوبًا آخر أبهجَ ألوانًا و أكثر إشراقًا.

- أنا آسف..

- لا عليك..

- أخبريني إذًا، متى سيأتي الرد؟

- لا تستعجل الأمور، هذه الإجراءات تتطلّب وقتًا طويلًا، وأتمنّى أن ينجَح في مهمّتهِ وأن يستطيع الوصول إليها.

- حاولي معه أرجوك، إن حدث ومتُّ قبل عودتها ودون استعادة مسدّس أبي وهويّة أختي ستمكث روحي معذَّبةً في بحور الجحيم، وربّما لن تغادر الأرض وستبقى لتنتقم من كلّ سكانها.

- لا عليك، سأحاول. هيّا خُذ حمامك وبدّل ملابسك، ولنذهب إلى المزيّن كي تجدّد شبابك قبل أن نُكمِل رحلتنا إلى الحديقة.

لأول مرّة أشعر بالسعادة والارتياح رغم الألم. نوريستا ستعود، سآخذ المسدّس.. ربّما سأقتلها به، لا أعرف. ربّما لن أقوى، ربّما سأرتمي على قدميها و أبكي كالأطفال طالبًا السماح، ربّما ستفارق روحي جسدي في تلك اللحظة.. الأفضل أن أترُك الأمور إلى حينها..

نوريستا، سأحارِب الموت بكلّ قواي فقط من أجلكِ. ربّما سنموتُ سويا، وندفن سويا؛ ستكون هذه وصيّتي!

72

أيامـي الأخيرة مـرّت على نفـس الإيقـاع: دروس، وتلاميـذ، ولقاءات مسـائية مع سـيف.. إلا أنَّ صورة إيفان لـم تكُن تفارقني، رغـم تعلّقي بالآخر واعتيـادي على وجوده ورغبتي الصادقة فـي الارتباط به، كمرٍ يَفتحُ أمامي سـبيل النسـيان والخروج مـن الماضي إلى عالـمٍ جديـد.. لا أدري إن كان أفضل أم أسوأ، فسيبقى تقدير ذلك للأيام.

حتـى ذلـك اليوم الـذي فتحـتُ فيـه الكاميرا لأكلّـم سـيف، وإذا بوجهٍ آخر يُطلُّ عليّ.. وجهٌ مرهقٌ لفتاةٍ شـابّة جميلة، صعقت حين سـمعتها فلقد تكلمت بلغتي، محاولة الاسـتعانة بأساليب مختلفة من لغة الجسد لشرح ما تريد.. لم تدرك أني أفهمها..

- أرجوكِ أريدُ التحدث إليكِ، لا تقفلي الكاميرا واسمعيني!

- وماذا تفعلين في بيت سيف؟

إنكِ تفهمينني! الحمد لله! لا تقفلي الجهاز أرجوك، لم أتوقّع أن أجد من يسمعني. ربّما لن تصدّقي ما سأقول، لكن أقسم بأنَّ ما سأخبرك به هو الحقيقة دونَ زيادةٍ أو نقصان!

- تكلّمي يا أختي، إني أسمعكِ..

- كنتُ أغيش في نفس المدينة التي تسكنينها الآن بعد أن هاجرَ أهلي إليها إبان الحرب بسبب الأوضاع الأمنية والاقتصادية، ولم أكن قد تجاوزت عندها عامي الخامس. ترعرعتُ وشبيت وإخوتي على حياة منفتحة لم ترُق لعائلتي.. أصدقاءٌ وسهر، أسلوب عيش مفتوح على كل الاحتمالات، كان الصراع بيني وبينهم محتدمًا، هم يريدون أن يقمعوني بالقوّة، وأنا كأولاد جيلي، روحي متمرّدة ترفضُ الانصياع..

توقَّفَت قليلًا، مسَحَت دموعها وأكمَلَت:

- كنتُ أحبّهم، لو أدركوا الفجوة الكامنة في أعماقي -وأنا ابنة الخمس عشرة سنة - لما وصلَ بي الحال إلى هنا!..

عند خروجي من أحد الملاهي الليلية، أضعت عنوان بيتي وأنا أترنّح تحت تأثير الخمر، فتقدَّم أحد الشباب الذين كانوا هناك وأخذ بيدي ولفّ جسدي شبه العاري بمعطفه، وأحضرني إلى (مركز النور) حيثُ قضيت ليلتي. صحوتُ بعدها على صوت الأذان وهو يملأُ المكان ويملؤني. انتابني شعورٌ غريب، نظرتُ إلى نفسي فشعرتُ بالخجلِ كحوّاء الأولى عندما اكتشفت عريها وغرقها بالخطيئة، عندها سمعتُ طرقًا خفيفًا على باب الغرفة، فلففتُ نفسي بالغطاء قبل أن آذن للطارق بالدخول:

- صباحُ الخير، هل تذكرينني؟ لقد أتيت بك في الامس من الملهى إلى هنا.

عادت ملامحهُ قليلًا إلى ذاكرتي فشكرته..

- أجل، شكرًا لك.

- لـم يكُـن معـكِ بطاقة أو ما أسـتدلُّ بـه على عنوانـكِ، ولـم أشـأ أن أتّصل بالشـرطة فأنتِ مازلتِ تحت السـن القانونية على ما أعتقد وهذا سيسبّب لكِ المتاعب. أدركتُ من لهجتك أنك غريبة، فأحضرتكِ إلى هنا،

أخبرني عن بيت النور وكيف يساعدون الشباب على العودة الى دينهم، وكيف يهدون الكافرين ويأخذونهم الى نور التوبة والإيمان. أشعَرني كلامه بالخجـل والارتبـاك، وشـكرته على مـا فعله من أجلـي ورجوتـه أن نكون أصدقاء فأجاب وهو يبتسم:

- أتمنّى هذا، ولكني سأسافر قريبا.. بإمكاننا أن نبقى على تواصل من خلال صفحـات التواصـل الاجتماعـي، سـأعرفكِ أيضًا على بعـض الأصدقاء هناك..

- إلى أين ستسافر؟

- إلـى بـلاد الجهاد، فأهلنـا هناك في خطرٍ وكما سـاندوا بلادنـا في محنتها وأرسلوا أولادهم ليموتوا على أرضنا يجب أن نؤازرهم نحن أيضًا

- وما هو الجهاد؟

كان سـؤالي هذا مدخـلا لحديثٍ طويل، عـدتُ بعدَه إلى البيتِ إنسـانًا آخر، وترقّبتُ شـمس الغد لأذهب إلى هنـاك من جديد، وهكذا دخلتُ إلى المركز، ويومًا بعد يوم بت أمضي معظم أوقاتي فيه، بين الشيخ حسن وحبيبة والشـباب الذين يترددون لأخذ الدروس هناك، وقـد أزال هذا فتيلَ الصراع بيني وبين أهلي، وأصبحوا أشـدَّ رضًا و أكثـرَ تفهمًا، ولـم يهتموا بعدها متى

أخـرج ومتى أعـود وماذا أتعلـم مادمتُ في مركـز النور، وارتديـتُ النقاب وبدأتُ أقنعُ صديقاتي بالمضيّ في هذا الطريق الذي اخترتُه لنفسي.

بعد مرور أسبوع على سفر ذلك الشاب الطيّب، وصلني خبر استشهاده، فانتابتنـي حالةٌ مريعة من الحزن والوحدة، مما سـرَّع بنشـوء صداقة حميمة بينـي وبيـن أحد أصدقائـه الجهاديـين، والذي كان قـد عرَّفني عليه سـابقًا، فتزوَّجنـا عبـر الأثير وشـرَعت بتحضير أوراقي وتجهيز نفسـي للسـفر إليه، وحملـتُ أمتعتـي ودَّعـتُ صديقاتـي، اللاتـي أبديـن رغبتهـن فـي خوض المغامرة لاحقا.. ورحلت دون أن أخبِر أهلي.

- ولماذا لم تخبريهم؟

- لم يكونوا ليوافقوا.

أكملت في سردها وأكملت إصغائي..

- في المطار اسـتقبلني صديق زوجي، وأقلني بالسيارة إلى تلكَ القرية التي لا يتوقف فيها صوت الانفجارات. بعد مسـير ساعات، وصلتُ إلى بيتي وكان زوجي بانتظاري، وعلى ضوء القنديل رأيتُ الحياةَ بشـكلٍ مختلفٍ عمّا تصوّرته، كلّ شـيء كان غريبًا.. أردتُ أن أسـتريح وأن أستوعبَ هذا التغييـر، أن أجلـس معهُ، ان نتكلَّـم ونتعارف، لكنه دخلَ علـيَّ فجأةً دون تمهيـد أو تقـرُّب ، مجرّدًا مـن العاطفة. لـم يكن ما انتظرته سـوى أحلام مراهقـات، وفـي صباحِ اليـوم التالـي عندما نظـرتُ حولي أدركـتُ أنني قـد تسـرّعتُ في اتخـاذ القرار، في بيـتٍ غريب بكل تفاصيلـه، وكأني قد انتقلـتُ خارج إطـار التاريخ، حمّامٌ دون ماء، سـرير قديـمٌ صدئٌ، مطبخٌ صغير، وحوض حجري لغسـل الأطباق، حبل غسـيل أمام البيت نُشِرَت

عليه ملابس سـوداء، والشبابيك سُدَّت بقطعِ قماش بالية وفتحها ممنوع؛ كما أمرني قبل أن يقفل باب البيت خلفه ويذهب. منذُ يوميَ الأول أدركتُ فداحـة الجريمـة التي ارتكبتُها، وأي إيمانٍ باللـه ذاك الذي قادني إلى هذا الجحيم.

إن علاقتي معه ليست سوى أن يقضي وطره، ويرحل من جديد، بعد أن يأخـذ معه الطعام الذي حضرته له ولأصدقائـه، وأبقى أنا وحيدةً في الظلام ومع أصوات الانفجارات وصراخ المصابين. أُقسِـم لكِ بأنَّ ما تسمعينه هو حقيقي، أتصدّقينني؟

- ولماذا لم تعودي؟

- كيـف لي هذا؟ أنا لم أعد سـوى سـلعة قد أحضرها من بلدهـا ليلهو بها، وللأسـف لـم أعـرف هـذا إلا لاحقـا، أخذنـي لنفسـه بعض الوقـت، ثم طلقنـي، وقـال إنني ملك يمينـه فقرَّر بيعي منذُ أسـابيع. أخذنـي معه إلى قائـد المجموعة، حين عبرنـا المدينة رأيتها لأول مـرة.. صروحٌ مدمّرة.. ركام، آليات وسـيّارات محترقة على جانبيّ الشـارع.. شـعاراتٌ عسكرية علـى بقايا الجدران المحطمة.. مقاتلون وأعلامٌ كبيرة سـوداء كُتِبَ عليها اسـم الله.. قططٌ وكلاب مشـرّدة، ومعتقلون يُقتادون معصوبي الأعيُن.. دخانٌ ورمادٌ.

إلـى أن وصلنا، فخاطب ذلك الرجـل الضخم الملتحي قائلا "هي ملكٌ لـكَ أيّها الأمير . وضع يَدهُ على رأسـي ثم أدخلني إلـى الغرفة، مزَّقَ نقابي وملابسي واغتصبني.

رحـتُ أصرخ وأنادي زوجي كي يُعيدني إلـى بيتنا لكنه لم يجب. بقيتُ هنـاك مـع دموعـي وآلامي وقـذارة المقاتليـن الذيـن منحني قائدهـم لهم،

فتوالـوا على اغتصابي.. رجالٌ من جنسـيات مختلفـة، لحيً طويلة، ملابس غريبـة، يقولون إن مضاجعتي لهم جهاد! أدركتُ كم هم منافقون وكذّابون، يقاتلون بعضهم بعضًا، فأعداؤهم ليسوا إلا مسلمين أيضًا.

لقد بقيتُ هناك حتـى الأمس، إذ أعادوا البضاعة لصاحبها، بعد إصابتي بنزيفٍ حادّ جرّاء مضاجعتهم الوحشية لي، فلم أعد أصلح لجهاد النكاح.

- ماذا تقولين؟ هذا لا يعقل!!

- إنهـا الحقيقة يا أختـي والله... الكثيـر الكثير من النسـاء هنا محاصرات، يَمنعـون عودتهـنَّ كي لا يَشـين بهم. هـذا بالإضافة إلـى الفتيات من أهل البلد اللواتي يأسـرونهنَّ ويبيعونهنَّ لبعضهـم البعض.. أريد أن أعود إلى بـلادي لكنّـي لا أملـك النقـود ولا الأوراق، أرجـوكِ أن تُبلغـي عائلتي، أخبـري حبيبة؛ إنها تعرفني. قولي لها زوجة سـيف، أرجوك فليخلصوني من هنا، أرجوكِ قبل أن أموت.

صعقني الاسم:

- هل سيف زوجكِ؟

أقفلـت الشاشـة ولـم يـأتِ أيّ رد! تركتُ رسـالة له هناك: "سـيف.. من هـي هذه المرأة التي كلمتني، وهل ما قالته صحيح، أرجو أن تجيبني .. بعدَ سـاعاتٍ من الانتظار والقلق فتحَ جهازهُ وتكلّم معي بنبرةٍ قاسـية لم أعتدها منه..

- ما هذه الرسالة الغريبة؟

- لقـد كلّمتنـي امـرأة مـن جهـازك وقالـت لي أشـياء مخيفـة؛ هل مـا قالته حقيقة؟

- هـل صدّقتها؟ إن فعلتِ سـأرحل ولن أعود، فلـن أرضى بالارتباط بامرأةٍ لا تثق بي.

- لا يـا سـيف لم أصدّقهـا، ما قالتهُ رهيب، لكن أسـتغرب كيـف أمكَنها أن تدخُل إلى حسابك هكذا دون رقيبٍ ومن تكون؟!

- إنهـا زوجة صديقـي، تعرّضت لانهيار عصبي جعلها تتخيل أشـياء غريبة ظانّـةً أنها قد حصلت فعلًا. مسـكينةٌ، لقد أحضرهـا إلى هنا ليعرضها غدًا على الطبيب..

- شـفاها اللـه، إنَّ آثـار المرض بادية علـى وجهها فعلًا، لكن ما قالَتهُ سـبقَ وقامت بعض وسائل الإعلام بتناوله وتبادله؟

- لا تصدّقـي ما يقال، إنهم يشـنُّون علينا حملةً شرسـة كي يُشـوِّهوا سـمعة دولتنـا.. إنهم أعـداء الله، أنا هنا أكلّمكِ وأقول لـكِ إنَّ كلّ ما يُقال كذبٌ وتلفيق، هل تشككين بي وبإيماني؟

- لا أبدًا. معاذ الله. هيّا اِذهب وصلِّ، وسأنتظر عودتك بفارغ الصبر..

أتعبني ما سـمعتُ وأدخلني في دوامةٍ جديدة. من منهما الكاذب؟ كيف سأسـافر إلى المجهول؟ إن كان ما قالتهُ صحيحا سـأُدخل نفسـي في دوامة أخرى تعيدنى إلى ما عانته نسـاء بلادي من اغتصاب وإجرام. لم أكد ألتقط أنفاسي حتى دخلت عليَّ حبيبة لتخبرني أنَّ هناك من يريد مقابلتي.

- هناك امرأةٌ على الباب تريد مقابلتكِ.

- من هي؟

لا أعرفها!

- هل من الممكن أن أستضيفها في غرفتي؟

- بالتأكيد، سأدعها تدخل إليكِ.. تفضّلي يا أختي.

- مرحبًا نوريستا، أنا ماغي، أنتِ لا تعرفينني، لكن أنا أعرفكِ وسمعتُ عنكِ الكثير، أريدُ أن أتحدث إليكِ.

كان شكلها مريبًا بعضَ الشيء رغم ملابسها المحتشمة، غيرَ أنَّ آثار حياة الليل بادية على ملامحها. ذكَّرتني بكيكي، تلك المرأة التي أقمتُ في منزلها عند قدومي إلى المدينة.

- أهلًا سيّدة ماغي، كيف أساعدكِ؟

- أنا صديقة إيفاندافيتش وقد أخبرني عنكِ الكثير!

صعقني كلامها! قلتُ لها بصوتٍ مرتجف:

- هل يعرف مكاني؟ يجب أن أرحل، إن وصلَ إلى هنا سيقتلني.

- لا تقلقي، هو لا يعرِفُ مكانكِ ولن يقتلكِ، إنهُ يحتضر، السرطان يأكل أمعاءه، وقد طلبَ مني أن أبحثَ عنكِ وأسألكِ أن تسامحيهِ وأن تعودي إليه.

كدتُ أختنق، ماذا فعلتُ به؟ أهكذا يُدمي الحبُّ المحبّ؟ يُركِع الجبابرة ويُعيدهم أطفالًا أو يحوّلهم إلى أموات؟ من خلف سيلِ دموعي سألتها:

- أنتِ تقولين الحقيقة؟

- أقسم لكِ.

أجبتها بما استطاع أن ينطقَه لساني:

- لقد أحببتُه رغم كلِّ شيء، لا أريدهُ أن يموت أو أن يتعذب، لكني لا أستطيع العودة الآن، فقد اخترتُ مصيري.. سأسافر، سأنذُر ما تبقّى من عمري في خدمة المحتاجين. إنَّ الحرب هناك تطحن الآلاف يوميًّا. لم تسمح لي الظروف أن أساند أهل بلادي وأن أناضل معهم، ولن أضيع هذه الفرصة الان..

فتحَت عينيها وصاحت بي بصوت منخفضٍ:

- ماذا؟؟ هذا جنون، يجب أن تغادري هذا المكان فورًا. الجميع هنا مراقبون، حتى الاتصالات وشبكة الإنترنت. الشرطة تنتظر اللحظة المناسبة كي تقبضَ عليكم جميعًا!

عادَ ذلك الخوف ليغمرني من جديد..

- لماذا؟ نحنُ نعبدُ الله وندرِّس الدين ونربي الأطفال على الخير والتقوى!

- من أعطاني عنوانكِ هو صديقٌ مقرّب يعمل في المخابرات، كنتُ قد طلبتُ منه البحثَ عنكِ بناءً على رغبة إيفان، وأخبرني بأنَّ أحدًا قد زوّرَ جواز سفر باسمكِ، وذاك الرجل يقوم بأعمالٍ غير شرعية أخرى كترحيل الفتيات والشبان بحجّة الجهاد، وقال لي إنَّ المكان مشبوه وطلبَ منّي إن

كان أمْـركِ يهمّنـي أن أنصحكِ بالرحيل، أو فإنهم سـيلقون القبض عليكِ أينما ذهبتِ.

كيف علِمَت بموضوع جواز السفر.. يبدو أنَّ ما تقوله صحيح..

- لماذا كلّ هذا؟ أنا أعمل هنا كمدرّسة ليس إلّا، والناس هنا طيّبون ويعملون من أجل خدمة المجتمع.

- للأسـف يا نوريسـتا، هـم يسـتخدمون هذه المظاهر كسـتارٍ فقـط، وأول ضحاياهم هم من يؤمنون بهم وبتلك الرسائل الزائفة المتستّرة بثوب الله والدين. لقد أخبرني أنهم مرتبطون بمجموعات إرهابية، يجنّدون الشباب ويغرِّرون بهم ويعدونهم بالمال وبجنة الخلود وبالنساء على الأرض وفي السماء..

قلت في عناد؛ ربما تعصبًا لجذوري ودمي:

- هم حقًّا مؤمنون، يجاهدون من أجل إحقاق الحقِّ.

ظهرَ في عينيها غضبٌ وقلقٌ عظيمان!

- نوريسـتا عزيزتـي، أنـتِ مخدوعة، هم ليسـوا سـوى أداةَ حـربٍ صنَعَتها تلك الدول التي تحاربهم اليوم. لقد كانوا في السـجون لسـنواتٍ طويلة، عملت تلـك الدول على تدريبهم وتمويلهم وتزويدهم بالسـلاح، من ثمَّ زرَعَتهـم فـي أماكـن معيّنة تتناسـب مع أهدافهـم ومطامعهـم الاقتصادية والاستعمارية.

توقّفَت قليلًا ثم نظرَت في عينيّ..

- ألـم تـرَي ما حدث في بلادك؟ ألم تسـألي نفسـكِ يومًا مـا الذي أوصلكِ وأوصل إيفان إلى هنا؟

جالَ في رأسي كلامُ تلك المرأة في الأمس وما قالته.. إنه نفس ما تقوله ماغـي الآن. هل هذا إنذارٌ آخر كي أتنبّـه لهذه الجريمة التي أُقدم على فعلها بحق نفسي، وبحق تلك الفتيات اللواتي أحاول إقناعهنّ بالسفر معي؟

- صدِّقيني يا نوريسـتا، هدفي الوحيد إنقاذكِ مما ينتظركِ، أخبرني إيفان عن معاناتـكِ، وإن لـم ترغبي في العودة إليه سـأتفهّم ذلك، وهـو أيضًا. لكن عليكِ أن تغادري ذلك المكان قبل أن تتورطي أكثر..

- لا أعـرف.. لـم أعُـد قادرةً علـى التفكير، لا أسـتطيع أن أغـادر الآن.. لا أستطيع..

كان قلقي على إيفان أكثر ما يشـغلني في هذه اللحظات. أمسـكتُ يديها ورجوتُها أن تخبرني عنه.

- ماغـي أخبرينـي الآن عـن إيفان! إنّـي قلقةٌ علـى مصيـره، طمئنيني عليه أرجوكِ، كيف هو الآن؟

- إنهُ مريضٌ جدًّا، أصبحَ نحيلًا، يعيشُ على السوائل والطعام المطحون ولا ينام إلا قليلًا..

قلتُ لها بحسرة:

- أدركتُ هذا عندما سقطَ أمامي في الشارع منذ مدّة..

- مهـلًا مهـلًا، هـل كنتِ أنتِ حقًّا مـن أنقذه؟ لقد قال لي إنه سـمعَ صوتكِ وشـمّ رائحتـكِ، لكنه لم يستطع أن يلاحـظ ملامحكِ. لـم أصدّقهُ لأني

اعتقدتُ أنَّ ما أحسَّهُ كان من تأثير المرض عليه. في شتّى الأحوال، ما يهمّهُ الآن هو أن تغفري له ما فعَلهُ بكِ، إحساسه بالذنب يؤلمه أكثر من خباثة مرضه، لا تخافي منه بعد الآن فلم يبقَ لهُ من الماضي سوى تلك الروح التي تستعدّ للرحيل!

- إنني أحبُّهُ حقًا، إنه حبُّ حياتي، لا أزال أصارع نفسي وألومها لأني خذلتُه ورحلت. قولي له أرجوكِ إنَّ نوريستا قد سامحتكَ، ولتسامحها إن سبّبت لكَ الألم أو الحزن!

نظرَت إليّ بحزنٍ عميق:

- لا نوريستا، اِذهبي أنتِ إليه وقولي له هذا قبل أن يموت. أنتِ لم تغادري فقط، بل أخذتِ ذكرى عائلتهِ معكِ. مهما قلتُ له لن يصدقني، عليكِ أن تخبريه هذا بنفسكِ بحقّ هذا الحب، ثم دعيه ليموت بسلام! لقد كنتِ أشدَّ انتقامًا منه وأشدّ قسوة!

- سأكتب لهُ رسالة وأرجو أن توصليها. سوف أعود، ولكن عليَّ أن أنهي بعض الأمور المعلّقة قبل ذهابي.

- حسنًا، سأسلّمها له، لكن لا تتأخري في العودة، ربما يفارق الحياة قبل أن تلتقيا!

هزَّتني كلماتها.. لم أتوقّع أن أسمع هذا يومًا عن إيفان. سأجعلهُ يصمد، يتحدى الموت إلى أن أعود. لكنّي لن أعود قبل أن أنقذ هؤلاء المساكين الذين يسيرون خلف الشيخ حسن وأتباعه. فتحتُ الخزانة وأخذتُ بطاقة ماري من الحقيبة، وأحضرتُ دفتري ورحتُ أكتب ما أريد أن أقوله له. قبل

أن أنتهي قاطعني صوت الشيخ حسن وهو يناديني. تجمّدتُ خوفًا، فإن عرف بما يحدث الآن ومن تكون ماغي لقتلها وقتلني!

- آسفة ماغي، أمهليني خمس دقائق وسأعود ثانيةً.

تركتُ كلّ شيء مكانه، وخرجتُ وأقفلتُ الباب خلفي.

- أين أنتِ يا أختي؟ قالت لي حبيبة إنَّ لديكِ ضيوفا..

- أجل، إنها امرأةٌ مسكينة أحاول أن أهديها إلى الصراط المستقيم..

- جيّد، لقد أدركتُ منذ اليوم الأول أنكِ ستتفوّقينَ علينا بإيمانكِ وحماسكِ وتقواكِ.

- هل ناديتَني من أجل زائرتي؟

- لا، كنتُ أريدُ أن أعلمكِ بأنَّ جوازَ سفركِ وبطاقتكِ الشخصية باتّا جاهزين، كما سأصرف لكِ مبلغًا من المال يساعدكِ على شراء ما تحتاجين قبل سفركِ.

- كيفَ هذا وأنا لم أوقّع على أية ورقة أو أزُر أي دائرة؟!

- قلتُ لكِ ألّا تقلقي، لقد أنجزنا كل ذلك لنجنّبكِ الانتظار الطويل في تلك الدوائر الرسمية التي يعمل فيها الكفار، فأنتِ مسلمةٌ منقبة وهذا سيؤخر الإجراءات.

ضخَّم كلامه الشكوك التي أيقظَتها ماغي وامرأة الأمس في داخلي. تأكد لي أنهما محقّتان، وإلّا فكيف استطاع أن يفعل كل هذه الأمور! في لحظة قصيرة انقلبت صورتهُ في عيني من شيخ إلى شيطان!.. تمالكتُ

خوفـي جاهدةً، فعليَّ التأكد قبل أن أتورَّط معهم.. ابتسـمتُ محاولةً إظهار فرحتي بالخبر:

- آه شكرًا شيخي، إنكَ حقًا رائع!

- خذي هذه النقود وحضري نفسكِ، سأعلمكِ بموعد السفر قريبًا.

أخذتُ المغلف منه ووقفتُ حائرة شاردة الذهن.. ماغي!! عدتُ سريعًا إليها، سارعتني بالسؤال:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

- أجل، لا! أنا خائفة!

- انتبهي أرجوكِ، فأي قرارٍ تتخذينه من الممكن أن يعرّض حياتكِ للخطر!

حملـتُ القلـم من جديد ويـداي ترتجفـان.. أكملتُ كتابة الرسـالة، ثم وضعتُهـا مـع بطاقة ماري فـي المغلف، وطلبت منها أن تسـلمها لإيفان، ثم أعطيتُها منديلَ رأس من مناديلي وطلبتُ منها أن ترتديه.

- فقـط إلى أن تخرجي من هنا وتبتعدي قليلًا عن المكان. أخافُ أن تكوني مراقبـة، عندها سـيصلون إلى إيفـان وربّما قتلـوه وقتلوكِ، لقـد أخبرتهم بقصّتي، ومنذ ذلك الحين وهم يحاولون معرفة هويّتهُ ومكانه!

- لا عليكِ، سأرتديه، لا تقلقي عليَّ واهتمي بنفسك!

أوصلتهـا إلى البابَ، وعدتُ إلى سـجني بين من يرتدون العفّة والتقوى ثوبًـا يحتالونَ به على النـاس وعلى الله.. بتُّ أدرك وأجزم أنهُ ليس للإجرامِ دينٌ ولا هوية.. أما عما سيحلّ بي، فلن يستطيع أحدٌ أن يتنبأَ به.

73

حملت ماغي إليَّ الكثير من الأخبار المفاجئة..

- إيفان، أنا أحمل لك مفاجأة، انظر ماذا أحضرتُ لك، رسالة من نوريستا.. لا أعرف ماذا كتبت، لكنّها قالت لي إنها ستعود وستبقى معك. ستُشفى، وربّما ستتزوجان!

شددتُ المغلف من يدها بلهفة..

- كيف وجدتِها؟ أينَ هي، ماذا تفعل، هل هي بخير؟

- أجل بخير، تسكن في المدينة..

- إنها على قيد الحياة.. شكرًا للرب.. كنتُ خائفًا، اعتقدتُ أنها انتحرت..

وضعتُ الكيس الذي أعطتني إياه ماغي جانبًا، وفتحتُ الرسالة قارئًا ما كُتبَ بصوتٍ مرتفع:

"إيفان الحبيب، أردتُ العودة يوم مغادرتي، لكنّي خفتُ من العقاب.. خفتُ أن تعيدني إلى ذلك المخزن مرّةً ثانية. حملني هذا بعيدًا إلى أحضان آلافِ التجارب المُرّة، والتي تفوق مرارة سجنك وألم الذكريات التي كانت تطاردني. عندما وجدتُ المسدس، تمنيتُ لو استطعتُ قتلكَ.. لو استطعت

إطـلاق النار عليك. تمنيتُ هذا وأنا أواجه قسـوةَ الحياة وحيدة، أن أعاقبك أشـدَّ عقـاب.. ودائمًا ما كنتُ أتراجع لأنني أحبّكَ. أُقسـم أني أحبك، وأني لم ولن أنسـاكَ يومًا. وأقسمُ أني قد سـامحتك على كلّ ما مضى. ربّما كنتُ أسـتحق هذا السـجن وهذا العقاب، وقـد عوقبتُ لاحقًا علـى هجري لك. ظروفـي الآن صعبة جدًا، لكني سـأحاول الخروج ممّا أعانيـه بأقلّ قدرٍ من الخسارة، إن استطعتُ ذلك، ستجدني أمامك. ولن أقتلكَ كما تخيلت أني سأفعل يومًا، لا بل سأقتل نفسي إن متَّ دون أن تسامحني.

حبيبتكَ ومحِبَّتُكَ نوريستا"

تغيَّـرت ملامحـي وسُـرِقَت تلك الفرحـة منّـي. انتابني قلقٌ مريـعٌ قلبَ الأشياء في داخلي رأسًا على عقب.

- لم أفهمها يا ماغي.. هل هي غاضبةٌ، أم أنها حقًّا سامحتني؟ تحدَّثَت عن المـوت والقتـل. تعتقدين أنها فعـلًا تحبّني أم أنها سـتدميني بجرحٍ آخر؟ هل قلتِ لها إني مريض وإن لم تُسرِع فلن تجدني أبدًا؟

- لا أعتقـد أنها كانت غاضبةً منك، لكـن كما كتبَت لكَ، هي تعيش في ظلّ ظروفٍ صعبة. هناك خطرٌ حقيقي يحيطُ بها.

- أخبريني أرجوك، ماذا يحدث؟ يجب أن أعرف، يجب أن أنقذها!

- لا تقلـق، لقـد عرضـتُ عليهـا المسـاعدة، وإن احتاجَتني سـأفعل كلّ ما أستطيع إكرامًا لكَ.

- ما هي تلك الظروف؟

- لقد التحقت بمركز ديني متزمت، وتدرس الدين حيث تعيش مع تلك العائلة التي تدير المركز، لكن هذا المركز نشاطاته مشبوهةٌ والشرطة تراقبه..

لم أصدِّق ما سمعت.. ولكن الهروب إلى الله أمرٌ طبيعيٌّ بعد اليأس من الحياة..

- هل هذا كلّ شيء؟ هل هي متورطة معهم حقًّا؟

- لا أعتقد أنها متورّطة، فهي لم تكُن تعرِف حقيقةَ الأمر. لقد تفاجَأت مثلك، ولهذا كتبَت لك بهذا الأسلوب. هي خائفة ولا تعرف بعد كيف ستخرج من ذلك المأزق... أتذكُر تلك المرأة التي أخبرتني عنها والتي أنقذتكَ في الشارع؟

- أجل..

- كانت هي..

- ماذا؟! أيها الرب..

- قالت لي إنها حاولت أن تعرف أي شيء عنك بعد ذلك، أرادت أن تعود، لكن خوفها عليك من تلك الجماعة منعها..

- اه تبا لها ما أقساها!

- لا تنس ما فعلته بها. مشاعرها هذه مبرّرة، اعذرها يا إيفان، فأنت وهي مجرد ضحيّتين من ضحايا الحرب..

- أريدُ أن أنام، اِذهبي الآن أرجوكِ!

- سأذهب، لكن عليك أن تأخذ الأمور بإيجابية. سوفَ تعود، لقد وعدَتني، ستتخلّص من هذه الأزمة وستعود، صدّقني!

بعد خروج ماغي حملتُ بطاقة ماري التي كانت لا تزال داخل المغلَّف. قبّلتُها وقبّلتُها حتى كادت حروفها أن تذوب من ملوحة دموعي.. هي ورسائلُ أمي آخر ما تبقّى لي من الحياة. تمدّدتُ على سريري ومددتُ الغطاء حول جسدي المُنهك من هجمات المرض، وجلستُ أتأمل أرجاء غرفتي. كلّ شيءٍ مكانَه سوى هذا الكيس الذي أحضرَتهُ ماغي وتركتَهُ جنبَ منضدة السرير دخيلًا على المشهد. أخذتُه وفتحتُه، فوجدتُ فيه شالًا أسود. إنهُ منديل نوريستا! رحتُ أعيدُ وأعيدُ شريط ذكرياتي معها منذ أول يوم حتى اليوم الأخير. غريبٌ هذا الإنسان، إنهُ شيطانٌ متخفٍّ بهيئة إنسان، يفرحُ بهذا القناع الذي يرتديه ويخدَعَ به كلّ ناظِر، أمّا بينَهُ وبين نفسه فهو يدرك الحقيقةَ التي لا تغيبُ..

انتابني إحساسٌ غريب، وكأني أحملُ حقيبة سفري وأدخلُ محطّة القطار.. أجلسُ على المقعد وأنتظر صفارة الانطلاق.. أخذتُ دفتري وكتبتُ رسالتي.. وكانت تلك الصفحة الأخيرة من ذلك الدفتر!

74

حسـمتُ أمـري وقـررتُ أخيـرًا الرحيـل. قـررت أيضًـا أننـي يجب أن أفضـح أمْرَهـم وأن أحمي الدين والأبرياء منهم.. نسـختُ مـا كان قد كُتِبَ مـن زيفٍ في دفترِ التحضير والذي لم أقبـل أن أعتمدهُ في التدريس، فتحتُ ملفات أسـماء المجاهديـن الذين كانوا على الصفحـات الاجتماعية، أرقام الحسـابات والفواتير المحوّلة بأسـماءٍ غريبة فيما بينهم، أحيانًا باِسـم حبيبة وأحيانًا أخرى باِسـم الشـيخ حسـن وأسماء لأشـخاص لا أعرفهم. أخذتُ جـوازَ سـفري المـزوّر وأوراقًـا أخـرى لشـباب وفتيـات بعضهم قد سـافر والبعض كان يتحضر للسفر، وكل ما وجدته في خزانة حبيبة بعد أن تسللتُ إلى غرفتها وفتشـتها، وكان قليلاً، أما حجرة الشيخ فكانت مؤمَّنة جيدًا، فلم أستطع دخولها.

رتّبتُ تلـك الأوراق وأخفيتها جيدًا داخل الحقيبة، بالإضافة إلى النقود ومـا جنيتُه خـلال عملي في المركز، وقبلَ بزوغِ الفجـر فتحتُ الباب بهدوءٍ وخرجـتُ من جديد إلى الشـارع، من حيثُ أتيت، تاركةً خلفـي رعبًا وقلقًا وصـوت تلك المـرأة على صفحـة التواصل وهـي تطلب النجـدة.. تركتُ خلفي نقابي، وكتب الدين التي سـمّموها بأفكارهم المتطرفة.. لم يبقَ معي سـوى مصحفي، الـذي رافقني في رحلتي هذه، والـذي أخذته من مقتنياتِ رجلٍ ينتمي إلى دينٍ آخر.

لم أرغب في العودة إلى التشـرُّد. أردتُ الذهاب إلى إيفان.. صوتُه كان يناديني وكنتُ أسـمعه. كان عليَّ أن أسلّم هذه الملفات للشرطة، وأن أتأكد مـن أنني بمنأى عن أعينهم. اسـتأجرتُ شـقّةً صغيرة، ورغـم ذلك لـم أشـعر بالأمـان. كنـتُ أعاني وسواسـا قهريا واشـعر أنَّ كلّ مَن حولـي يراقبونني، أخـافُ ممـن ترتـدي الحجاب ومـن كلّ من أرخـى لحيته.. كرهتُ نفسـي وكرهـتُ دينـي.. كرهتُ إيفـان رغم مأسـاته.. كرهتُ كلَّ صنـاع الحروب الذين يسـتخدمون الدين غطاءً لهم. مـرور الأيام دون خطوة جديدة جعلني أكثـر تـردُّدًا وقلقًا، فحتى الشـرطة والقانون ليسـا بالملاذ الآمن لـي، وربّما اعتبرونـي شـريكةَ أولئـك الناس وجعلوا ممـا أحمله مـن أوراقٍ دليلًا على إدانتي!

عاد شـيطاني المتجسّـد يطاردنـي من جديـد. يتلبّس هذه المـرّة صورةً طبق الأصل عنّي، لكن في نسـخةٍ بعثَرَت السـنين ملامحها. أخذَ بيدي إلى مكانٍ ما في الشـارع القريب، حتى اسـتفقتُ من انقيادي خلفه لأجد نفسـي في "كابين الهاتف" أطلب رقم منزلنا في سربرنيتسـا.. كان الهاتف يرّن ولا من مجيب.. لا أعرف كيف تذكّرتُ الرقم فجأة!

وجدتُ نفسي مرّةً أخرى أراقب الأطفال خلف سور إحدى الحضانات، كانـوا يلعبون ويضحكون. انتظرتُ قربَ الباب لآخذ يد ابني وأذهب به إلى البيـت، لكنه لم يخرج. كنتُ أحتفظ بعنـوان البيت على ورقة في محفظتي، وكـم من مرّةٍ خرجـتُ ولم أعرف كيف أعود وإلى أيـن. عادت تلك الحالة تنتابني، عندما أسـتيقظ من نومي لا أدرك مـكان وجودي وأين أنا.. يخنقني الخـوف، أشـعِلُ الضـوء وأراقبُ المـكان باسـتغراب، ثم أعـود لأهدأ بعد

أن أدرك أنـي فـي سـريري. كانت مشـاعري تخيفني، أرغـبُ أحيانًا في قتل نفسي وأحيانا بقتل شخص ما، أيًّا كان. أراقب المارّة في الشارع من نافذتي لسـاعاتٍ، أتخيلُ نفسـي كسـفاح يبيدُهـم جميعًا، أتخيل نفسـي مكان تلك المرأة في بلاد الحرب والموت والرجال يجتمعون عليَّ ليغتصبوا جسـدي كما يفعلون بها. انتابتني غيرةٌ مميتةٌ من ماغي، حلمتُ مرّةً أنني أخنقها حتى الموت. إنها تحبّ إيفان، وهو يحبُّني، وأنا أكرهُه وأحبه في آن، أشتاقهُ كثيرًا وأفتقد أحضانه، أفتقد رائحتَه وقسوتَه.. كانت تداهمني رغبةٌ جارفة تناديني كي أذهب إليه فأمزّق ملابسَـهُ وأدخل شـرايينه ونمارس الحب معًا بشـغفٍ وجنـون، كما كنّا نفعل على مذبح الحبِّ والرغبة، تلتحِم روحانا وجسـدانا ونصرخ معًا منتشيَين كجسدٍ وروحٍ واحدة دون قيودٍ أو فوارق.

تعـود تلـك الرغبـة لتُكسَـر بشـدّة عنـد صورته وهـو ملقًـى أمامي على الرصيـف ينازع من وطأة الألـم.. تمنيتُ لو مددتُ يدي إلـى عنقه وخنقته، إنـهُ أكثـر ما يعذّبني، إنهُ من يُقيدُ صراعي الذاتي. أدورُ حول نفسـي سـجينةَ تلك الغرفة لا أخرج أبعدَ من ذاك المتجر القريب كي أشتري الخبز والقهوة وبعـض الحاجيـات، إلى أن أتى ذلـك اليوم حين طُرِقَ بابي بشـدّة، فأجبتُ بتردّد بعد أن ألصقتُ أذني بخشبِ الباب:

- من؟

- الشرطة.

ماذا؟ لقد أتوا بأنفسهم! من المؤكد أنهم قد قبضوا على الشيخ ويريدون أن يحققوا معي.. يا ليتني لم أعطِ ماغي البطاقة. سـيجدون المسدس أيضًا. إنني متورطةٌ لا محالة!

- اِفتحي وإلا كسرنا الباب!

بعد تردّدٍ وصراع بين نعم ولا، فتَحتُ لهم ودخلوا؟ انتشـر العديد منهم في كل أرجاء الغرفة، وأحدهم راح يكلمني:

- أنتِ نوريستا؟

- نعم..

- هناك أمرٌ بالقبض عليك وتفتيش المكان.

- ولماذا؟

- ستعرفين لاحقًا.

بعد أن جمعوا كل ما وجد في الشقة من أوراقٍ وأشياء، مشينا وأنا محاطةٌ بأسلحتهم الكهربائية. أحنيتُ رأسي وأنا أمرُّ أمام أعين الجيران وكأني لصٌّ أو مجـرم حرب هارب من العدالة. توقَّفَ عقلي عن العمل.. سـأذهب إلى السجن، ربما هذا أفضل، فأمثالي لا تليق بهم الحرية، وربما سأجد هناك من يحميني من نفسـي ومن هذا المجتمع الصاخب القذر! سأبقى هناك إلى أن أموت، فالأوراق التي معي كافيةٌ لإدانتي ولإدخال الشـيخ حسـن وعصابته إلى السجن.

هل أخبرهم أني اُختطفتُ واغتصبتُ وأني ضحية ولسـتُ مجرمةً؟ لكن إن أخبرتهم بأن إيفان اختطفني فربما سـيدخلونه إلى السـجن، وهو مريضٌ ولن يحتمل هذا! ضاق صدري وكدت أن يغمى عليّ. لا، سأضحي بنفسي من أجله إن استطعت، سأتحمّل كاملَ المسؤولية، سأخبرهم ما حدث معي في مركز النور وعن تلك المرأة وكيف غرّروا بها وبي..

وصلنا إلى مركز الشرطة، فأدخلوني إلى إحدى الغرف وأخذوا بصمات أصابعي، ثم جلستُ أنتظر في غرفةٍ أخرى ساعاتٍ وساعات صامتةً دونَ حراكٍ، إلى أن قطع صوت الشرطي سكينتي تلك:

- هيا معي إلى غرفة المحقق..

سرت أمامه، فأدخلني إلى المكتب وأغلق الباب خلفنا:

- أنتِ نوريستا؟

- نعم سيدي، ولن أطيل عليك الأمر، سأعترف لك بكل شيء. هذه الأوراق التي معي أخذتها من المركز لأنني كنت أنوي أن أعطيكم إياها كدليل إدانة لتلك المجموعة المتطرفة. وأما المسدس فهو لي. بعد أن وصلتُ إلى هنا لم يكن لديَّ مكانٌ يأويني، تعرفتُ على الشيخ حسن وزوجته ولم أكن أعرف شيئًا عن نشاطاتهم، كانت مهمتي أن أدرّس اللغة العربية، ولكن منذ فترة عرفتُ الحقيقة، وبالصدفة. تركتُ المكان بعد أن أخذتُ دليل إدانتهم معي، ومنذ ذلك الحين وهم يطاردونني ويريدون قتلي، ولهذا لم أجرؤ أن آتي إليكم وأسلم نفسي للعدالة وأسلمكم ما معي..

- جيد.. هذا سيحسن موقعكِ في القضية، ولكنكِ لم تعترفي بعد بجريمتكِ الثانية..

جف ريقي فسألته والخوف يقتلني:

- أي جريمة؟

- لماذا قتلتِ إيفان؟

أعادت الكلمة نفسها على مسمعي وكأنَّ صداها يتردد في نفسي الفارغة:

- ماذا؟ من؟ أنا؟ إيفان قتل؟ لا أعرف!!

- لقد اعترفتِ أنَّ المسدس مسدسكِ، ولقد اِطلَّعنا على ملفاته وعرفنا حقيقَته، فهو مجرم حرب وقد اختطفكِ واغتصبكِ وسجنكِ لسنواتٍ عدة، ثم عدتِ وهربتِ منه، وبعد التشرد وصلتِ إلى مركز النور. إنَّ هذا دليل كافٍ وسببٌ كافٍ لقتله، لذا لا مجال للإنكار!!

- لم أقتله! أقسم لكم أني أحبه! فكيف أقتله؟

قطع كلامي بكاءٌ مرٌّ فَجَّر دموعي سيولًا جارفة..

- لقد وجدنا المسدس قربَ الجثة وعليهِ بصماتكِ..

- لا ليس صحيحًا.. المسدس معي في حقيبتي، لم يفارقني يومًا، أرجوكَ أريدُ حقيبتي الآن..

نادى على المساعد، فأحضرَ كلَّ الأشياء التي حملوها معي من المنزل.

فتحت الحقيبة كالمجنونة وأنا أرتجف، جالت يداي في محتوياتها بين أوراق الصحف التي لففته بها فلم أجده.. صرخت بذهول:

- المسدس ليس هنا! لقد كان معي في الحقيبة والحقيبة لم تفارقني يوما.. ماذا حدث؟ من سرقه مني؟!

- ليس معكِ لأنكِ قد تركتِهِ قرب الجثة بعد أن أطلقتِ النار عليهِ.

- لا   لقد سُـرق المسـدس من حقيبتي.. أحدهم فعل هذا وقتله لينتقم منه ومني. أرجوك صدقني!

- ستبقين في الحجز إلى أن نكمل التحقيق..

- يا سـيدي أنـا ضحية! لو كنتُ قـادرةً على القتل لكنتُ الآن حرة أسـتمتع كالآخرين بحياةٍ هادئة..

لاحَ في عينيه طيف العطف وبعضُ الإحساس بألمي..

- لا تقلقـي، إن كنتِ بريئةً فلن تُظلمي، سـنوكل لـك محاميا ليتابع قضيتك إلى أن نكمل التحقيق وتظهر الحقيقة..

75

عدتُ إلى السجن، إلى غرفةٍ أخرى أعتزل فيها مع وحدتي دون كتاب أو صديق، دون إيفان. لقد كان سجني معه أرحم بكثير، كان سجنًا لا يتعدى حدودَ الجسد. لقد كانت روحي حرة، وأحلامي أيضًا.. لقدقتل؟ مات! ولم يعد موجودًا! لم يبقَ لي أحدٌ في هذه الدنيا؛ لقد كان كل عالمي رغم أنه قاتِلُهم.. مشاعرٌ غريبة لم أستطع أن أترجمها.

إيفان لم يمت، لقد قُتل.. قُتل بمسدسه، والمسدس كن معي. لقد أطلقت النار عليه واخترقته الرصاصات كما فعل بالآلاف. لقد لاقى نفس المصير! لا أنكر أني قد تمنيتُ أن أفعل هذا يومًا، ولكني لم أقوَ على ضعفي. حلمتُ أني أنفذ ما تمنيته، إلا أني -وفي كل مرة- كنت أستيقظُ مذعورة باكية، لأني قد تجرأتُ على التفكير في هذا.

بكيتُ كثيرًا في سجني الجديد، لم تعد عندي رغبة في تناول الطعام، أما النوم فكأنَّ بيني وبينه عداءً شديدًا، ما إن أستسلم له حتى تعود كوابيسي وماضيّ ومشاهد القتل والدماء لتسرقني من أحضانه وأنا أصرخ وأرتجف من الخوف، وها هم في إدارة السجن يحوّلونني إلى سجنٍ خاصّ بالمساجين الذين يعانونَ من الاضطرابات النفسية، بعد أن عرضوا حالتي على أحد أطباء النفسيين هناك.

بدأتُ أتابع بعض جلسات العلاج النفسي، حيث أخذ المعالج يغوص معي في خفايا ذاتي وطفولتي المسلوبة بين الحرب والجنس.. أخبرته عن ذلك الشيطان الذي يرافقني ويتربَّصُ بي، يزورني ويدفعني أحيانًا إلى القيام بأشياء لا أقوى عليها ولا أرغب فيها. وأخبرته بأنني كنت أتلمس بشرته وأحس نبضَ قلبه وأسمع أنفاسه، ورغم قبحه كنتُ ارتاح جدًّا عندما أقترب منه وعندما يلمسني، ليتحول بعدها إلى صورةٍ مني، يمارسُ معي الجنس أحيانا، ويغتصبني ويضربني أحيانًا أخرى عندما أُغضبه ولا أرضخُ لأوامره. كان صورةً مني ومرآةً لذاتي..

- هل كنتِ ترغبين في قتل إيفان؟

- أجل.. كنت أريد أن أقتل مشاعري تجاهَه، لأنها كانت تمثل لي الخطيئة بكل ما فيها من بُعد عن الله وعمّا تربيت عليه. كنتُ أُحسُّ أنَّ أرواح عائلتي تلعنني، وأشاهد أمي وهي تبكي وأبي ينهالُ عليَّ ضربًا وإخوتي يعلو عويلهم حتى يصل إلى السماء. عندما عرفتُ أنه مريض وأنه يحتضر تحوَّلَ هذا الشعور وهذه الرغبة إلى إحساسٍ قاتلٍ بالذنب، فربما أنا من أوصله إلى الموت دون أن أدري، وشعرتُ بقوّتي رغم ضعفي، وبالشرِّ الكامنِ في داخلي رغم إيماني وطيبتي!

- هل كنتِ ستعودين إليه بعد أن حضرت صديقتُه إليكِ ورجتكِ كي تسامحيه قبل أن يموت؟

- كنتُ أصارعُ نفسي بين القرارين.. أقنعها أحيانًا بأنَّ عليَّ أن أبقى بعيدةً لكي أحميه، وأحيانًا أرجوها أن تعود. لقد كنتُ خائفةً من مواجهة الموقف، والواضح أني كنتُ أحاول الهروب من مواجهة الموت من جديد..

كان يسجل ما أقول و يشغل نفسه بكتابة الملاحظات فلا أرى عينيه.

- نوريستا، يجب أن تعتني بنفسك، يجب أن تأكلي وأن تسترخي وتنامي، يجب أن تناضلي من أجل براءتك، فأنتِ ضحيتِ بكل ما للكلمة من معنى، ولكنكِ أيضًا قوية وإنسانة رائعة. الإنسان الذي في داخلكِ يصارع كي يبقى على قيدِ الحياة.. قولي لي، ما هو الشيء الذي تعتقدين أنّ بإمكانه أن يساعدك على النهوض؟

- الوحدة لا تزعجني، فلقد اعتدتها، ولكن ما يحزنني أني قد فقدتُ رغبتي في الحياة، في سجني الآخر كانت الكتب تُبعد روحي عن واقعها، أما الآن فأواجه الموت وجهًا لوجه، أدققُ في تجاعيدِه وفي تفاصيلِ لونِ عينيه، أراقب أنأمله التي أخذَت إيفان وهي تعود لتمتد إلى صدري، لتسحب أنفاسي كالخيط المقطوع من كنزة صوف..

ابتسم متعاطفًا وهو يشد على يدي:

- سوف أحضر لكِ ما تشائين من كتب، وسوف تنفضين عنك هذا الغبار وتنهضين من جديد. أنتِ بطلة.. أجمل رواية خطَّهَا الحبُّ فوق دماء الانتقام!

- لقد مات إيفان، وصارت قصة حبي دونَ حبيب!

- غدًا ستبنين صداقاتٍ جديدة، وستجدين حبًّا جديدًا. لستِ وحيدة، أنتِ قوية، أقوى مما تظنين.

غادر، ليعود بعدَ ساعاتٍ حاملًا معه الكثير من الكتب. أسعدني ما اختاره لي.. بناء الذات، ولغة الجسد، وعلم الفراسة، وكتبًا أخرى تحلل

الأنـا الذاتيـة والكليـة وتغوص في بحر النفـس وعلومها بعيدًا عن الفلسـفةِ والدين.

أدهشني هذا، كيف تجاهل من غاص في التدين والبحث في الماورائيات، علم الفلك والأحياء، وأسـرار الأرض، وفي فنون تهذيب الجسـد ورغباته. كيف تجاهلت تلك النفس البشرية الجزء الأهم المكمل للجسد ولسلوكياته ورغباتـه؟ إنَّ علم النفس، تلك النفس الملتحمة بالجسـد عالمٌ، قائمٌ بذاته، والركيـزة الثالثـة في الثالوث المقـدس الهرمي. الدين/ الفلسـفة/ والعلم. التفاحـة الثالثـة، التي فتحَـت بابَ التكنولوجيـا، وكان هدفُها إنقاذ البشـرية وبقيَـت تفاحةً مقضومةً وناقصـة، لأنَّ احتمال اسـتعمالها على وجهٍ خاطئٍ بإمكانـه أن يدمّـرَ الأرض. وها نحن بانتظار "التفاحـة الأخيرة" لتكمل تلك السلسلة والسلة.. التفاحة الأخيرة، تفاحة العدالة والقانون لتحكم الجميع، وفيما بينهم، لتظهر براءتي وتعيد آدم إلى الجنة التي خرج منها بسـبب خرقه لما مُنع عنه.

- نوريستا، المحقق يريد أن يراكِ.. لقد وصل المحامي الذي سيتولى مهمة الدفاع عنكِ.

76

- (ورد سالم) من مكتب السيد (برنارد) المحامي. لقد وكّلوني للدفاع عنكِ.

شدتني شخصيتها الفذَّة. سيدةٌ في العقد الثالث من العمر، عربيّة الملامح جميلة العينين، أنيقة وراقية، ذات ابتسامةٍ مطمئنةٍ هادئة ساحرة.. جاوبتها بهدوء:

- سرَّني لقاؤكِ، ولكني يا سيدتي لم أقتل أحدًا لكي تدافعي عني، لماذا يتهمونني أنا، فليبحثوا عن المجرم الحقيقي؟!

- إثبات براءتك هو سبب وجودي هنا. سيدة نوريستا يجب أن نتكلم.. يجب أن تخبريني وبالتفصيل عن كل شيءٍ مهما كان بسيطًا وتافهًا، فوراءَ أصغر التفاصيل تكمن أحيانًا حقائقُ الأمور..

- حسنًا، ولكن يجب أن تؤمني ببراءتي، فأنا لا أقوى على إيذاءِ أحدٍ مهما كان، فكيف لي أن أقتل من أحببت؟

- لا تخافي، سنصل إلى الحقيقة. ولكن الآن الأهم من هذا هو أنتِ، فكلُّ خيوط القضية متعلقةٌ بكِ وحدكِ.. هيا أخبريني عنكِ!

قصصتُ لها ما حدثَ معي منذ أن دخل إيفان إلى المخبأ وأطلق النار على عائلتي، حتى دخَلَت الشرطة وألقت القبضَ عليَّ.

- هل كان لغرفتكِ في ذلك المركز مفتاحٌ آخر؟

- لا أعرف.. ربما.. فهُم أصحابُ المكان، ومن البديهي أن يملكوا نسخةً أخرى من مفاتيح البيت.

- هل لاحظتِ يومًا أنَّ أحدًا ما قد عبث بأغراضك؟ أو أنكِ فقدتِ أشياء، أو وجدتِ ما وضعتِه في مكانٍ معين في مكانٍ آخر مثلًا؟

- لا لم أنتبه لهذه التفاصيل.

- هل كان أحد على علمٍ بوجودِ المسدس معكِ؟

- في المركز لا أعرف، فمنذ دخولي إلى هناك لففته بأوراق الصحف ووضعته في الحقيبة داخل الخزانة. لم تكن الحقيبةُ ظاهرةً، ولكنها أيضًا لم تكن مخفيّة، بمجرد أن يفتح أحدهم الخزانة ويدقِّقَ النظر بين الملابس من الممكن أن يراها.

- لقد قلتِ لي إنَّ الشيخ حسن كان مهتمًّا بمعرفة شخصية خاطفكِ وقاتل عائلتكِ..

- أجل وكان مصرًّا، وقال لي إنه سيحاول أن يصل إليه.

- هل كان عندكِ عنوان البيت، بيت إيفان بين أوراقكِ؟

- لا لم يكن معي ما يشير إلى إيفان سوى بطاقة ماري أخته، والتي كنت أستعملها أحيانًا عندما أحتاج إلى إثبات شخصيتي رسميًا.

- أين هي البطاقة الآن؟

- لقد أعدتُها إلى إيفان يومَ أرسلتُ له الرسالة مع ماغي..

- سوف أستوضح الأمر منهم، لقد وجدوا رسالتك بين أغراضه. قالت ماغي إنها سلّمته إياها وأعطته منديلًا أسود كنتِ قد ألبَستِها إياه عندما زارتك. لقد بحثَت الشرطة عن المنديل ولكنها لم تجده..

- ماغي طيبة جدًّا.. لولاها لكنتُ الآن في بلاد الحرب والموت..

- هل تعتقدين أنَّ هناك شخصًا يريد أن ينتقم منكِ ومن إيفان؟ هل هناك من كان يشك في ولائك للجماعة؟

- لا أعرف! لقد كنتُ قلقةً في الآونة الأخيرة، وكنتُ أرفض أن أعلّم التلاميذ ما يقررونه لي من أفكارٍ ومناهج. وبعد ظهور تلك السيدة على الجهاز تغيَّرت علاقتي بسيف، حتى حبيبة عندما أخبرتها عن تلك المرأة وبأنها تعرفها وتطلب مساعدتها انتابها الخوف، وباتت تتصرف معي بحذر رغم إنكارها للموضوع.

- هل تعتقدين أنَّ الشيخ حسن أو حبيبة قد فعلَا هذا؟ هكذا يتخلصون منكِ، ويقتلون مجرمَ حرب كافر يفتحُ لهم قتلُه بابَ الجنة..؟

- من الممكن.. فأنا لم أفتقد أو أتفقد المسدس منذ دخولي إلى البيت. ويوم قالت لي الشرطة إنهم قد وجدوه قرب الجثة تفاجأت ورحت أبحث عنه في الحقيبة، وعندها فقط اكتشفت أنه ليس معي.

- حسنًا، لن أرهقَكِ أكثر اليوم. سأتابع تقارير الطبيب النفسي وأعود إليكِ ثانيةً. لا تقلقي، ستظهر الحقيقة إن شاء الله، إني مؤمنة ببراءتكِ وسأحاول فعل المستحيل لإظهارها..

غلبني فضولي وأنا أراقب وجهها، فقلت لها قبل أن تمضي وتتركني:

- آسفة سيدة ورد، يبدو أنَّ قضيّتي قد سبَّبت لكِ الحزنَ والقلق. ألاحظ هذا، وكأني قد فتحتُ لديكِ أبوابًا قديمة تخفي خلفها الكثير من الألم والحزن.

تنهَّدت وهي تجمع أوراقها محاولةً إبعادي عن التفكير بأمورٍ أخرى تقلقني:

- أنتِ محقة نوريستا. يومًا ما سأخبركِ بقصتي، فقط على سبيل العزاء وشحذ العزيمة. الحياة مليئة بالمآسي، وما دمنا أحياءً يجب أن نناضل ونكافح كي نستمر. أنتِ إنسانة رائعة، ويسعدني أن أعمل لأجلك وأن نكون أصدقاء، وإن شاء الله سنحتفل معًا ببراءتكِ وسأحاول عند خروجكِ أن أساعدك على الحصول على فرصة عمل لائقة. أرجوكِ اهتمي بنفسك وتسلحي بالأمل. العقبة التي تواجهينها خطيرة، وأدلة براءتكِ قليلة، ولكن علينا أن نتمسّك بالأمل. لن تكون قضيتك يا نوريستا قضيةً عابرة بل ستكونين بكل ما فيكِ ثورة ضدَّ ما تعانيه المرأة من إجحاف وظلم، وضدَّ ما أورثَتها أفكارُ أجيالٍ كثيرة من عبودية.

غادرَت ورد، وعدتُ أنا إلى عزلتي، وأسئلةٌ أخرى تراودني. ماذا تحمل هذه العيون الدامعة خلفها؟ ومن أي مأساةٍ أتت لكي تدافع عن مأساتي؟!

77

مـرَّت الأيامُ طويلةً وقاتلة وأنا أفكر في إيفـان.. أين دُفن؟ من كان بقربه عند موته؟ من هو هذا القاتل؟

لا أعـرف لمـاذا لا أزال فـي الحجز ولـم ينقلوني بعد إلى السـجن، ولا لمـاذا أقبـع وحدي في هـذه الغرفـة الصغيرة. لقـد أبلغني المحقـق أنَّ هذا الإجراء احترازي، حرصًا على سلامتي، فهذه الشبكة المتطرفة خطيرةٌ جدًّا، ولهـذا عليهـم أن يحافظوا على سـرية القضيـة إلى أن يلقـوا القبض عليهم. السـبب الآخـر كان حالتي النفسـية.. لقد أخـذوا ما أمكن أن يشـكل خطرًا على حياتي، حتى شـريط الحذاء، الأكواب والأطباق الزجاجية والأسـلاك الكهربائية.. لقد فهمت إن حالتي تقلقهم وربما سـاقارب الجنون، لقد كان توقعهـم صحيحا لولا تلك الكتب التي كانت تأخُذُني ومن جديد إلى مكان آخر من واقعي، أما تلك الفسحة اليومية في الحديقة حيث لم يتبق لي هناك سـوى المشي والاسـتمتاع بحرارة الشمس وأشـعتها، ليدخل هذا إلى ذاتي بعـض الأمـل والهـدوء، متجنبة السـجينات -رغـم توددهـن- ولكن تلك المتعة كانت تتلاشـى عند عودتي الى سجني فتعاودني حالتي التي خرجت بها، وكأنَّ الحزن رداءٌ معلّقٌ على بابي يرتديني ويتلبَّسُـني كخيالي، وصوت المحقق يتردد في زوايا المكان.

- للأسف.. موقفكِ ضعيفٌ جدًا.. المسدس كان معكِ وأنتِ اعترفتِ بهذا، ولقد كتبتِ في رسالتكِ لإيفان يوم رحيلكِ بأنكِ كنت ترغبين في قتله، وفي رسالتكِ الأخيرة قد أشرتِ إلى ذلك أيضًا.

وحدها ورد كانت متفائلةً، وتحاول دائمًا أن تزرع الأمل في نفسي المتعبَة..

- لا تخافي نوريستا.. هناك معطياتٌ إيجابية كثيرة، ومازال التحقيق مع الشيخ حسن وزوجته جاريًا. ليست هناك أدلة تدينهم في هذه القضية، ولكنهم في دائرة الاتهام. عندما قابلتهم أدركتُ أنَّ إثباتَ تورطهم صعبٌ جدًّا؛ إنهم عصابةٌ محترفة، ومن يدعمهم أيضًا أخطرُ منهم، فهم حلقة صغيرة في سلسلةٍ تعمل على نشر الإرهاب والقتل وتشويهِ الدين وعقولِ الشباب، لخدمة هذه الشبكات العالمية، وللأسف تلك الشبكات محمية- ولها حصانتها وينمو تحت مظلتها تجارُ المخدّرات ومصانعُ السلاح وشركاتُ الأدوية والمافيا، والدول التي تستفيد من النفط ومن الإتجار بأعضاءِ البشر وكل ما لا يخطر لكِ على بال..

- ماذا يعني هذا؟ هل سأقضي ما تبقى من عمري حبيسةَ هذا السجن؟

- سأحاول المستحيل من أجلكِ.. لا تقلقي، ستُحلّ الأمور أرجوكِ تفاءلي بالخير

- ماذا قالت ماغي؟ لقد كانت الأقرب إليه من أي أحدٍ آخر

- اطَّلَعتُ على التحقيق وما قالته.. إنه بعدَ أن التقتكِ عادت إليه حاملةً معها رسالتكِ والمنديل الذي أعطيتها إياه، وأخبَرَته بأنكِ ستعودين قريبًا،

ولقـد كان سـعيدًا بالخبـر وبعدها طلب منهـا الرحيل لكي يقرأ الرسـالة وحده. قالـت إنها تركَته ورحلَت، وعندما عادت في الصباح لكي تحضر له الفطور وجدته ملقًى على الأرض غارقًا في دمائه والمسدس كان قربَه، فاتَّصَلت بالشرطة وعندما أخبَرَتهم بما حدث في الليلة السابقة بحثوا عن المنديل فلم يجدوه..

- والبطاقة؟ كان في مغلف الرسالة بطاقة تخص ماري شقيقته..

- للأسف لم يجدوها..

- إنَّ مَن فعل هذا يريد أن يورطني فعلا!

- الفاعل يدرك أنَّ المنديل لكِ، لهذا أخذه معه..

- هـذا المنديـل كنت قد حصلتُ عليـه كهدية من حبيبة عنـد دخولي بيتهم لأول مرة..

- غريب.. ولكن حتى هذا لن يكون دليل إدانة كافيا عليهم، فلم يجدوا على المسـدس سـوى بصماتكِ أنتِ. ولنفرض أنَّ أحدًا ما قد أخذ المسدس، هـذا يعني أنه قد خطط منذ البدايـة لكي يوقع بكِ في خيوط هذه الجريمة إلا إذا...

إلا إذا ماذا؟!

- نوريسـتا، اسـمعيني جيدًا.. الطبيب النفسـي في تقريره يؤكد أنكِ تعانين من عوارض حالة نفسـية تشـبه انفصام الشـخصية، ويقول فـي تقريره إنَّ الاشـخاص الذين يعانون من هذا المرض النفسي يقومون أحيانًا بأعمال غير إرادية دون أن يتذكروا لاحقًا ما قد فعلوا..

أصابني ذعرٌ شديد.. سألتها مستفسرة:

- هـل تعتقدين أني قـد قتلته؟ هل يعتقد الجميع هـذا؟ كيف تتخيلون حتى وأنا غائبةٌ عن الوعي أني قد أقوى على فعل هذا؟

- إنه تصوُّر، لم يقل أحدٌ أو يجزم بأنكِ أنتِ الفاعلة. سوف تكملين علاجكِ وبعد أن تشفي سيُستكمل التحقيق معكِ..

- هـذا ظلـمٌ، والله إنه ظلم! كيـف تفعلون بي هذا؟ كيف أقتلـه وأنا أحبه.. رغم ما فعله بي..

رحتُ أبكي بمرارة، فرفعت رأسي بلطفٍ وكلمتني بثقة:

- وعدتـكِ بأني لن أدعكِ وحيدة. اسـمعيني جيدًا، إن ثبتَت عليكِ الجريمة ولـم يُكتشـف الفاعـل الحقيقي، هذه المشـكلة النفسـية سـتكون خشـبة الخلاص التي سـتخرجك من هنا إلى الحريـة، ويمكن أن تصدر براءتُك بسبب حالتك النفسية هذه وما تعرضتِ له من ظلمٍ طيلة هذه السنين..

- ولكني فعلًا بريئة ولم أقتله صدقيني..

حضَنَتني بعطف:

- اهدئـي أرجـوكِ. لم يُدِنْكِ أحدٌ بهذا، والتحقيـق جارٍ، ولكن في حال بقي الفاعـل مجهولًا فسنسـتخدم كل مـا نملك لكي تخرجي مـن هنا.. هناك فرق بين التهمة والإدانة؛ هل تفهمين؟

- أجل..

- أنا أؤمن ببراءتِكِ، ولكن القانون لا يتحرّك إلا بالأدلة الملموسة. أرجوكِ تماسكي وكوني قوية لكي نخرج من هذه القضية منتصرين. إنَّ مأساتكِ جزءٌ صغير من مآسي العالم، صدقيني، ربما أنتِ محظوظة الآن لأنكِ هنا وبمأمنٍ من تلك الجماعة، فماذا كنتِ ستفعلين لو أنكِ سافرتِ، ولو أنكِ قد عدتِ إلى دائرةِ الاغتصاب من جديد؟

- آه! الحمد لله.. أنتِ محقة.. لو حدث هذا لكنتُ الآن حبيسة سوق النساء وسلعةً لشهوات الرجال.

- اسمعي، غدًا يوم إجازتي، سآتي لزيارتكِ بعيدًا عن زيارة العمل، هذا إن لم يكن لديك مانع، وسأحضر معي بعض الطعام لنتناولَ غداءنا سويًّا، ما رأيكِ؟

تفاجأتُ من عرضها هذا، فلم يكن لي يومًا صديقة، ولا أعرف كيف تبنى الصداقات إلا من خلال الكتب. بعد تفكير ابتسمتُ مرحبةً بالفكرة:

- أهلًا بكِ بكل تأكيد، هذا يسعدني فعلًا، فلم أختبِر مسبقًا هذه المشاعر الإنسانية..

ضحِكَت بلطفٍ وهي تربت على كتفي..

- حسنًا لنختبر هذه المشاعر سويًّا!

غريبٌ ما سمعته. هي أيضًا وحيدة رغم مركزها ووظيفتها وعالمها المليء بالمشاغل. مثير هذا، غدًا سأقرأُ كتابًا جديدًا.. كتابًا حيًّا يحمل سرًّا آخر من أسرار الحياة..

78

تكررت زيارات المعالج النفسـي، (ألبرت نيدر) الذي غاص في أعماق روحي وأخرج منها اللؤلؤ الذي تلوّن بلون الدم..

- أخبريني نوريستا ما لم تخبري به أحدًا..

- كنتُ أكرهُ أمي وأبي، لقد أخبرتك. كنتُ أخافُ منهما وأخشـاهما لدرجة أني كنتُ أتمنى موتهما لكي أهرب من العقاب عندما أرتكبُ خطأً ما..

- وكيف كانت علاقتكِ بالله؟

- كعلاقتـي بأهلي، كنتُ أحبُّه لأني أخشـاه، لقد كان بالنسـبة لي خليطًا من أمي وأبي وأستاذي وجيراني، وعندما بدأَت الحرب كان يساعد الجميع، كل مـن يطلبُـه ليقتـلَ الآخر، وعندما لـم يتدخل لوقف حمـام الدماء هذا نفرتُ منه أكثر. أما ذلك الشـيطان الذي كان يظهرُ لي وأنا في سجني فقد كان رفيـقَ روحـي منذ الطفولـة، يحثُّني على معرفة مـا لا أعرف، يدفعني لأتمرَّد على كل شيء ويريدني ألا أنصاع لأي شيء. لهذا هربتُ من إيفان عندما فتحَ لي الباب، لم أتخيل أن أُفوِّت على نفسي فرصةَ اكتشاف الحياة واختبار أحاسيسـي ومشـاعري، كنتُ أتوق إلى قيادة نفسـي إلى المعرفة والاختبار والتجارب..

- إن طلبتُ منكِ أن تشبّهي نفسكِ بحيوان، فماذا تفضلين أن تكوني؟

- أسد.. وأحيانًا أخرى أرنب، وكثيرًا ما أحس نفسي كالأفعى أزحف بصمتٍ دون أطراف.. فأر.. وحلزونة.. حلزونة صغيرة..

- ومن هي نوريستا المرأة؟

- هي الحلزونة الرخوة الهشة غير المتماسكة دون عمودٍ فقري تزحف كل الوقت، تحملُ على ظهرها منزلها الصلب القاسي وتجرّه معها أينما ذهبَت، وتختبئ داخله كلما أحسَّت بالخطر القادم من الخارج أو من مخاوفها..

- في مراحل عمركِ المختلفة، الطفلة، الأخت الكبرى المسؤولة، الشاهدة على جرائم الحرب، المغتصبَة المتعايشة مع ألم الاغتصاب، المثابرة التي علَّمت نفسها، الحبيبة التي تحدَّت الممنوع، الأم الطفلة، الفيلسوفة، المتشردة، العاهرة، المتدينة، الأرملة، المتهمة، المريضة نفسيًا، السجينة.. أين أنتِ من كل هذهِ المراحل؟

- مرحلة الموت كانت الأقسى، موت عائلتي، موت طفلي، وموت إيفان.. الموت هذا الوجع الذي يدمينا، فالأموات لا يتعذبون من الموت مثلنا، إن سلّمنا بفرضيّة انتظار الأرواح للعقاب يوم القيامة، فالموت هو عذابٌ للأحياء، ولقد كان موت طفلي أقساها لأنه جزءٌ مني ويمثلني. كانت مشاعري تجاهه غريبة، لقد أحبَّه إيفان أكثر مني، لأنه صاحب القرار، وحده من يستطيع أن يرسم مستقبله كما يريد، أما أنا فكنتُ أخاف منه على طفلي مثل خوفي على نفسي. في حياته القصيرة معي ذقتُ أقسى

أنـواع الخوف، كانت مشـاركته لحياتـي تحمّلني عبئًا آخر لـم أكن أقوى علـى حملـه وأنا لاأزال طفلة، ربما لأني قد تعـودتُ على العيش وحيدة. حتـى الآن أخاف من الاقتراب من أي إنسـانٍ كان، أخـاف أن أكون جزءًا من حياة أحد، وأن يكون أحد جزءًا مني. ربما لأني أعتقد بأني سـأُعاقب لاحقًا بفراقه. أما ألم اغتصابي، فكان مفتاحًا لدخولي إلى جسـدي الذي كان محرمًا عليّ دخوله، تخيل أن تحيا وأنتَ غريبٌ عن نفسـك. اعتبرتُ إيفان شريكي في جسدي ولهذا قبلته، ولكن عندما تكرر مرور الرجال في حياتي، تأكدتُ أني أصبحتُ أملكُ جسدي، لقد أصبحَ ملكًا لي وحدي.

- هل أعجبتكِ حياةُ الغانية أكثر من حياة التدين؟

- الغانيـة والمتدينـة كلاهما أنا، الإنسـان.. مزيج من الاثنيـن.. لو لم أختبر حياة الجسـد لما اسـتطعتُ أن أحبَّ اللـه. في البدايـة كان تقربي من الله يحكمـه الخوف والعقـاب، الظلم والموت، وبعـد أن خرجتُ من دائرته وعـدتُ بمـلء إرادتـي، تغيَّـرت علاقتي معـه، أصبَحَ الحبيـب والصديق والـروح، وبـات قمعـي لمشـاعري امتـلاءً واكتفاءً بـه عمّا سـواه.. لهذا أَحبَّ اللـه الخطائين التوابين، لأنهم وحدهم من يدركون سرّه ويصلون إلـى رحمته ومعرفته.. لهذا حمى السـيد المسـيح المـرأة الزانية، حماها لأنه يدرك بأنها سـتكون أشـدّ حبًا و أكثر إخلاصًا لـه، لأنه لم يكن قدرها المفـروض عليها، وإنما هي من اختارت بكل عقلها وقلبها وجوارحها.. لهـذا كانت رابعة العدوية قديسـة عربية، وأكثر النسـاء إيمانا وعشـقا لله، ولهـذا أحبَّـت ماغي إيفان، أحبَّته أكثرَ مني، لأنه لـم يُفرض عليها بل هي

من اختارَته، وأحبَّني أكثر لأنه قد اختارني، أما أنا فلقد عشقته أكثر عندما هجرته وأصبحت حرة..

- هل ستحبين من جديد؟

- لا أعرف، إن نفسي الآن تشبهُ شبحًا ممسوخًا، معجونًا ببعضه البعض، الرأس في مكانٍ غير مكانه، الأيدي أيضًا والأرجل، والقلب ربما مكانَ العين والأعين في أصابع الأرجل والصدر في الرأس والفم في أخمص القدم.. هل سيأتي أحدٌ ما ويقبلني كما أنا ويعيد تشكيلي، يساعدني كي أرتب نفسي من جديدٍ بحبٍّ وصبرٍ وحنان؟!

- ربما نوريستا، ربما هو قريبٌ منكِ، وربما هو بعيدٌ ولن يأتي. عليكِ أن تكوني حاضرةً دائمًا بذاتك، عليكِ أن تبتسمي حتى وإن لم يأتِ أحد، فغدُكِ ستصنعينه بنفسكِ مع القادم أو بدونه..

- أدرك هذا..

- هل تحبين الكتابة؟ لماذا لا تكتبين؟

ابتسمتُ قائلةً:

- لقد ذكّرتني بشيطاني العزيز، لقد كان يدفعني دائمًا لكي أكتب، ولقد فعلتُ ما طلبه مني..

- حقًّا؟

- أجل.. في كل مراحل حياتي كنت أدوّن له صراعي معه ومع نفسي، كذلك الراهب الذي أخبرني عنه والذي زار حياتَه وأخضعه لاختباره.

قال لي وهو يبتسم وكانت عيناه ترجواني:

- هل ستسمحين لي أن أقرأ ما كتبتِ؟

- سأفكر بالأمر..

- حسنًا، عندما تقوَينَ على واقعكِ وعلى نفسكِ أعطني ما كتبتِ وسأنشره لكِ في الصحيفة، ما رأيكِ؟ هل تخافين من مواجهة الواقع؟

أثارتني الفكرة وأدخَلَتني في حيرةٍ وصراعٍ جديدين مع ضعفي..

- لا أعرف.. أعطِني بعض الوقت..

- جيد.. سأذهب الآن، ولا تنسَي فعرضي قائمٌ دائمًا.

بعد ذهابه شعرتُ بالراحة، وكأنَّ هناك ثغرة قد فُتحت في جدار وتسرب منها النور. هل من الممكن أن أغيّر قدري، حتى وإن حكموا عليّ بالسجن مدى الحياة؟!

79

عادت ورد لتزورني كما وعَدَتني. لأول مرة أنتظرُ أحدًا ما بشوقٍ ولهفة.. كنتُ خائفةً ألا تأتي، وعندما حضَرَت لم يكن صعبًا عليها أن تُدرك مشاعري هذه، فلم تتردد في احتضاني حين مددتُ لها يدي متردِّدة بين الاقتراب وتركِ مسافةٍ بيننا. التَصَقت أجسادُنا، فشممتُ عطرها ورحت أبكي دون إرادتي. شيءٌ ما، وكأنه عطشُ وشوقُ سنين لحضن الأم، الأخت، الصديق والإنسان بكل صوره. عندما ابتعدت قليلًا، وجدت دموعها قد شقت طريقها عبر وجنتيها لتتركَ آثارها على ثيابها الحريرية.. ثم رحنا نضحك مما حدث، وأخذنا نمسح دموعنا كما الأطفال..

- سعيدةٌ أنكِ أتيتِ.

- وأنا أيضًا، انظري اشتريتُ لكِ أشياء كثيرة..

أخذتُ ما أحضَرَته وشكرتها..

- حضوركِ أكثر ما أسعدني..

- أعرف يا نوريستا، ولكننا سنمضي اليوم هنا في غرفتك وسنذهب بعد الظهر إلى الحديقة سويًا، لقد أخذت إذنًا بذلك. سيسمحون لي أن أبقى معك طول النهار، ولهذا سنحتاج لبعض التسلية وإلا فسيمنعنا الجوع عن الكلام..

ضحكنا معًا؛ أجل، لقد ضحكتُ من جديد.. نشاطٍ لم أعتَد عليه، ولأول مرة بعد موت ابني أسمعُ ضحكتي التي وُلدَت بولادته وماتت بموته.

- أخبريني كيف تسير أمور علاجكِ النفسي؟

- جيدة، ألبرت المشرف على علاجي شخصيةٌ رائعة، لقد عرض عليَّ أن ينشر قصَّتي منذ طفولتي إلى الآن

في إحدى الصحف المهمة في البلد..

- آه! ممتاز! وهل وافقتِ؟

ابتسمتُ، فشَعَّ ذلك التحدي المدفونِ في عينيّ، ثم عاد ليخفيه خوفي وقلقي من الغد..

- لا أعرف.. صعبٌ أن أحوِّل ألمي إلى غسيلٍ أنشرُه على حبال الحياة..

- ولكنكِ ضحية، ويجب أن يسمعَ الجميعُ صوتكِ، ويجب أن يكون ما حدثَ عبرةً وانطلاقةً لإخراج المرأة من دائرة العنف والانتقام. أنتِ قوية، ثم إنك ليس لديكِ ما تخسرينه، بل على العكس، لو تحولت قضيتك إلى قضية عامة ربما ستصبحين سفيرةَ الأمم لحقوق المرأة، وبإمكانك أن تنتشلي براءتَكِ من براثن الحياة. أنتِ تستحقين ذلك بصمودكِ وصبرك كل هذا.. يا ليتني مكانكِ، لو استقويتُ قليلًا على ضعفي لفعلتُ هذا قبلك.

- لفعلتِ ماذا؟ أنتِ محامية وتدافعين عن حقوق المظلومين..

- ولكني عاجزة عن أن أكون محاربةً كي أدافع عن حقوقي.. منذ سنين وقفتُ مثلكِ متردِّدة، هل أتكلم؟ هل أكتب؟ هل أصرخ؟ لكني ضعفتُ وفضلّتُ أن ألتزم الصمت. لم أكن واثقةً من قدرتي على التغيير.. لقد خفت.. خفتُ من أهلي ومن المجتمع، وخفتُ أيضا عليهم..

حل الصمت بيننا من جديد، ثم قلت:

أشعر بأنَّ هناكَ شيئًا يدميكِ..

- ألم أقل لك إنَّ مأساتكِ جزءٌ صغير من مآسي هذا العالم ومن وجع نسائه؟!

- من أين أنتِ ورد؟ يبدو أنَّ جذورنا متشابهة، وكأننا وُلدنا من رحم الخوف نفسه..

- أنا من بلدٍ عربّي أخذ استقلاله منذ سنين. كان منهكًا متعبًا، يريد أن يستريح فنصَّب قائدًا من قواد ثورته على حكمه، وكان ما كان.. انشغل الشعبُ في بناء حياته، بينما انشغل هذا الحاكم بالعبث بمصائر نساء أمّته. بنى حولَه مجموعةً من الحرس الشخصي، وراحوا يبحثون له عن فتياتٍ صغيراتٍ جميلات يقتلعونهنَّ من عائلاتهنَّ مقابل الكثير من النقود، وأحيانًا بالتهديد، وذات يوم خلال زيارته لمدرستي وقع نظره عليّ. كنتُ سعيدةً جدًّا لأنه قد صافحني عنوةً. لم أعرف إلا لاحقا أنَّ تلك اليد ستمتد على جسدي ذي الأربعة عشر ربيعًا لتحوّل ربيعه إلى صحراء قاحلة. بعد أسبوع أُخِذتُ من حياتي الجميلة الهادئة، ولأبقى سجينة إحدى الغرف في قبوِ قصره لأعوام طويلة..

لم أكن أصدق ما أسمع.. ما قالتْهُ هزَّ كياني، والتَقَطنا أنفاسنا بصعوبة، أنا لأسمع وهي لتكمل. أخذَت نفسًا عميقًا وهي مغمضةُ العينين، وكأنها تتحسسُ تلك اللحظات بكل تفاصيلها..

- ربما إيفان الذي يناصب انتماءتك العداء كان أشدَّ رحمةً و أكثرَ شفقة ممن يحمل نفس العروق ونفس الدماء. ألم أقل لكِ يا نوريستا أنك محظوظة، فلقد أحببتِ خاطفكِ وأحبكِ وتحوّلَ الاغتصاب إلى عشقٍ متناغم بين أطيافٍ متباعدة.. أما أنا، فمنذ اللحظة الأولى إلى يوم هربي كنتُ أمارس أقذر أنواع الاستباحة والفحشاء وتمارس عليَّ أقذرها أيضًا..

عاد الصمت ليخيم من جديد، كانت أيادينا الباردة تحتضن وتعزّي بعضها البعض.. جسدان مزقهما الانتقام، وروحان قد تشوهتا من هولِ ما حدث لهما، ورغم تشوههما وإعاقاتهما عليهما أن تحييا وتستمرًا..

- ولكنك الآن هنا..

- ربما.. لكن قصتي لم تنتهِ. فبعد هربي استقررتُ في هذا البلد الآمن، ولحقت بي عائلتي.. تلقيتُ علاجًا نفسيًا ورعايةً خاصة إلى أن تمكنتُ من تجاوز هذه الأزمة، فأكملت دراسة القانون إلى أن تخرجتُ وبدأت تدريبي في مكتب المحاماة الذي استلم قضيتكِ..

- رائع، رغم هذه الآلام فالنهاية سعيدة!

- لولا الجزء الأخير من القصة، والذي لم أخبركِ به بعد، لكان مسار الأمور قد بقي في جماليات النهايات..

- أثرتِ فضولي... أخبريني ماذا حدث بعدها؟

- بـدأت الثورة في بلادي، واستيقظ الشعب من ذلك المخـدر الذي كان يتعاطـاه.. مخـدر الضعـف وعـدم القدرة علـى التغييـر. قـررتُ العودة، فسيطيحون بذلك الطاغية ويجب أن أكون هناك. عزمتُ على السفر رغم معارضة العائلة، ولكنَّ هناك نارًا تستعر في داخلي، نارٌ لن يطفئها شيءٌ سوى انخراطي في صفوف الثوار، علّني أستطيع أخيرًا أن أرفع صوتي وأن أساهم في استرجاع بلادي ممن استباحها. وهكذا فعلتُ.. سافرتُ ووطأت قدمي من جديد أرض موطني، نزلتُ إلى الشارع، تظاهرتُ وأفرغتُ ما في داخلي لأول مرة. كنت أرفع صوتي في تلك الساحات التي كان ممنوعًا علينا الكلام أو حتى الهمس فيها.. أحساسٌ رائع بعد عشرات السنين من الصمت والخضوع والخنوع.. حملتُ العلم، وأنشدتُ أغاني الانتصار حتى بحَّ صوتي.. تغلبتُ على خوفي، وعدتُ لأزورَ مقر اعتقالي، ذلك المكان الذي أمضيت فيه مراهقتي وشبابي. جلتُ في أرجائه المهدّمة وأنا أكاد لا أصدق أنَّ هذه الإمبراطورية التي بناها قائدها على أجساد أبنائها ودمائهم قد تحوَّلَت إلى دمار..

سكتَت قليلًا، وتحولَ ذلك الانتصار في عينيها إلى هزيمة. كنت أتوق لمعرفة ما حدث، وقبل أن أرجوها أكمَلَت حديثها بصوتٍ مخنوق..

- عندما هممتُ بالخروج من هناك، وروحي تحاول إقناعي بأنَّ ما كان قد انتهى، تحلَّقَ حولي العديد من الثوار المسلحين والذين كنت أناصرهم وعدت من أجلهم.

- لا هذا مريع.. لا تقولي لي إنهم قد اعتقلوكِ؟

- لقد فعلوا، اتهموني أني من أتباع الرئيس السابق وقادوني إلى المعسكر. لم يسمحوا لي أن أتكلم، لم يصدقوني، لم يسمعوني، فعادت تلك الثورة التي ساندتها، لتغتصبني من جديد. أسابيع مرَّت وأنا في الاعتقال يستباحُ جسدي من جديد من أهل بلادي، دون قدرةٍ مني على الاعتراض أو القبول، إلى أن تدخَّلَت عائلتي وسفارة بلادي الجديدة، وبعد أن تأكدوا من كوني مجرد ضحية أطلقوا سراحي وعدت إلى هنا.

- ما هذا؟ لماذا؟!! وإلى متى ستبقى أجسادنا ساحةَ حربٍ وحقلَ اختبار ومقياسًا للنصر وللهزيمة؟!!

- لا أعرف يا نوريستا.. ما أعرفه أني عدتُ إلى المصحة النفسية لأُعالَج من جرحٍ جديد. إنَّ الظلم لا يتجزأ وليس حكرًا على دينٍ ضد دين، أو على مذهب ضد آخر، أو بلد أو قوم.. كلُّ قويّ يبني أمجاده على من هو أضعف منه. وعدت إلى عملي بعد إجازة نقاهة استمرت شهورًا طويلة، لأجد ملفكِ على مكتبي..

لم أستطع الكلام، واكتفيتُ بالتحديق في عينيها بدهشة..

- سامحيني! لقد أدميتُ قلبكِ الجريح بقصتي، ولكن علينا أن نعيش في أي ظروف كانت. حتى حقدنا وانتقامنا لن يفيدا، على العكس سيدمرانا أكثر مما فعلوا هم بنا..

- أنتِ محقة..

خطر لي أن ورد سالم ايضا أسطورةٌ أخرى لامرأةٍ حصَدَت بجسدها ما زرعته تلك التفاحة الأولى!

خرجنا إلى الحديقة وتناولنا الغداء. أخبرتني بأشياء أخرى محزنة، وبدل أن نبكي رحنا نضحك.. نضحك أحيانًا على خيباتنا، وأحيانًا أخرى على خيبة الحياة ويأسها من تدميرنا. لم يكن سهلًا عليّ أن تفارقني بعد هذا النهار الجميل الذي كرّس صداقتنا، ولكنها وعَدَتني بأنها لن تتركني ثانية، وعندما سأخرج سوف أنتقل للعيش معها، وستعرّفني على والديها وإخوتها وسيصبح عندي عائلة من جديد. هذا ما قالته لي قبل أن ترحل، ورَجَتني أن أنشر قصتي في الصحف، لكي لا نكون ضحايا وشياطين خُرْسًا، ربما ساعد هذا في تحريك الرأي العام وإطلاق سراحي وسراح حواء من سجن الخطيئة وسطوة الرجال.

80

جريدة اليوم - قصة العدد

التفاحة الأخيرة.

بقلم السجينة نوريستا.

اقتـرب أحـدٌ مـن مدخـل المخبأ، أصـواتُ انكسـار الأغصـان وأوراق الأشـجار اليابسـة يجرح سـكونَ الصمتِ السـائد هناك، ضربـات القلوب تتعالى والأنفـاس تقف عالقةً بين الفراغ والأفـواه المفتوحة.. عاد الصمت ليخيـم علـى المكان من جديـد، ولكن الأعين لم يسـكنها الأمـان، لا تزال تترقبُ المصير القادم من المجهول.

حواراتٌ ونقاشاتٌ وقرقعات الأسلحة، كل هذا عاد ليكسر الصمت من جديد، وكأنَّ هناك مؤامرةً تحاك. خوفٌ وقلقٌ وتعطش لمواجهة المجهول، فدقائـق الانتظار باتـت طويلةً قاتلة. ثـم صدمَ ذلك الحذاء العسـكري باب المخبـأ بعنـفٍ، فاصطـدم بالحائـط موشـكًا على السـقوط بأخشـابه البالية القديمـة، وأطل عليهم منه جنودٌ كُثر، فتحوا نيران أسـلحتهم، وأطلقوا تلك الرصاصات الحديدية المشتعلة على أجساد حية فزرعت بها موتها. كل من

كان هناك من أطفالٍ ونساء ورجال علا صراخهم، وعلا صوت الرصاص إلى أن حلَّ الصمت، صمتُ الموتِ الجديد.

جال بعينيه الجبارتين بين الأجساد الدامية منصتًا إلى الأنفاس لكي يخنقها إن وجدت. استسلمت لقدرها بهدوء، وبعينين صغيرتين كانت تراقبه من خلف جبلٍ من الأجسادِ الممزقة. عيونٌ حية أمام جبارٍ يرتدي البزة العسكرية، وبخار الصقيع يتصاعدُ من أنفاسِه العاشقة لرائحة الدماء، من شفتيه الصارختين بكل حقدٍ على الحياة، يصيح بالجنود:

- لقد انتهى الأمر هنا، سنكمل تمشيط المكان قبل حلول الظلام..

قال هذا وعيناه معلقتان بتلكما العينين الحيتين اللتين تراقبانه من تحت الغطاء.. لماذا لم يطلق النار عليها؟ لماذا لم يُنْهِ آخر صوتٍ للحياة؟ تجاهلها وأدار ظهره وخرج.

ساعةٌ مرَّت والقلبُ الصغير لا يزال يخفق والعينان تحدقان، وفكرةٌ تحاول أن تقنع العقلَ بأن يأمر الجسدَ بالحراكِ. أبعَدَت الغطاء عن رأسها، ورائحة الدماء تخترقُ أعماقها إلى الصميم. أبعَدَت يَدَ أختها عن جسدها.. يدًا باردةً وغريبة لم تكن يومًا هكذا. وقفَت متأملةً الأعين المفتوحة، والتي كانت منذ قليل تضجُّ بالحياة، كيف تحوَّلَت إلى ألواح زجاج يظهر من خلالها الرعب والخوف. مدَّت أناملها المرتجفة وأغلقت الجفون كي تسترسل في حلمها البعيد. تحرَّكَت يمينًا ويسارًا.. عائلتها هنا، جميعهم هنا لا يزالون معها، أقاربها الذين تربَّت بينهم وشقيقتها الصغرى ابنة التسعة أشهر، والتي كانت تحبها كثيرًا. أولاد الجيران هنا أيضًا، كتبهم وقطع الحلوى الممزوجة بالدماء أيضًا هنا.. جدتها هنا، أخوها الصغير مازال نائمًا قُربَ أمها وأبيها..

جميعهـم هنا، لكنهم أمـواتٌ غارقون فـي الدماء ورعبِ العيـونِ المفتوحة والأفواهِ الصارخة!

اسـتَوَت على ركبتيها، ولفَّت جسدها بذلك الغطاء الذي كانت تحتضنه ويحتضنهـا، وفـي روحهـا نحيـبٌ غيـر مسـموع، وفي الفكـر فـراغ.. فراغٌ مدمـر وصمـتٌ. هـم هنا لكنهم ليسـوا هنا؟ أيـن ذهبوا؟ ما هذا السـر الذي اسـمه الموت؟ أين رحلت الحركـة؟ ولماذا بقيت ها هنا وحيدة وتسـتطيع الحراك؟

تجـاوزَت بعض الأجسـاد بحذر، جلسَـت بيـن والديهـا اللَّذَين حاولا حماية عائلتهما بأجسـادهما، ولكن الرصاص أقسى من المحبة، فاخترقهما واختـرق الجميـع.. إلا هـي! هنـاك جلسـت بين اللحـم البـارد وكأنه ذلك المعلـق فـي محل الجـزار بعد أن تُذبـح المواشـي لتُباع. لكن هذه شـريعة الحيـاة، فالحيوانـات تُذبح لتُؤكل، ولكـن لماذا يذبح الإنسـان؟! حضَنَتهم بقـوة، فتبلَّل جسـدها ويداها بالدمـاء. أغمضَت عيونهم الباردة، وجلسَـت متأملـةً صامتةً دون دموعٍ ولا خوف، وكأنها جزءٌ من ذلك القاتل الذي مزق أجسـادهم. أبٌ في مجاهل الأربعين، رسـمت قسـوة الحيـاة على ملامحه آثارها.. عينان زرقاوان، شـاربٌ صغير وشـعر مَوَّجهُ الشـيبُ وجسدٌ طويلٌ وممتلـئ أصبحَ أخيرًا سـاريًا مكسـورًا مهشـمًا. وأم، رغـم معاناتها مازالت تحتفظ بمعالم الجمال والأنوثة، فلطالما أحبّتها رغم ضعفها وانكسـارها.. مرت بأصابعها الملوثة بالدماء على وجهيهما، ورسـمت ابتسامةً مخنوقة.. رغم بشـاعة شـبح المـوت الذي حـل عليهمـا، قبلتهمـا، فاختلَطَت خُصل

شعرها بالدماء.. شعرها الذي كانت تسرحه لها كل صباح وتسويه ضفائر وتعقد أطرافه بالشرائط الملونة بلطفٍ وحنان.

لم تشعر بوقعِ الخطى خلفها، وبينما كانت تلتفت إلى الخلف اصطدَمَت نظراتها بجسدهِ الصلبِ الجبار.. لقد عاد، إنه هو.. لقد عاد ربما لينهي مهمته. استدارت إليه وهي لاتزال جاثيةً على ركبتيها، رفعت رأسها، رمقته بنفس النظرات الباردة، دخلت إلى عينيه وكأنها تبحث هناك عن بعض الرحمة. عادت لتجول بنظرها في ذلك المخبأ الذي كانوا يعتقدونه آمنا، وتلك الأغطية التي تمددوا عليها، الزاوية التي كانوا يحضرون فيها الطعام، بعض المعلبات وعلب الحليب والماء وفانوس الجاز القديم.. ذلك الباب المكسور والشباك المحجوب بأكياس الرمل.. جالت بنظرها في كل ما حولها، وكأنها تحفظ في ذاكرتها كل ما ستترك وراءها إلى الأبد، ثم عادت إلى ذلك الجبار الواقف أمامها.. نادَته بصمتٍ، توسَّلَت إليه أن يطلق النار على رأسها.. لقد رحلوا جميعًا وتريدُ أن تلحق بهم قبل أن تضلَّ الطريق. ابتسم بحقدٍ وكأنه قد سمع ما تقول.. وكأنه يقول لها لا لن تذهبي معهم، بل ستذهبين معي أنا.

أمسكَ ذراعها وأوقفها على قدميها، وقادها أمامه وهي صامتة، تشارك الأموات موتهم رغم جسدها المتحرك..

يتبع....

81

لـم أكُـنْ أتوقّع أن نشـرَ القصة بجزئهـا الأول سـيحصد كل ردود الفعل هذه. كان لقائي الأول مع المحقق الذي يتابع قضيتي. لقد كان مهتمًّا بمعرفة المزيد عني وعن تلك الفترة الزمنية التي أمضيتها في مركز النور.

- اجلسي نوريستا..

- شكرًا لك..

- أولًا أريـد أن أشـدَّ على يـدكِ وأنحني لكِ تقديرًا على جرأتكِ وأسـلوبكِ الرائع في التعبير والكتابة. تصوري أنني أتوق شوقًا لقراءة الجزء الثاني... بِاسم الإنسانية أريد أن أقدّم لكِ اعتذاري.

ابتسـمتُ بخجلٍ محاولـةً إبعاد وجهي وعيني التي سـكنتها الدموع عن نظراته الثاقبة..

- الاعتذار جيد ولكنه لا يعيد لأحدٍ ما فقده.

- أنتِ محقة. ولكنَّ هذه المآسـي جزءٌ من تاريخ شعوب الأرض بأجمعها، ومـا نحـاول نحن رجال الأمـن والقانون فعله هو أن نطبـق عدالة الله من خلال القوانين الإنسانية التي سنَّت على جزءٍ من قوانينه وعدالته، وعسى أن نستطيع..

- إنها التفاحة الأخيرة، وإن ضربها التآكل سوف تسقط تلك الشجرة على رؤوس من يسعى إلى قطعها..

أشرق في عينيه سحرٌ غريب كسرَ قسوتَه. ابتسم قائلًا:

- أكثر ما يعجبني هو تشبيهكِ لهذه الحقب والعصور بالتفاح، وكأنكِ بما تبقى من طفولتكِ المسلوبة تبسّطين فَهمَ ما يحدث من تطوراتٍ في تاريخ الأرض من خلالِ سلةِ التفاحِ هذه.

أربَكني نقاشهُ معي. لم أستطع أن أسترسل في الحديث، فإحساسي كان ينبئُني أنَّ بعد هذه المقدمات هناك مصيبةٌ ما..

- لم تجرب يا سيدي أن تكون مسلوبَ الطفولة. لو جربت هذا لأدركتَ بأنَّ من عاش في نفس ظروفي ستتوقف عنده الحياة في نفس المكان الذي توقف هو فيه عن الحياة.

- طبعًا لم أجرب؛ ولكن أدرك صعوبة ما مررتِ به. المهم، لندخل في صلب الموضوع..

- تفضل..

- أنتِ تعرفين أنَّ تلك الجماعات التي كنتِ داخل تنظيمِهم هم تحتَ المراقبة، ومنذ صدور قصتكِ على صفحاتِ الصحف، هناك حركة غريبة غير اعتيادية تسري بينهم. على ما يبدو أنهم قلقون مما ستنشرينه لاحقًا..

انتابني خوفٌ رهيب، فسألته بقلق:

- هل تريدني أن أتوقف عن الكتابة؟ هل تعتقد أني في خطر؟

- أولًا أنِت لستِ في خطر، على الأقل الآن، فنحن حذرون وحريصون على حياتكِ أكثر منكِ، بغض النظر عن قضية إيفان وكونكِ المتهمة الوحيدة إلى الآن بقتله.

قاطعته قائلة:

- ولكني بريئة، فأنا لم أقتله، يجب أن تصدّق هذا

- إنَّ كل الأدلة ضدكِ نوريستا، وربما إن توضحَت خيوط تلك الشبكة التي كنت تعملين معها، ربما سنستطيع بعدها أن نجبرهم على الاعتراف أو أن نكتشف إن كانوا هم الفاعلين من خلال التحقيق..

- لا أعرف.. حتى أنا لا أستطيع أن أتهمهم..

- يجب أن تركزي.. كلُّ حدثٍ، كلُّ تفصيلة بإمكانها أن تفتح التحقيق على حقائق أخرى ،ربما تغيّر مجرى القضية برمتها..

- سأحاول، لكن لا أستطيع أن أخمن شيئًا لستُ متأكدةَ منه..

- عليكِ أن تخبرينا بكل شيء، ونحن سنقرر ما إذا كان مفيدًا أم لا؛ أرجوكِ.

- حاضر، سأحاول..

- حسنًا، سننتقل إلى الموضوع الثاني الذي رغبت أن أتكلم فيه معكِ.

- تفضل..

- بخصوص نشر قصتكِ.. نحن بحاجة لمساعدتك، مساعدة بإمكانها أن تحرك القضية وتسهل عملنا.

قلت له بحذر:

- وكيف يمكنني هذا؟

- المعلومات التي أعطيتها لنا، والمستندات والأوراق أيضًا كشفَت خيوطًا كثيرة مما يحدث داخل هذه الجماعات، ولكن هذا ليس كافيًا..

- وما المطلوب مني الآن؟ إني جاهزةٌ لأية مساعدة، حتى وإن شكّل هذا خطرًا عليّ، فكما ترى حياتي منتهية، وأقل ما أستطيع فعله هو أن أحمي الدين ممن يشوّهون اسمَه ويستعملون الأبرياء وقودًا لنارهم.

- ممتاز.. ما نريده بعض التعاون من قبلكِ، ونحن سنضمن لكِ سلامتكِ.

- موافقة..

- ستتواصلين مع المعالج النفسي الذي يزود الصحفي بأخباركِ وقصصكِ، ستطلبين منه أن يستبق القصة ببعض الدعاية، مثلًا ترقبوا في الحلقة القادمة من قصة التفاحة الأخيرة، والتي ستتكلم الكاتبة فيها عن وقائع اغتصابها، وهكذا سيزداد عدد القراء والمهتمين بمتابعة ما تكتبين..

- لم أفهم؟ هل أنتم مهتمون بتسويق قصتي، أم أنَّ هناك أهدافًا أخرى وراء هذا؟ بصراحة أنا خائفة، وإن لم أعرف السبب فلن أقدم على هذا.

- أنتِ محقة، سأخبركِ، لا تقلقي..

سحب كرسيه قليلًا حتى التصق بطاولة المكتب وأكمل حديثه:

- عندما يزداد عدد المتابعين، ستصبحين محطَّ أنظار المجتمع بكل شرائحه وبكل من فيه. الهدفُ الأول نشـرُ حملة توعية عن مخاطر هذه الشـبكات وما تقوم به من جرائم بحق المراهقين..

توقف قليلًا ونظر في عيني قائلًا:

- والهـدف الأهـم فـي مهمتكِ هو أنـكِ سـتضعين أعناق هـؤلاء في قبضة القانون..

- كيف؟

- ستعلنين بعد الحلقة الثانية أنك ستنشرين أسماء أصحاب هذه الشبكات وأماكـن تواجدهـم وصورهـم التـي معـك وكل المعلومـات التـي تثبت تورطهم..

أدركتُ خطورةَ الموقف، ورحتُ أسـمع نبض قلبي الذي أشـرف على الانفجار:

- ولكن ليست لديَّ معلومات أخرى غير التي أعطيتكم إياها..

- لا عليـك، إنهـا فقط منـاورة لإرباكهـم، وزرع الذعر فـي صفوفهم. نحن نشـك بأنَّ هناك شـبكات أخـرى متغلغلةٌ في المجتمع تعمـل في الخفاء، ونريد أن نصل إلى هؤلاء، فهم أشدُ خطورةً على المجتمع وعلى أنفسهم ممن يعملون في (النور)،، عندها سيسقطون في قبضتنا، وسنلقي القبض عليهم متلبسين.

حاولت أن أهدئ نفسي وأن أستوعب ما سمعت..

- لا تخافي نوريستا، نحن معكِ، ستصبحين شاهد ملك، ومساعدتكِ للشرطة، بالإضافة إلى تقرير الطبيب النفسي سيخفّف عنك الحكم في قضية إيفان، إن لم نستطع أن نظهر براءتكِ.

لم أعرف بماذا أجيب..

- عليَّ أن أستشير المحامية.

- ليس لدي أي مانع، سأتصل بها الآن وأحدد لك موعدًا معها اليوم بعد الظهر.

- جيد.. الأفضل لي أن تكون معنا، وأن تسمع وتشارك برأيها فيما تطلبه مني، فأنا أثق بها.

عدتُ إلى سجني وأطرافي ترتجف، وأكاد أموت من البرد. احتضنتُ نفسي وجلست تحت أغطيتي... ما هذه الحياة التي أعيشها؟ ألم تكتب لي راحةُ البال منذ ولادتي؟ هل قدرنا يختارنا أم نحن نصنعه بأنفسنا؟.. مرّت ساعات لم ألاحظ فيها مرور الوقت حتى ناداني الحارس:

- أيتها السيدة، المحامية بانتظارك في غرفة المحقق..

فتح لي الباب وسرنا إلى هناك.

- أهلا نوريستا، تعالَي اِجلسي.

وجودُ ورد بقربي كان قاربَ النجاة الوحيد الذي يأخذ روحي من أمواج محيطي المتلاطمة، والتي كنت أعوم فيها وحدي ويقرّبني من جزر الاستقرار. قالت وهي تبتسم:

- لقد أخبرني المحقق بكل ما دار بينكما من حديث. ليس هناك داعٍ للقلق، فأنتِ هنا في حصانة الدولة. هذه الدولة لا يحكمها سوى العدل والقانون.

- كنت سأوافق، ولكن فضَّلت أن أستشيركِ قبل هذا، فأنا كما قلت لسيدي المحقق، ليس لديَّ ما أخسره، بل على العكس حتى وإن أودى هذا بحياتي فسأكون سعيدةً، لأني لن أموت رخيصةً، ولأني قد أنقذت الكثير من المظلومين قبل موتي..

قال المحقق:

- لقد أخبرت السيدة (سالم) بأننا سنكثف الإجراءات الأمنية من حولكِ، أرجو ألا يُزعجك هذا، فالفُسح الخاصة بك في الحديقة ستقومين بها عندما يعود الجميع إلى غرفهم..

أكمل بحزن:

- أنا آسف فعلًا، ولكن علينا أن نكون حذرين، فهؤلاء المجرمون منتشرونَ بشكلٍ مرعب في كل مكان، وحياتكِ وحمايتها مسؤوليتنا، ولكن عليكِ أن تتعاوني معنا.

أطرقت قائلةً:

- لا عليك يا سيدي، فلقد أمضيت سنينَ طويلة سجينةَ قبوٍ مهجور، لم أرَ خلالها سوى ظل الشمس يخترق زجاج النافذة لساعات قليلةٍ من النهار، صدقني، إن سجني هنا رفاهية لم أعتد عليها في سجني السابق.

ابتسم بمرارة:

- يؤسفني أن أسمع ما تقولين، ولكني أعدكِ أن ينتهي كل هذا القلق قريبًا.

أمسكت ورد يدي وقالت بثقة:

- صدقيه يا نوريستا، سينتهي كل هذا قريبًا، وسأنفّذ ما وعدتكِ به عندما تحصلين على حريتكِ.

82

حضـر ألبـرت ومعـه العديد مـن الصحف. كانـت عيناه تشـعان بالأمل والفرح:

- تعاليْ أيتها النجمة المتألقة، تعاليْ لنقرأ سويا ما حصدته قصتكِ من ردود فعل في أوساط المجتمع.

عكس تفاؤله عليَّ دفئَه كما أشعة الشمس، فسألته وأنا متفاجئة ومترددة بين الفرح والحذر:

- أنت جاد؟ هناك أخبار جيدة؟

- أجل. أجل.. أخبار كثيرة.. تعاليْ نجلس أولًا

جلسـنا علـى الأرض على ذلـك الغطاء الـذي حوَّلتُه إلى سـجادة لكي أشعر بالدفء والألفة في مقرّي الجديد..

- انظـري يـا صديقتي، واسـمحي لـي أن أناديـكِ صديقتي، فشـرفٌ لي أن أتعرف على إنسانةٍ مثلكِ.

- أكيـد.. وأنـا أيضًا لـم أشـعر يومًا بأنـك طبيب أو معالج، وهـذا ما جعلني أستجيب لطلبك.

مدَّ يده وصافحني من جديد..

- جيد، إذن أصدقاء إلى الأبد؟

- أصدقاء إلى الأبد.

أخرج مجلةً ذات غلاف ملوّنٍ راقٍ وقال:

- أولا هذا تعليق من رئيسة رابطة حقوق المرأة في المدينة. إنه أولُ انتصارٍ لكِ أن تتابع هذه السيدة قضيتكِ وتكتب عنها. إنها تترقب الأجزاء الآتية بفارغ الصبر، وهذا يعني أنَّ أيَّ إجحافٍ سيطالك فسوف تجدين العشرات بل المئات جاهزين لمساعدتكِ.

فتحت المجلة ورحت أقرأ بفرح:

- عندما تتعرض طفلةٌ أو امرأةٌ في أقصى الأرض أو أدناها لأي سوء معاملة سنعتبر هذا الظلم والاضطهاد موجهًا لنا جميعًا، فكلنا نوريستا.

سقطت دموعي على تلك الصفحات ولم أقو على منعها:

- أكاد لا أصدّق، فأنا أنتمي إلى دين آخر ومن بلدٍ آخر؛ كيف يتبنّون قضيتي رغم هذا الاختلاف؟

- إنك أيضًا في تاريخٍ آخر يا صديقتي. أوروبا لم تعد كما كانت منذ عشرات السنين، وما حاول أن يغرسه فيك أولئك اللابسون ثياب الدين عن هذا البلدِ وعن ناسهِ وعن القانون فيهِ هو محضُ كذبٍ ونفاق، لا تحاولي أن تفكري فيه. إنَّ الصورة مختلفة جدًّا، والناس هنا يعيشون معًا بأمان، صدقيني.

- أعـرف هـذا، ولكن كان صعبًا عليَّ أن أصدِّقـه، فلقد حقنت الحرب دمي بجرعـاتٍ عاليـة مـن الكراهية والخوف مـن الآخر، وزرعـت في روحي العـداءَ لكل مَن هو مختلـف. رغم أني ربَّيت نفسـي ودربتها على تخطي حدود الاسـم، واللـون، والجنـس، والطبقـة والعرق، فأصدقائـي الذين عطفوا عليَّ وأنا في الشارع كانوا من كل الأطياف والألوان.

- سـوف تتخلّصين من هذه الرواسـب. بعض الوقت وبعـض الثقة بالنفس وبالآخر وسـوف تجدين نفسك وقد خرجتِ من تلك الحلزونة، وتشكَّل جسدكِ بشكلِ الحرية وتلوّنَ بلون الزهر والشمس!

أفرحنـي كلامه وأردتُ أن أحتضنه. إنه يرسـم لي الغدَ مليئًا بالأمل رغم ضبابية الصورة..

- اِقرئـي هنا أيضًـا، هذه المجلـة الاجتماعية كتبت تقريرًا عنك وعن نسـاء بـلادك المغتصبـات، وعن تخطيهنَّ ظروف الحيـاة وإعلانهنَّ ما مررنَ به دون خجلٍ أو تردد..

- هذا شيءٌ لافت!

- قلـت لكِ، قصتكِ سـتفتح الباب واسـعًا أمام ما تعانيه المرأة من اسـتعبادٍ وبيع في أسواق الدعارة والعمالة وأسواق الجواري..

- ألبرت، أريد أن أطلب منك خدمة، فهل تقدمها لي؟

- إن استطعت من المؤكد سأفعل..

- أجل تستطيع، إنه أمرٌ يتعلق بنشر القصص.

- ماذا؟ هل هناك جديد؟

- لا، لا جديد، ولكن أريدك أن تضع إعلانًا مسبقًا عن الجزء الذي سينشر لاحقًا..

- فكرةٌ جيدة.. ولكن هل هذا يصبُّ ضمن خطة تسويقٍ جديدة للقضية؟

- أجل، شيءٌ من هذا القبيل، أريد أن يُكتب في الأعداد اليومية أنني سأنشر في الحلقة القادمة تفاصيل اغتصابي..

- آه.. هذا سيرفع عدد النسخ المباعة والمتابعين إلى القمة، أنتِ إنسانة خطيرة نوريستا.. أشك أحيانًا -ورغم ظروفك- من أنكِ تعانين أي مرض نفسي، وأحس بأنكِ أقوى منا جميعًا، ولا أخفي عليكِ يخيّل إليّ أحيانًا أنه من الممكن أن تكوني أنتِ من قتل إيفان.. وبصراحة إن فعلتِ فهذا حقكِ..

صعقني ما قال:

- لا أرجوك.. لا تفكر هكذا.. هناك أشياء لا أستطيع البوح بها الآن، سأخبرك يومًا عما يحدث بالضبط، وبالأخص في هذا الموضوع.. ولكني لست أنا من قتل إيفان، أرجوك صدقني، يجب أن تؤمن ببراءتي، وإلا فلن نكون أصدقاء..

عاد الحزنُ إلى ملامحي، فوضعتُ تلك الصحف جانبا، ورحت أكافح دموعي وأردعها عن السقوط من جديد.

- نوريستا، أرجوكِ لا تغضبي مني. أعلم أنكِ بريئة، أنا فقط معجبٌ بكِ وبهذه الصلابة التي تواجهين بها الأمور رغم ضعفكِ هذا.. هيا اِضحكي من جديد!

أعادت كلماته البسمة لوجهي:

- أجل هكذا، تبدين رائعةَ الجمال عندما تضحكين..

- أعدك أني سأفعل عندما تزورني في المرة القادمة..

- مؤكد سأعود بعد يومين لأخذ الجزء الثاني للطبع. سأعلم صديقي في الجريدة عن رغبتكِ في وضع إعلاناتٍ عن الحلقة القادمة، والآن سأتركك في رعاية الله..

- ابقَ قليلا..

- يجب أن أكون عند الساعة الرابعة واقفًا قرب باب المدرسة لكي أصطحب (أوليفر) إلى البيت.

- أوليفر من؟

- إنه ابني، عمره سبعة أعوام.

- وأين زوجتك؟ ألا تستطيع أن تصحبه هي من هناك؟

- للأسف زوجتي ماتت منذ سنوات.. لقد ربيته وحدي بعد وفاتها بمرضٍ خبيث أصاب دماغها.

- أوه... آسفة.. وكيف هو أوليفر الآن؟

- لقد كان صغيرًا عندما ماتت، فلم يعِقه هذا الموضوع كثيرًا، خاصة أنني كنت له الأب والأم في آن.

- هذا رائع... أتعرف؟ لو بقي طفلي حيًّا، لأصبح الآن شابًّا يافعًا.

- لا تحزني نوريستا، إنها الحياة، وما علينا إلا أن نقبل ونتأقلم مع واقعنا مهما كان مرًّا.

- أنت محق.

- هيا إذا، سأتركك الآن للكتابة، أريد أن يزلزل الجزء الثاني الأرض، ستنالين حريتكِ وستخرجين من هنا إلى النجومية، هكذا يُنبئني حدسي.

- اِنتبه إلى نفسك وأعْطِ أوليفر القبل بالنيابة عني. قل له هذه من نوريستا..

قال ضاحكًا وهو يغادر المكان:

- حسنًا سأفعل، وأنتِ أيضا اعتني بنفسكِ.

عدت لأجلس وحيدةً أتصفح تلك المجلات والأوراق، وأقرأ ما كتب عني،

ولا أعرف فعلًا أين أنا ولا إلى أين أسير.. سأفعل ما يُطلب مني، ولتأخذني الأيام حيث تشاء.. يجب ألا أفكر، سأتابع ما أفعله لأني مقتنعةٌ بأهميته، مهما كلفني هذا من ثمنٍ، فلن أخسر بعد اليوم أكثر مما خسرت..

83

سـارت الأمـور فـي منحًـى لم أتصـوّره. لقـد حملـوا إلـيّ صناديق من الرسـائل من القـراء الذين يتابعون قصتي؛ المئات منها. لـم أكن واثقةً أنَّ ما كتبته سـيحصد كل هذا النجاح وسـيقابل بردودِ أفعـالٍ إيجابية هكذا، كوني مسـلمةً في بلدٍ مسـيحي، ولا أعرف إن كان يجوز لي أن أسمِّي الأمور بهذه التسميات، وأنا شاهدةٌ وأعيش حالةَ الرقي والترفع الإنساني، واحترام الآخر وحقوقه الموجودة في هذه البلاد، بغض النظر عن التسميات والانتماءات.

- اه إنني سعيدة جدا واريد أن أحتضن الكون.

لقد كانت فرحتي كبيرة بهذه الثورة الحقيقية التي ألمسـها.. الإنسان هو الإنسـان بغض النظر عن دينه وقوميّته؛ هكذا ستؤسّـسُ الأرض على أساسٍ سـليمٍ ومتيـن، وما نشـهده من تطـرّفٍ وقتلٍ ومـوت ليس إلا أنفاسًـا أخيرة تلفظها تلك الأفعى السـوداء التي تحاول أن تسـمم الأرض قبل أن تموت.. طبعًا سـيتطلب هذا وقتًا طويلًا، لأنَّ أعمارنا وكل ما نشـهدُه خلالَها هو فقط بمثابةِ ثوانٍ أو دقائق من عمر الأرض والأكوان.

رحت أتفحص ما بين يدي.. أقرأ وأقرأ، لم يكن كلُّ ما وصلني إيجابيًّا، فالبعـض منها قد ملأه الحقد وتوعدني أصحابها بعقاب من الله وسـعيرٍ من نار جهنم، لأنني سـامحتُ خاطفي وربما أحببته وهو عدوّي ورجلٌ من غير

ديني. فان كانت المسيحية دين محبة فالاسلام دين تسامح وهذا ما حملته رسالة قلبي الى الجميع، وهذا ما لا يريدون سماعه، ما كُتب كان مثيرا للدهشة، رحت أراقب مدى تأثير تلك المشاعر السلبية عليّ، فلم أجد لها من أثر أكثر من إحساسي بنتانة ما كُتب قبل أن أقرأه، وكأنَّ للكراهية رائحةَ الجيفِ المهترئة. ورغم هذا، لم ألاحظ أية قشعريرة ولم ينتَبني أيُّ خوف. لقد أدركتُ فعلًا أني قد شفيت من رهبة الآخرين، ومن مخافة عقاب الله، لأني وبكل بساطة أدركتُ حقيقته، فعندما يمتلكك الحب لن يعود في داخلك مكانٌ للخوف.. ستصبح طاعتك لله فعلَ محبة وليست فعلَ رهبة.. إنه روحُ الأرض، إنه فعلًا محبّة ومغفرة، فرأفته بي لم تعادلها رأفة. صحيح أني قد عانيت، ولا أزال أعاني، لكنه لم يتأخر يومًا عن مداواة جروحي التي قبلت بها برضا وتسليم.

تلك الرسائل التي أصبحت جزءًا من حياتي كانت تشد على يدي وتقول لي "كلنا نوريستا" لقد خففوا عني اتهامي بهذه الجريمة، وبتُّ مستعدةً لأن أمضي ما تبقى من عمري سجينةً هنا، لأكتب لهم وهم يقرؤون، وهذا كان أولَّ إنجازٍ إيجابي لما فعلت. أما الإنجاز الآخر، فهو ما خطط له السيد المحقق، فلقد حدث ما توقّعه بالضبط..

- نوريستا أريد أن أشكركِ، فلولا جهودكِ وجرأتكِ لما تمكّنا من إلقاء القبض على هذه الشبكة الإرهابية..

- هل أمسكتم بهم؟ ما هذه الأخبار الجميلة !!

- بعد الإعلان عن نشر أسمائهم، حاولوا تفكيك نشاطهم ودارت صراعاتٌ فيما بينهم على تقسيم النقود والأولويات، بين الرحيل والبقاء أو القيام

بأعمـالٍ تخريبيـة انتقامية. هذا الارتباك الذي أصابهـم أوقعهم في العديد من الأخطاء، لقد ألقت عناصرنا الأمنية القبض على أحدهم وهو يحاول زرع عبوّة ناسـفة في وسـط المدينة. تخيّلي، بعد أن وُلدوا وترعرعوا هنا، بعد أن تعلّموا في مدارسنا وبين أطفالنا، بعد أن احتضنتهم هذه البلد كما تحتضـن وتحمي أي إنسـانٍ يبحـث عن الأمـان، يوجّهون لهـا الطعنات ويتهموننا بالكفر ويحاولون قتل أهلهم وأهلها.

- هذا مخيف.. وهل تأذى أحد بسبب هذا؟

- لا تخافي، لقد كانوا تحت المراقبة، اعتقلوا جميعًا وهم الآن في السجن. إني متأكد أنه لولا إعلانك عن نشـر أسمائهم وهذا الخوف الذي أصابهم لما استطعنا أن نخترق شبكاتهم واتصالاتهم المنظمة والسرية..

- الحمد لله.. لقد أرحتني.. كنت قلقة، وتخوفت كثيرًا من ردة فعلهم..

- لقد وقعوا في شـر أعمالهم. بعد أن ألقينا القبض عليهم التقطنا لهم بعض الصور، أريد أن أعرضها عليكِ ربما تعرفتِ على أحدٍ منهم، وربما كانت هناك ذيول متبقية من منظمتهم هذه..

- أكيد، أنا جاهزة.

أخذ أحد الملفات التي كانت على الطاولة وفتحه ووضعه أمامي. رحت أتصفح تلك الصور وأقرأ الأسماء المكتوبة، فلفت انتباهي شيءٌ غريب..

- ماذا نوريستا؟ هل تعرفين صاحب هذه الصورة؟

- لا، لا أعتقد، ولكني قد سـمعت باسـمه سـابقًا على ما أعتقد.. (شـاميل) هذا الاسم ليس غريبًا على مسمعي.

- تذكري جيدًا، فأي معلومة ستفيدنا في التحقيق..

- أجل أجل.. إني سمعت باسمه من تلك المرأة التي كلّمتني عبر الموقع الاجتماعي من بلاد الحرب، قالت لي إنه من أحضرها من المرقص إلى مركز النور. ذلك الشخص كان يحمل نفس الاسم، وأخبرتني بأنه قد تركها وسافر إلى بلاد الجهاد، ومن ثَمَّ علمَت أنه قد استشهد، فتقرب لها بعد هذا أحد أصدقائه من تلك البلاد؛ المدعو سيف الذي عاد ليكمل هذه اللعبة معي أنا أيضا.

- جيد، إنها معلومات مهمة..

- ولكنه ميت، أو المفترض أن يكون ميتًا الآن..

- لا إنه ليس ميتًا، إنه يعيش هنا، ولم يسافر إلى أي مكان، إنه الطُّعم الذي كانوا يصطادون به الفتيات القاصرات، وكان يتقاضى مبالغَ ضخمة عن كل فتاة يحضرها لهم.

ما سمعته صدمني وشلني، ولم أصدق أني كنت هناك معهم يومًا..

- هل ستتمكنون من إنقاذ هؤلاء النسوة؟

- سنحاول، إن لم يمتن أو يقتلن، فهم عادةً يقتلون ضحاياهم لكي لا يفضحوا أمرهم..

- يا الله ما هذا الذي أسمعه..

أكملت استعراض الصور وأنا مذهولة، فأوقفتني صورةٌ أخرى لم أتوقع أن أراها..

- ماذا أيضًا؟

نظرت ثانية إلى الصورة بإمعان، إنه هو

- إنه سيف! الرجل الذي كان يكلمني على شبكة التواصل، والذي ضلّل تلك المرأة قبلي.. إنها حقا مفاجأة، كيف حضر إلى هنا؟

- لا تخافي، هو الآن في السجن وخلف القضبان، وستكونين أنتِ الشاهدة التي ستروي للمحكمة ما حدث بينكما، لذا عليكِ أن تحافظي على شجاعتكِ لتكملي آخر خطوة في خدمتك للعدالة والإنسانية..

استجمعت أنفاسي وأجبته بثقة..

- لا تخف عليّ، فأنا بخيرٍ، ولكني متفاجئة بعض الشيء. كيف أنني، وأنا أعتقد بأني أخدم الله، كنت سأودي بنفسي إلى التهلكة، وكدت أن أصبح عضوةً في شبكتهم هذه، أو ضحية ميتة. ها هي معتقلات النساء في حرب بلادي في البوسنة تعيد نفسها، نساءٌ واطفال، مغتصبات وسبايا، والفاعل الآن ينتمي لنفس الدين ويؤمن بنفس الإله.. إنني واثقة ومتأكدة أنَّ تلك الحروب لم تكن دينية على الإطلاق، بل سياسية وبامتياز، وضحاياها هم أنفسهم، والجناة هم أنفسهم أيضًا، يغيّرون أسماءهم وأديانهم، ويعيدهم التاريخ في أماكن أخرى وفي أزمنة مختلفة..

- أنتِ محقة، ليس لله يد فيما يحدث، ولم يطلب يومًا من أحد أن يفعل هذا من أجله، إن كل إنسان مسؤول عن أعماله.

أتاني صوت من الغيب.. إنه هو.. جزئي الآخر..

- (بالضبط يا نوريستا، هذا ما كنت أقوله، وما كنت أريدكِ أن تكتبي عنه).

تنبّه المحقّقُ لذهولي..

- نوريستا، هل أنتِ بخير؟

- أجل سيدي المحقق بخير، ولكني متعبة بعض الشيء، أريد أن أعود إلى غرفتي إن سمحت لي..

- حسنًا لا بأس.. سنتكلم لاحقًا، اذهبي واستريحي..

- قبل أن أذهب أريد أن أسلمك بعض رسائل التهديد التي وصلتني ضمن الرسائل، ربما من الأفضل أن تراها..

- مؤكد، هذا أهم ما في الموضوع، فهم سيعلنون بغباء عن أنفسهم. ولا تقلقي، سنتحقق من شخصية المرسلين حتى وإن لم يكن هناك أسماء، وسنضعهم تحت المراقبة، فمن يُؤمن بالفكر التدميري لهو أشد خطورة من المدمّرين أنفسهم، لأنَّ الأول ينتمي عن عقيدة ودون مصلحة، ويستقتل في اندفاعٍ عمّا يعلّمونه إياه، بينما الآخر تاجرٌ يبيع دينه وعقيدته لمن يدفع أكثر، ولمن يؤمّن له القوة والمال.

جلست في غرفتي، في تلك الزاوية، بعد أن أُقفل الباب عليّ، إلى أن غالبني النعاس ونمت متمنيّة أن أستفيق من جديد، وأن أجد ما أنا فيه مجرّدَ كابوسٍ لا ينتمي إلى عالم الواقع.

84

لا أعرف كيف أصف مشاعري بعد أن عقدت جلسة المحكمة الخاصة بتلك الشبكة الإرهابية. الشيخ حسن وزوجته التقيّة حبيبة، سيف وشاميل وغيرهم، وبعد أن حكموا عليهم بالسجن المؤبد. وبعد أن أوشكت على الانتهاء من نشر كل أجزاء قصتي، لم يبقَ أمامي سوى موعد محاكمتي في قضية إيفان، فلم يستطع المحقق للأسف أن يجد صلةً بين هؤلاء المجرمين وبين مقتله، وبقيت القضية معلّقة، وبقيتُ أنا المتهمة الوحيدة.

أجد نفسي تتأرجح بين هنا وهناك، بين انتصارٍ وهزيمة.. انتصاري على خوفي ومشاركتي في فضح هؤلاء المجرمين، وكسر جليد ترددي وإقدامي على نشر قصتي بكل تجرد وشفافية، وبين حزني على إيفان وعلى موته وقلقي على مصيري وأيامي القادمة.. هل سأسجن كما سُجنتُ سابقًا، أم سأموت بعد موته؟ هل سيدخلني هذا إلى عزلةٍ جديدة وصراعٍ آخر مع نفسي، أم أني ساجد حياة أخرى هادئة تليق بي؟

لن أكون جاحدةً، وعليَّ أن أعترف، فأموري الآن أفضل بكثير من ذي قبل رغم سجني هذا. فألبرت كان يواكبني ويحضرني نفسيًا للمرحلة القادمة، وورد أيضًا صديقة رائعة. ولكن هم وجميع قرّائي ومناصريَّ يعيشون أحرارًا، بينما أنا سجينةٌ هنا.

- لا نوريستا، لا تزال أمامنا فرصة مهمة، سنحاول أن نستفيد من الرأي العام ومن الوضع النفسي الذي كنتْ فيه في تلك المرحلة..

- الرأي العام؟ وماذا سيفعل يا ورد؟ إنها دولة قانون، وبما أنهم لم يجدوا المجرم الحقيقي، فسوف أحاكم أنا على تلك الجريمة حتى لو لم أكن الفاعلة.

- لا تقولي هذا. لقد التقيتُ بالعديد من الجمعيات التي تعتني بحقوق الإنسان والمرأة، وسيخرجون في مسيراتٍ صامتةٍ أمام المحكمة يوم محاكمتك، وسيكتب عن الموضوع في الصحف والمجلات، وستبثّ القضية للنقاش على التلفزيونات. إنني أعمل بجهدٍ من أجلكِ صدّقيني، والصحيفة التي نشرت قصتكِ قد تبنّت القضية بكل تفاصيلها، فقد حققتِ لهم أعلى مستوى مبيعات وقراء في أوروبا، وهم يدركون أنَّ انتصاركِ وخروجكِ من السجن هو انتصار لهم أيضًا.

- أعرف هذا، ولكنَّ كل ما سمعته لن يغيّر من الواقع المُوجع الذي أعيشه، حتى وإن أفرجوا عني، سأبقى قاتلةً ومتهمة..

- أنتِ لستِ بقاتلة، وما حدث سيتوضح بطريقة ما، المهم أن تخرجي من هنا وأن تستعيدي حريتكِ، وبعدها سأكمل بكلِّ جهدٍ مع ألبرت لكي تتوضح الأمور.

أعاد اسمه الابتسامة إلى شفتي، هذا الإنسان هو أروع من قابلت في حياتي..

- أجـل أعرف هذا، لولا رعايتكما لي لما تمكنـت من الوقوف ثانيةً، فأنتما من حمل يدي وجعلني أجتاز هذا المستنقع العفن.

ابتسمت وسألت بخبث:

- لاحظْـت اهتمامـه بكِ، وكأنكِ بالنسـبة له أكثـر من مريضـة أو حالة، هيا أخبريني، هل هناك من جديد؟ هل تخفين عليّ سرًّا ما؟

- لقد لاحظت مثلك حماسـه واهتمامه، واسـتبعدت فكـرة إعجابه بي، مع كل ما يعرف عني. ولكن عندما اعترف لي بمشاعره، أدركت بأنه لم يكن ليكترثَ يومًا لهذه التفاصيل..

- طبعًـا، إنها حواجز واهية يسـتعملها فقط الجاهلون والأغبياء، فكلنا بشـرٌ ومتساوون. أنتِ إنسانةٌ رائعة وتستحقين الحب والاحترام..

- مهـلًا، لـم يصبح حبًـا حتى الآن، فلن أكـرر نفس الخطأ مرتيـن، لن أترك عواطفـي لتتحكـم في عقلي وأنا في سـجني، لن أبني مشـاعري أيًّا كانت بناءً على ظروفٍ مؤقّتة أعيشها..

- هذا يعني أنكِ لن تقبلي به، ولا تشعرين بشيء تجاهه؟

- لم أقل هذا، فهو بكل ما فيه جزءٌ مني، يفكر ويحلم مثلي ويتفانى ويعطي، لكـن إن أحببتُـه، لن أقبـل أن أربط مصيـره بمصيري وأنا إنسـانة محكومٌ عليها بالإعدام أو على الأقل بالسجن المؤبد..

- ولكنَّ هذا الحب سيساعدكِ وسيقويكِ.

- ولكنَّ هذا الحب نفسه سيسبب له الألم والمعاناة..

- إنه إنسأن ناضج، ومن المؤكد أنه لم يتقرب منكِ وينجرف خلف مشاعره بعبثية. من المؤكد أنه يحتاجكِ كما تحتاجينه وربما أكثر..

- ربما هذا صحيح، فنحن نتبادل الأحاديث، أسمعه ربما أكثر مما يسمعني، يثق بآرائي ويلجأ إليّ في أزماته.. إنني أشعر بروحه مثلما يشعر بروحي. ولكن الآن، وأنا هنا في هذه المأساة، لن أقبل أن يقف أحدٌ معي في قفص الاتهام مهما كان، عليَّ أن ألاحظ أثبت براءتي..

دون أن ألاحظ علا صوتي من شدة تأثري:

- أنا بريئةٌ ولم أقتل أحدًا، لا في الوعي ولا في اللاوعي، يجب أن تصدقوني!

- اِهدئي يا نوريستا، إننا نصدقك، حتى أنَّ المحقق مازال يسعى جاهدًا للحصول على أي دليل يثبت براءتك، وقد قال لي إنه سيفعل المستحيل لكي يخفف عنك الحكم، إن لم يستطع أن يعتقل القاتل الحقيقي. ألبرت أيضًا وأنا والآلاف في الخارج..

أشارت إلى جبل الرسائل..

- انظري، كل هؤلاء يؤمنون بك وببراءتك!

أخفيتُ رأسي بين ذراعيَّ وأحنيته حتى لامس ركبتي..

- يا الله ساعدني، يجب أن تظهر الحقيقة، حتى وإن خرجت من هنا، يجب أن أحتفل بحياتي ولو لمرةٍ واحدةٍ دون خجل من ماضيَّ، ساعدني أرجوك..

مررت يدها الحنونة على رأسي وشعري..

- سيسمعكِ، وسيستجيب لدُعائك، ولكن عليكِ أن تناضلي من أجل هذا، فمهمـا كانت النتيجة يجب أن تعيشـيها بكل نعمها. يجـب أن تثقي بالله، فمن المؤكد أنه سيختار لكِ الأفضل.

85

بعد أن حُدّد يوم المحاكمة أن أعرف وموعد الجلسة، أصبحت الأمور أوضح بالنسبة لي. أريد أن أرتاح، أن أعرف من أنا، وأين أنا، وكيف ستكون نهايتي، كم تبقى لي من سنين في سجني هذا.. سأتقبل كل شيء بهدوءٍ، ولن أحاول أن أدافع عن نفسي.. سأتماسك ولن يغمى عليّ إذا ما أقرُّوا بارتكابي للجريمة.. لا أخفي عليكم قلقي وخوفي من أن أكون الفاعلة.. فإصرارهم على اتهامي جعلني أشك في نفسي وأعتقد بأني الفاعلة.. ربما حصل هذا دون إدراكٍ مني، فمنذ ذلك اليوم وأنا أحصي الأيام والساعات التي أقمت فيها بتلك الغرفة، وأحاول أن أثبت لنفسي وجودي كل ليلة في سريري، فلم أجد حذائي متسخًا يومًا، ولم ألاحظ أية فوضى في غرفتي وملابسي، ولو كنت أنا الفاعلة لتطلب هذا ذهابي وعودتي إلى المدينة حيث منزله، وهذا سيحتاج إلى أكثر من خمس ساعات، ومن المستحيل أن أكون قد تحركت دون وعي لأكثر من خمس ساعات. حتى تلك الأحلام والكوابيس التي كانت تراودني في تلك الفترة، والتي كنت أستيقظ بسببها مذعورةً أكثر من مرة لأنام ثانيةً، كانت غفوتي أثناءها لا تتجاوز الساعات، ومستحيل أن أذهب لأقتل وأعود دون أن أعي ما أفعله خلال الساعة. ولكن إن قلتُ هذا سيعتبرون أنني قد قتلته وأنا بكامل وعيي، وهذا سيزيد الأمور تعقيدًا. عليَّ أن ألتزم الصمت، فلتكن شهادة ألبرت خشبة الخلاص، ربما

سيأخذون هذا بعين الاعتبار، وربما دعوة الاسترحام التي ستقدمها ورد للمحكمة ستخفّض الحكم. رغم ثقتي ببراءتي، لن يكون أمامي حلٌّ آخر غير القبول بحكم القدر ورحمة الله.

بقيت غارقةً في حيرتي هذه، إلى أن انتقلتُ ذلك اليوم إلى قاعة المحكمة. كان المشهد مهيبًا ونحن في طريقنا إلى هناك. لقد تجمع العديد من الناشطين والحقوقيين المدافعين عن حقوق المرأة والإنسان والعديد من الجمعيات الأخرى، جميعهم حملوا اليافطات يطالبون بإطلاق سراحي. لم أصدّق ما رأيت.. رحت أبكي، وروحي كانت تبكي أيضًا على كل نساء الأرض اللاتي مُتنَ بصمتٍ دون أن تذرف عليهن الدموع. بكيت على كل مغتصبةٍ صمتَت على جريمة اغتصابها لأنها لم تملك يومًا قدرة التغيير..

- نوريستا،، هل رأيتِ إلى أين وصلتِ، فلست أنا وليس القدر، إنما هو أنتِ، مجهودكِ أنتِ، أنحني لك بتواضع، فملائكتك قد أرضخت شياطيني..

- أين كنت يا وليدَ روحي..

- كنت أبحث عن أحدٍ آخر يتخبط مع ذاته. لا يزال لديَّ الكثير لأفعله لأثبتَ براءتي، فأنا مثلك متهم ولن يصدقني أحدٌ مهما فعلت، وشهادتك وحدك لصالحي لن تكفيني..

- إنني أقسم لك بنصفي الإلهي بأنك من حرّضني ولكنك لم تجبرني يومًا على فعل أي أمر مهما كان، خيرًا أو سوءًا..

- أشكركِ نوريستا، وأتمنى لكِ حظًا موفقًا. لقد أوصلتِ نفسكِ إلى نقطة رائعة أتمنى أن أصل إليها، ولا تقلقي، أعتقد بأنكِ ستنجين..

- ستذهب؟

- عندي موعدٌ مهم، سألتقي بامرأةٍ أخرى في قاعة المحكمة حيث سيصدر الحكم، يعني سأكون قريبًا منكِ..

- هل لها علاقة بقضيتي؟

- لا أستطيع أن أخبركِ، فهي من سيقرر..

- ابقَ قليلا! أخبرني أكثر ماذا سيحصل.

نظرت حولي، فاذا به قد تبخَّر.. لقد رحل من جديد.. ما شأني بأمره.. ما ينتظرني أسوأ من أن أشغل تفكيري به وبأصدقائه. نزلت من السيارة، وكانت هناك حراسةٌ خاصة ترافقني، بعد أن أغلقوا بوابة المحكمة الخارجية، حيث تجمعت الجماهير وراحوا يهتفون عاليًا مطالبين بإطلاق سراحي. دخلت من ممرٍّ جانبي لأخرج من باب خاص إلى المكان المخصص لجلوسي. ورد كانت هناك، لقد شاهدت عينيها غارقتين بالدموع وهي تبتسم، وتشير لي بيدها لكي أبقى قوية وصامدة، ألبرت كان هناك أيضًا، أرسل لي قبلةً صغيرة وهو يبتسم ويرفع يده بإشارة النصر.. كنت أقرأ حبه في عينيه وإيمانه ببراءتي..

- نوريستا، كوني قوية..

سمعته يقول لي هذا ألف مرة..

دخل القضاة، وبدأت الجلسة. بعد اتهام النيابة لي بالقرائن التي بين أيديهم كالمسدس والبصمات والرسالة ودوافع القتل القائمة، والتي سببها

الاغتصاب والخطف، شعرتُ بوجعٍ غريب في قلبي وخوفٍ عارم. فلو كنت مكان القاضي لحكمت عليّ بالموت! ثم نادوا على السيد المحقق الذي بعد سؤاله قال:

- خلال التحقيق مع المتهمة لم نستطع أن ندينها، فهي لم تعترف بعد.. وبعد إزالة كل الآثار وبصمات الأقدام من الغرفة، لم نجد أي دليلٍ على دخولها للمكان، وما تبقى بين أيدينا البصمات التي على المسدس.

- ألا تعتقد أنَّ لديها من الدوافع ما يكفي لقتل المجني عليه؟

- إن إيفاندافيتش يا سيدي مجرمُ حرب ومطلوبٌ لمحكمة العدل الدولية، ولقد قتل الآلاف من الأبرياء خلال تطوّعه في فرقة الإعدام الخاصة. طبعًا إنَّ وجود فتاة مثل نوريستا مع هذا المجرم بعد أن شاهدَته وهو يقتل عائلتها وبعد أن اغتصبها وسجنها، طبعًا هذا يشكل دافعًا كافيًا للقتل، ولكنه لا يحتّم الفعل، فكل متهمٍ بريءٌ في غياب الشهود، وطالما لم يعترف، لا نستطيع أن نثبت الجريمة عليه أو أن ننفيها.

- وماذا عن تورطها مع تلك الجماعات الإرهابية؟

- لقد كانت ضحية كالأخريات، ولقد غادرت المركز قبل أن نلقي القبض عليهم وأخذت معها الكثير من الأدلة وقدمتها للشرطة، ولقد ساهم تعاونها معنا في تفكيك هذه الجماعة وفي التعرُّف عليهم واعتقالهم، وأنا هنا كمحقق وفي قاعة المحكمة أشكرها على تعاونها وخدمتها للقانون، فهي أيضًا ضحية متحركة حملت بجسدها مآسي الحرب والعنف والحقد العنصري الدامي.

- شكرًا لك، تفضل بالجلوس..

كنت أتوقَّع منه هذا. فرغم صرامته كان متفهمًا متسامحًا. أعتقد لو كانت الأمور بيده لحكم ببراءتي فورًا. لقد بدأت أعصابي تخرج عن طوعي، فيداي قد تحوّلتا إلى قطع جليدية مرتجفة، ولم أستطع السيطرة على تلك الرعشة التي ضربتهما. الوقت يمرُّ بطيئًا، أردتُ أن أصرخ بهم، هيا احكموا عليّ بالإعدام ودعوني أموت مرةً واحدة قبل أن تقتلني مرارة الانتظار. دقائق أخرى ونادوا على ألبرت، فوقف أمامهم بتهيّب:

- لقد قرأنا التقارير والتي توضح حجم الخلل النفسي الذي تعرضت له المتهمة خلال معاناتها مع الضحية ومع تلك الجماعة المتطرفة، ولقد ورد فيه إمكانية قيام هؤلاء الأشخاص الذين يعانون من مشاكل مماثلة بالإقدام على أعمال غير إرادية. هل تعتقد أنَّ المتهمة كانت عرضةً لمثل هذه الأعراض المرضية؟

- أجل سيدي، من الممكن حدوثُ هذا بعد مرور أي إنسان بظروف نفسية مماثلة، ولكن تبقى ردود الفعل متوقفة على حالة المريض النفسية. أما عن متابعتي لنوريستا خلال هذه الأشهر، وبالرغم من معاناتها التي وإن أصابت شخصًا آخر، لقادته إلى الجنون أو الانتحار، فأنا متأكد وأكاد أجزم أنها بصحةٍ نفسية جيدة، وأجد أنها غير قادرةٍ على القتل، لا في الوعي ولا في اللاوعي. إنها إنسانة سوية نفسيًّا برغم الظروف الصعبة التي مرت بها، ولولا توازنها النفسي لما تمكنت من الوصول إلى هنا..

حمل عددًا من الصحف بين يديه وأكمل بكل ثقة:

- سيدي القاضي، هل قرأت ما كتبَت؟ هذه السيدة المتهمة الجالسة هنا قد دونت هذه الملحمة الرائعة التي نُشرت في الجريدة. ما كان لمريضٍ نفسي أن يكتب هذا، أو أن يقتل أحدًا أو أن يدّعي المرض لكي ينال حريته. سيدي، نوريستا بريئةٌ وأضم صوتي إلى صوت المحقق، إلى أصوات الآلاف الذين يناصرون الإنسان وحقوقه وأناشدكم أن تحكموا ببراءتها، فهي من ساعد العدالة رغم ظروفها القاهرة وعرّضت نفسها للخطر لتحمي آلاف الأبرياء، ورغم حمايتكم لها مازالت تعيش، وستعيش مهددةً دائمًا بالموت من تلك الجماعات عقابًا على مساندتها لكم. ألا تستحق منكم نظرةً خاصة تجعلها تكمل سنواتها القادمة خارج جدارِ سجنٍ دخلته وهي الطفلة البريئة منذ أن كانت في ربيعها الثالث عشر، ولا تزال تعيش تبعاته حتى الآن؟ وشكرًا..

نظر إليَّ بحيرةٍ باحثًا عن تعبير، عن ردة فعل تُطمئنه عليَّ، وإذا ما كنت راضيةً عما قام به وقاله. ابتسمتُ له شاكرةً وممتنة.. أجل هذا ما كنت أريده، ألا تحمَّل المشاكل النفسية ثمن هذه الجريمة، وأن أُتهم بالاضطراب والمرض لكي أحصل على براءتي، فأنا بريئة وهو يؤمن بهذا..

- السيدة ورد سالم محامي الدفاع، تفضلي..

- سيدي القاضي، بعد ما قاله المحقق والمعالج النفسي، أجدني أتمسك بطلبِ البراءة لموكلتي. بعد أن قام القتيل بكل أنواع الإجرام بحق تلك الطفلة وحملها إلى هنا، لتبدأ قصة جديدة لمعاناتها بعد أن حملت بطفلها وولدته وحدها، وتحملت عبء موته دون أن تجد من يكفكف دموعها وهي الطفلة التي لم تتجاوز الرابعة عشر، والتي كانت تخيط الألعاب من

قطع القماش في سجنها وتمثلها أشخاصًا لتلعب معهم وليحتضنوها في لحظات خوفها وألمها.. ويوم قرر أن يفتح أمامها الأبواب، ويوم سرقت منه المسدس وهربت، كان بإمكانها أن تقتله حينها، وكانت ستصنف جريمتها في خانة الدفاع عن النفس، كما قرأتم في أحد أجزاء القصة التي نشرتها: "نظرتُ إلى السكين الذي سقط على الأرض جنب الفراش الذي ينام عليه، هل أقتله؟ لا لن أفعل فأنا أحبه"، والمقطع الثاني حين وجدَت المسدس "إنه المسدس الذي هدّدني به مرارًا، بإمكاني الآن أن أفرغ رصاصاته في رأسه كما فعل بعائلتي" لكنها قررت أن تأخذه معها "لا سآخذه معي، إنني أدرك كم يحبني، وربما قرر أن ينهي حياته بعد رحيلي. لا، سآخذه معي لكي أحميه من نفسه ومن لحظات جنونه"، هنا نرى سيدي بأنها حتى عندما كانت في الأسر وكان أي عملٍ تقوم به للدفاع عن نفسها مبررًا، نرى أنها لم تفعل، حتى أنها قد أخذت المسدس لكي تحميه. سيدي، إنَّ تلك الجماعة المتطرفة حيث كانت تعمل المتهمة بينهم كمدرسة، والتي ساهمت أيضًا في اعتقالهم، كانوا شديدي الخطورة، ولا أعتقد أنَّ دخولها بينهم كان بالأمر السهل، وأنا أدّعي عليهم من جديد بجريمة القتل هذه رغم إنكارهم، فلقد أعلن الشيخ حسن للمتهمة بأنه إذا ما تعرف على شخصية عدوّ الله -كما سماه- فسيقتله بيده. وبما أنها قد أقامت بينهم، وبما أنهم منتشرون وشبكتهم السرية متوغلة، فربما وجد أحدهم المسدس بين أغراضها بعد تفتيشها وعثر على بطاقة شقيقة القتيل، فوصلوا إليه ونفذوا الجريمة وأخفوا الأدلة التي تدينهم. سيدي، لقد حمَت المتهمة الضحية إلى آخر لحظات حياته. لو أرادت قتله لأعطت الجماعة عنوانه أو اسمه، ولتكفّلوا هم بذلك. الشيخ حسن

لـم ينفِ عند سـؤاله أمام المحقق، حيث اعترف قائـلًا "لو أني عرفت من يكون لقتلته بيدي". وعندما سقط أمامها في الشارع، كان بإمكانها أن تخبر الشـيخ بأنه هو المجرم الكافر الذي اغتصبهـا وقتل أهل دينها، ولكنها لـم تفعل.. لقد فضلت التشـرّد من جديد على العودة، رغم معرفتها بخطورة وضعه الصحي، لأنها كانت تعلم أنها تحت مراقبتهم وبأنها إن ذهبت إلى هنـاك ربما عرفوا مـن يكون وقتلوه.. حمَته لآخر لحظـة رغم كل ما فعله معها. أرجو سـيدي أن تأخذوا ما ذكرت بعين الاعتبار، وأن تتلمسوا هذه المعطيات، وتحكموا ببراءتها إكراما للعدل وللإنسانية.. وشكرًا.

كانت رائعةً. إنني أحسـدها فعلًا، فبرغم عذاباتها عوَّض الله عليها بهذه المهنـة لتدافـع عـن المظلومين. أحبكِ يـا أختي.. من بين دموعي أرسلتُ لهـا مشـاعري هذه شـاكرةً ممتنـةً على ما قالته مـن أجلي، ولحبهـا الذي لا يقـدّر بثمن. لقـد أثّر كلامها في هيئـة المحكمة وأربكهم، وقبـل أن يأخذوا اسـتراحتهم قبل النطق بالحكم سـألني القاضي إذا ما كنـت أريد أن أضيف شيئًا على ما قيل..

- سيدة نوريستا، هل لديك ما تقولينه؟ أتودّين إضافة أو توضيح أيَّ التباس لهيئة المحكمة؟

استجمعت شجاعتي وما تبقى مني وأجبته قائلةً:

- لا سـيدي، أريد فقط أن أشـكركم علـى إحقاق الحق، وكل مـا أريد قوله مكتـوب أمامكم في الصحيفة وفي التقارير. أنا أثـق بعدالتكم، فأنا غريبةٌ وجـذوري بعيدة عن أرضكم، وكنت أعتقد أنَّ هذا سـيجعلكم تحكمون علـيَّ بالإعـدام دون محاكمـة، ولكـن مـا لمسـته أنَّ أرضكم فيهـا عدالة

الإنسانية التي تحترم ولا تعتبر الانتماء سبب إدانة. كنت أودُّ بجانب ميزان العدل، والذي أقرَّه الله ليحكم وليتحاكم به البشر، أن أرسم تفاحتي الأخيرة التي ستحكم العالم، وهي تفاحة القانون، من عهد آدم إلى هابيل وقايين، إلى حمورابي، من الوصايا العشر إلى الآن.. إنَّ القانون والعدالة هما يد الله وتفاحته الأخيرة التي قد تصلح هذه الأرض، وكما أخرجت التفاحة الأولى الإنسان من جنته، فالتفاحة الأخيرة ستعيده إليها، فبدون قانون عدل وعدالة، سيفسد كل تفاح الأرض.

ابتسم لي القاضي وهو يغادر. لقد كنت راضيةً مستسلمةً وسعيدةً، وحتى لو حكموا عليَّ بالسجن المؤبد لم يعد يهمني، فلقد أوصلت صوتي إلى من سيسمع. بعد الاستراحة القصيرة، عادوا إلى قاعة المحكمة لينطقوا بالحكم. نظرتُ إلى الحضور، كانوا واقفين متهيبين في حضرة العدالة.. وليد روحي كان هناك أيضًا، لقد لمحته، يرتدي بدلةً سوداء أنيقة. كان واقفًا بقرب امرأةٍ لم أتأكد من ملامحها، ابتسم لي، كان يبدو أنه فخورٌ بما حدث. أعادني صوت القاضي إلى رشدي وهو يعلن النطق بالحكم:

- لقد وجدت المحكمة أنَّ المتهمة متورطةٌ في جريمةِ القتل هذه، ولعدم وجود أدلةٍ كافية تُثبت براءتها، ولعدم وجود أدلةٍ كافية تُثبت إدانتها، فلقد حكمنا عليها بالسجن خمس سنوات. ونظرًا لظروفها النفسية ومعاناتها وتعاونها مع الشرطة في قضية الجماعات المتطرفة، سيخفض الحكم إلى سنتين، مع إمكانية الطعن والاستئناف.

ماذا؟ يجب أن أبقى في السجن سنتين دون سبب؟ لقد شلَّني هذا الخبر وأربك الحضور في القاعة، ودارت الأحاديث والنقاشات الهامسة.. شعرتُ

أنَّ ذلـك الحِمْل لـم ينزل عن أكتافي بعد. حِمل خطيئة حواء وجسـد المرأة الذي تلبّس هذه الخطيئة، والذي اغتُصب وطُعن منذ بداية البشرية إلى الآن. أنـا هي الضحية.. أنا المرأة.. أنا كل نسـاء الأرض. وحتـى لو كنت القاتلة، كيف يحاكمونني على أن قررتُ حمايةَ نفسي، حتى لو كنت أنا الفاعلة؟!

86

خـلال هـذه المعمعـة والفوضـى التي حلَّـت في قاعـة المحكمـة، همَّ القاضي بجمع أوراقه قبل المغادرة، حين علا صوتٌ أنثوي من آخر القاعة، حيث كان سيد الظلام جالسًا:

- سيدي القاضي، أرجوك توقف قليلًا؛ عندي ما أقوله..

- تفضلي..

- إنَّ القضية لم تنتهِ بعد. هناك حقيقة يجب أن يعرفها الجميع..

- عرفي نفسك أولًا

- أنا ماغي، صديقة إيفان ومن وجدت جثته يوم وقوع الجريمة..

- هل لديكِ ما تضيفينه يا سيدة ماغي؟

- لقـد وجدتُ هذه الرسـالة قربَ جسـده الغـارق بالدماء. لقـد كتبها بخطِّ يده؛ يجب أن تطَّلع عليها. لقد أخفيتها عن المحقق خشية إدخالي بسببها في دوامة الشـكوك والتحقيق. بعد اتهام نوريسـتا خفـتُ أكثر.. خفتُ أن أُدان بسـبب تكتمـي على هـذه المعلومات. كنت أعتقد أنها سـتخرج من القضيـة. بعد أن قرأت قصتها في الصحيفة، بـت واثقةً من تعاطف الرأي

العـام مع قضيتهـا. قبل أن آتي إلى هنـا كنتُ أعتقدُ أنها تسـتحق العقاب، فلقـد تركَتـه مـع عذاباتـه وحيدًا ولم تعـد لكي تودّعـه قبل موتـه. وعندما سـمعت الآن أسـباب امتناعها عن زيارته، أدركت أنهـا تحبه كما أَحبَّها.. نعـم لقد أحبها، رغم ما فعلـه معها.. أحبها إلى حد الجنون. لقد سـرقَت فرصتـي معـه وأنا من حَضنته. لقد كنت أمه وأختـه وحبيبته التي لم يحبها يومًا. تفضل سـيدي هذه هي الرسـالة، وأنا جاهزةٌ لأية أسئلة ولأي حكم تجدونه مناسبًا بحقي..

صعقنـي مـا سـمعت. ماغـي تُخفي رسـالة إيفان، وهـي التي أتـت إليَّ لترجونـي كـي أعود إليـه؟ اِرحمني يا الله، أكاد أموت. أشـعر أني سأسـقط على الأرض، ولكن عليَّ أن أتماسك لأعرف ما تخفيه هذه الرسالة..

"حبيبتي ماغي..

دعينـي اليـوم أناديكِ حبيبتـي لأول وآخر مرة. سـامحيني على ما نويت فعله، وقبل هذا أريد أن أقبّل يديكِ وأشـكركِ على حبّكِ ورعايتكِ لي. لقد حوَّلتني هذه المحبة إلى إنسان، وجعلَتني أتلمس ملامح إنسانيتي من جديد وأنا القاتـل الذي أبدتُ آلاف الأرواح. محبتكِ أيقظت فيّ تلك الروح التي كنت أعتقد أنها ماتت بموت عائلتي في تلك الحرب الكريهة..

يا ماغي، لقد صيرتني الحرب وحشًا وسفّاحًا دون إرادتي، فكنت قاسيًا عليكِ وكأنَّ قسـوتي هذه عقاب على حبكِ الذي حوَّلني لاحقًا إلى إنسـان. عندما وجدتُ المسـدس في الكيس بين طيات شـال نوريستا، أدركتُ ذلك الخطر الذي عرضتِ نفسكِ له لكي تحققي أمنيتي قبل أن أموت. سامحيني، حقـدي وانتقامي وحبـي لها أعمى عينيّ عنـكِ وأنتِ الرائعـة الحنون، الأم

والحبيبة، خجلي من نفسي يقتلني، ولن أقوى على النظر في عينيكِ من جديد.. لهذا قررتُ أن أنهي ما تبقى من حياتي بمسدس والدي، والذي أخذَته نوريستا ذلك اليوم خوفًا عليَّ من هذا المصير. سامحيني على هذا القرار، أشكركِ على كل ما فعلته من أجلي، أقبّل يديك امتنانًا، أنتِ يا أطهر الملائكة. سامحيني لأني لم أرَ فيكِ إلا العاهرة، ولم يشغلني يومًا إلا ما كنتِ تفعلين وكيف تفرطين بجسدكِ. شكرًا لأنكِ قد علّمتِني بالحسِّ الملموس ما عاشه السيد المسيح وشعوره عندما حمى ولن أقول الزانية أو الخاطئة بل سأقول المرأة الإنسان.. حماها بجسده من حجارة المجتمع وظلم البشر، لأنَّ فيه من روح الإله ولم يرَ فيها سوى ما يُشبهه. أما نحن، فلا نرى في الآخر سوى ما يشبهنا وما يشغلنا. أريد أن أرحمكِ من خدمتي، فأنا ميتٌ بالأصل. سأشتاقكِ كثيرًا، أرجو أن تدفني جسدي في الحديقة قربَ جسد ابني، وأرجو أن تعطي هذه الرسالة للمحكمة كوصيّة مني، فسوف أترك لكِ ولأولادك كل ما أملك. لا أريدكِ بعد اليوم أن تذهبي إلى الحانة، إلا إذا كان هذا قراركِ ورغبتكِ، فأنتِ امرأةٌ طاهرة وأكثر طهرًا من الكثيرات من اللواتي يدّعين هذا ويُدِنَّ الأخريات ممن قسَت عليهنَّ الحياة. سلمي على نوريستا الحبيبة، وقولي لها إنني كنت أتمنى أن أراها قبل أن أموت؛ ولكنَّ منديلها معي.

إيفان دافيتش

كيف وصل المسدس إلى يده؟

- يوم زيارتي لنوريستا في مركز النور، وبعد أن فتحَت الحقيبة وأخرجت منها بطاقة شقيقة إيفان لكي ترسلها إليه، طرق الشيخ حسن على الباب

وذهبـت لتكلمـه. بعد أن أقفلت بـاب الغرفة وراءها، أدركـتُ أني بأمان، فقـرّرت أن أبحـث عن المسـدس، وكان قد طلب منـي أن أحضره له قبل أن يمـوت. توقّعت أن أجده فـي نفس الحقيبة التي أخرجت منها البطاقة، وهكـذا كان. تحسسـته داخل لفافـات أوراق الصحف، ولـم أتجرأ على أخـذه من بينهـا، حملته كما كان ووضعته في حقيبتي. ثم عادت نوريسـتا وأكملت كتابة الرسـالة ووضعـت البطاقة داخلها، وأقفلـت الحقيبة دون أن تتفقّدها وأعادتها إلى مكانها، ولـم تلاحظ أنَّ المسـدس لم يكن هناك، فـأوراق الصحف المتبقية كانت كثيرة، والمسـدس لـم يكن ثقيلًا. عدت إلـى البيـت ووضعـت المسـدس والمنديل داخـل الكيس وذهبـت إليه. كان يعانـي مـن نوبةِ ألمٍ شـديدة أصابته، فوضعت الكيس بجانب سـريره وأعطيته الدواء، وانتظرتُ إلى أن تحسَّـن قليلًا وسـكن وجعه ثم سـلمته الرسـالة. قرأناها سـويًّا، وأخبرته أنها سـتعود قريبًا. بعـد قليل طلب مني الرحيل، فودّعته وذهبتُ ونسـيتُ أن أخبره بشـأن المسدس الذي كان في الكيس لفرط انشغالي بوضعه الصحي..

مسحت دموعها وأكملت..

- عندمـا دخلتُ عليه في الصباح لأحضر له الفطور، وجدته غارقًا في دمائه والمسدس قربه، أخذت الرسالة ودفتر مذكراته ومنديل نوريستا والبطاقة وأخفيتهم في حقيبتي قبل أن أتصل بالشرطة ويبدأ التحقيق..

- ولماذا أخذتِ المنديل؟

- لا أعرف، كنت خائفةً ومرتبكة، شيءٌ ما دفعني إلى هذا، لا أعرف ما هو. ربمـا كنتُ أحـاول أن أحميهـا، أو أن أنتقم منها. وبعد أن سـارت الأمور

على هذا النحو، أوقفني خوفي عن الاعتراف بما حدث. وها أنا أضع القضية بين أيديكم لكي تحكموا عليّ بالعقاب الذي أستحقه.

تشاور القاضي مع مستشاريه، ثم أعلن عن إعادة النظر في الحكم بعد جلسة خاصة للتداول في المعطيات الجديدة التي طرأت على القضية، ثم غادر القاعة تاركًا كلَّ مَن كان هناك ومنهم أنا في حالة ذهول وحيرة وترقب.

يا إلهي، أرجو ألا يطول انتظاري، فلم أعد أقوى على سماع المزيد من المفاجآت. لقد انتحر، كنت أتوقع هذا، فقسوته عليَّ كانت تترجم ضعفه وانكساره، وكنت أعرف أنني إذا ما غبتُ سيتحطم وسيموت، لأنه قد فقد من يشعره بقيمة وجوده. هكذا كان يترجم حبّه.. تلك الظروف التي حوّلته إلى مجرم لم تعلّمه سوى ثقافة الموت.. مسكين أنت يا إيفان.. لقد ولدت لتقتل حتى نفسك.

اقتربت ماغي مني وملامح الندم والأسف تظلل وجهها الحزين..

- سامحيني نوريستا أرجوكِ، لم أرد أن أؤذيكِ، لم أضمر لكِ الشرَّ يومًا فأنتِ حبيبةُ الغالي. صدقيني، حتى عندما امتدَّت يدي وأخذت المسدس لم أكن عندها بكامل وعيي. كنت أريد أن أسعد قلب إيفان، وأنا وأنتِ نعرف تمامًا ماذا يعني له هذا المسدس، ولكن ربما كنتِ محقة، ولم أُدرك هذا إلا لاحقًا عندما وجدته غارقًا في دمائه. أعلم أنكِ كنتِ خائفةً عليه، وكان خوفكِ في محله، وإن لم تأخذي المسدس معكِ لانتحر منذ يوم رحيلكِ..

أردت أن أصفعها، ان انهال عليها ضربا لما فعلته بي، ولكن ما دار حولي وفـي فكري أوقفني صامته متامله، ان ما حـدث ويحدث هو ما غيَّر حياتي، تسـارع المنطق والواقع ليتغلب على صـوت الغضب والانفعال، فهي مثلي ضحية، وكيف لي ان أحاكمها؟ تنهدت بعمق مطفئةً نار ثورتي:

- لا عليكِ، وربما عليَّ أن أشكركِ أيضًا..

- تشكريني؟ لأني قد أدخلتكِ السجن كل هذه الأشهر وأنت بريئة؟

- ربما كنتُ بحاجةٍ إلى أن أبقى في السجن في هذه الفترة الأليمة لكي أبقى أنـا أيضًا على قيد الحياة. لقـد جاء اعترافكِ الآن فـي التوقيت الصحيح، ولا تنسَـي أنـكِ قد قـررتِ أن تواجهي ضعفـكِ وأن تُدخلي نفسـكِ فيما تخشين من أجلي، وكان بإمكانك ألا تفعلي هذا..

- لا يهمني الآن نفسـي، يكفيني أني قد نصرتُ الحق، فلأحمل معك قليلًا مـن وجعك ولأكفّر عن غلطتي. لو أني سـلمت الرسـالة يومها لما دخلنا أنا وأنتِ في هذه المتاهة. أريد أن أنام يا نوريسـتا، منذ ذلك اليوم لم أذق طعم النوم..

- لو أنكِ سـلمتِ الرسـالة، لما اسـتطعنا أن نلقي القبض على هذه العصابة المتطرفـة، ولربمـا كانـت نهايتـي علـى يدهـم قبـل أن أتمكـن من فضح نشـاطاتهم الإرهابية تلك، ولما وجدتُ لنفسـي مكانًا آمن فيه من شرّهـم، ولمـا كتبـت قصتي وتحدّيتُ نفسـي ونشـرتها، ولما تعرفـت على هؤلاء الأصدقـاء الرائعيـن، ولما اسـتطعتُ أن أفتـح ملفات حقـوق المرأة وما

تعانيه الآلاف من السيدات بصمتٍ وصبر، ولما اختبرتُ الآن إنسانيتك..
أنا من عليه أن يشكركِ.

حضنتني ودموعنا تغسل ذلك الألم الذي عشناه بعيدتين قريبتين في قلبِ رجلٍ واحد..

- صدقيني، لم أؤذِ أحدًا طوال حياتي رغم صعوبة ظروفي..

- أعلم هذا،، لقد ساندتِ إيفان وأنتِ تعرفين أنه يحب امرأةً أخرى، رغم ذلك خدمتِهِ بإخلاص إلى آخر لحظةٍ في حياته.

- العدالة لا تحكم بالعواطف، ربما سيدخلونني السجن مكانكِ، ربما أستحق هذا.

- لا عليك، الأستاذة ورد صديقتي، وسأطلب منها أن تساعدكِ.

جالت عيناي في القاعة باحثةً عنها، كانت لا تزال منهمكةً في تحضير الأوراق. ناديتها بصوتٍ هامس، فالتفتت إليّ وكأن قلبها كان معي. تركت ما بين يديها وحضرت مسرعة، قالت وهي تبتسم بفرح:

- كنت واثقةً من أنكِ ستنجين، وطبعًا كل الشكر للسيدة ماغي، فلولا شهادتها لما استطعنا فعلَ شيء، أنتِ حقًّا كما كتب عنكِ إيفان، إنسانةٌ رائعة..

- شهادةٌ متأخرة بعض الشيء، لكن صدقيني لم يردعني سوى خوفي فأنا أمّ لولدين، وزوجي شبه معاق وهم مسؤوليتي. أعرف أني قد ورّطتُ نفسي وعليّ أن أتحمل أعباء تصرفي هذا..

- لا عليكِ، سأحاول أن أخفِّف الحكم قدر المستطاع، وسأطالب بالإفراج عنك بكفالة مالية، وسوف نساعدك في دفعها، لا تقلقي..

- حقًّا؟؟ لا أعرف كيف أشكرك..

قطع حديثنا إعلان المحكمة عن انعقاد الجلسة من جديد للنطق بالحكم بعد المشاورات. عم الصمت القاعة من جديدٍ، بعد أن أخذ كلٌّ مكانه في انتظار أن يبدأ القاضي الكلام:

- بعد أن تأكدنا أنَّ الرسالة قد كتبت فعلًا من الضحية، وهذا لتطابق الخط الموجود فيها مع الخط الذي كتبت به مذكراته وبعض الخواطر. وبعد أن أكَّد المحقق إمكانية إقدامه على إطلاق النار على نفسه من خلال المكان القريب للجثة حيث وجد المسدس، ووجود بعض البصمات الخاصة بإيفان عليه، وبعد اعترافه بعزمه على الانتحار.. تعلن المحكمة براءة المتهمة وإطلاق سراحها إن لم تكن محكومةً بتهمة أخرى. أما السيدة ماغي، فسيحول ملفها إلى المحكمة بطلب من النيابة العامة بتهمة تضليل العدالة، حكمًا قابلًا للطعن عن طريق النقض.

علا الهتاف في قاعة المحكمة وصيحات الفرح والنصر. غمرت ماغي التي كانت لا تزال جالسةً بقربي. كم أنا سعيدة.. لقد نسيت يُتمي، ومن قال إنَّ رابطَ الدم هو رابطُ الحياة؟ هكذا تنعم علينا السماء بعائلة وأقارب، ربما لم نتصور يومًا أن نلتقيهم..

- مبروك يا نوريستا، ولا تنسَيْ أن تسامحيني وأن تصلّي من أجلي. إنني عاهرة، هل تعرفين ماذا تعني هذه الكلمة؟ ربما أستحق فعلًا هذا السجن..

- لا تديني نفسك... ولن يجرؤَ أحدٌ على إدانتكِ، فكلنا بشر. لقد عشتُ تجربتكِ وبعتُ نفسي أيضًا لكي أعيش. الحياة لن تقف عند هذه التفاصيل. سنكون معكِ ولن نتركك إلى أن تخرجي، وبعد أن تخرجي سأكون عائلتكِ..

اقتربت ورد وحضنتنا وأكملت ما كنت أقوله..

- أجل يا ماغي، لا تخافي، لن تدخلي إلى السجن، سوف نسوّي الموضوع..

التقطت أنفاسها من بين زفرات البكاء..

- إنني سعيدةٌ من أجلكِ. مصيري لا يُقلقني كثيرًا، فسأنام الليلة ملء عيوني. أنتِ الآن بخير، وهذه كانت وصيةَ إيفان لي، أن أعتني بكِ..

غمرتها من جديد، ورحنا نبكي حبيبًا أحببناه كلٌّ بطريقتها.. حبيبٌ قاتلٌ ومقتول منذ طفولته.. حبيبٌ لم يتعلّم يومًا كيف يسامح ويحبُّ نفسه والآخرين..

87

ربما ستصبح هذه الصورة من صفحاتِ الماضي، ولكني لن أستطيع أن أنسى ذلك المشهد عندما خرجنا من المحكمة، وكان قد وصل خبر براءتي للحشود التي كانت تنتظر في الخارج. لقد عمَّت الاحتفالات المكان. منذ ساعات دخلت متهمةً سجينةً، وخرجتُ كاتبة، نجمة، وحقوقية مدافعة عن نساء هذه الأرض وعن أطفالها.. عشرات المصورين، والصحفيين، ووسائل الإعلام، وعشرات الأسئلة..

- هل ستواصلين العمل من أجل قضية النساء المعنّفات؟

- هل ستحاولين فتح الدعوة من جديد ضد جرائم الاغتصاب ومعتقلات النساء البوسنيات في محكمة العدل الدولية؟

- هل يعيد قرار محكمة العدل الدولية باعتبارَ الاغتصاب جريمةَ حرب الحقَّ لأصحابه؟

- هل ستتابعين موضوع الفتيات اللواتي يغرر بهنَّ ويُسقن إلى الجهاد والسبي، لكونكِ تعرضتِ لهذا الخطر؟

- لقد أثبتت الإحصاءات أنَّ عدد المغتصبات في بلادكِ قد وصل إلى الخمسين ألف حالة من الطرفين، هل تعتبرين نفسكِ ضحية أم أنَّ الحب قد حول قصتكِ إلى حالةٍ خاصة؟

- لقد ألقَوْا القبض على (راتكو ملاديتش) أبرز المتهمين بجرائم الإبادة بعد فراره لمدةِ ستة عشر عامًا، هل ستعاودون فتح ملف المحاكمات من جديد؟

وأسئلة أخرى كثيرة انهمرت عليَّ كالمطر..

- أعدكم بأني سأكتب لكم أجوبةً على كلٍّ هذه الأسئلة في الجزء الأخير والذي سأنشره قريبًا..

ضحكتُ بفرح. كنت أودُّ أن أحتضن كلَّ الناس والأرض والسماء والله.

لقد أصبحتُ مبدعةً أجيد كلَّ شيءٍ حتى فن التسويق. أجل هذا ما سأستعمله في حربي لنصرةِ الإنسان وقضاياه الحقَّة، والتي يداس عليها من أجل مصالح بعض المنتفعين.

قطع حبلَ ذكرياتي رنينُ الهاتف، آه إنها ورد..

- أهلًا أختي الحبيبة..

- إني أحمل إليكِ أخبارًا رائعةً. لقد أفرجوا عن ماغي بكفالةٍ مالية وستخرج اليوم..

- آه.. إنه خبرٌ يستحق الاحتفال..

- إذن تعالي نخرج الليلة سويًّا مع ماغي..

- لا، الليلة غير ممكن..

ضحكت بخبث:

- ماذا هناك؟ موعدٌ غرامي؟؟ هيا أخبريني..

- سوف أسافر مع ألبرت وأوليفر إلى البوسنة، سنمضي عطلة الأسبوع هناك..

- ماذا؟ هذا رائع! هل أنتِ مستعدةٌ لهذه الخطوة؟

- لو لم يكن ألبرت معي لما تجرّأت. لقد شجعني على مواجهة مخاوفي وتلك الذكريات المرة. ربما مواجهتي هذ ستفتح في داخلي أفاقًا جديدةً، وتجعلني أنطلق للمستقبل دون التفكير في العودة إلى الماضي من جديد.

- قولي لي بصراحة، هل هناك مشروعٌ مستقبليٌّ ما بينكما؟

- لا أستطيع أن أخبركِ الآن، فأنا لا أحب أن أستبق الأمور، ما أستطيع قوله أنه قد شغَل حياتي. موقفه في المحكمة أثناء الجلسة جعلني أدرك حبّه واحترامه وتقديره لإنسانيتي. إنه يحبني كإنسانٍ وليس فقط كامرأة، وهذا أكثر ما يعجبني ويجعلني أتعلق به أكثر..

- أنا سعيدةٌ جدًّا بهذه الأخبار، إذًا يا أختي الحبيبة اعتني بنفسكِ واستمتعي ولا تدعي الأحزان تعكّر عليكِ صفو هذه اللحظات. سنلتقي عندما تعودين، وستخبرينني بكلّ التفاصيل..

88

لا أستطيع أن أترجم مشاعري وأنا أتنشق هواء أرضي، وطن وجعي وحبي، وانا أتجول في منبت جذوري من جديد. لقد خرجت من هناك طفلة صغيرة، لم تسمح لي الحربُ وظروف عائلتي الاقتصادية الصعبة بأن أستمتع بجمال بلادي، ولكني أستشعر أنها أرضي فجزءٌ من جسدي جُبل فيها. انتابتني حالةٌ غريبة، مزيجٌ من الخوف والحزن والأسف.. لقد عاد كلُّ شيءٍ إلى مكانه، إلى ما كان عليه، إلا البشر. فكلُّ ما عاد قد عاد ولكن بصبغةٍ جديدة يكسوها الحزن.. الشوارع والأشجار والغابات والجبال لا تزال هناك، ولكنها لم تستطع أن تتخطى وجعها، وكأنَّ صراخ أرواحِ الأبرياء لا يزال يُسمع بين طياتِ السكون. من (دبروفنيك) حيث اشتعلت شرارةُ الحرب، إلى ساحات سرايفو الضاحكة الباكية، مروجُ قريتي سربرنيتسا الخضراء التي أنبتت بدَل الزنابق لوحاتٍ رخامية بيضاءَ تتموّج بين الهضاب كُتب عليها أسماء الضحايا والمفقودين الستة آلاف.

جالت عيناي بين الأسماء، رأيت اسم والدي ووالدتي وإخوتي، وأنا أيضًا! لقد عُدِدت من بين الأموات، وربما فعلًا هذا هو الواقع، فلقد متُّ يومها معهم، وما أنا الآن إلا إنسانٌ آخر..

جثوت عند ضريح عائلتي، وقبّلت الألواحَ الرخامية الباردة. أين أنتم وبيني وبينكم برزخ وسبع سموات؟ هل ماذلتم تذكرونني؟ أنا ابنتكم نوريستا؟ المفكرة العاملة الصامتة الضاحكة الباكية.. أنا هنا، وهذا القبر الذي يحمل اسمي فارغٌ، أو ربما فيه جسدٌ آخر، فكلنا ضحايا للحروب، كلنا نوريستا.

رفعني ألبرت، وحضنني أوليفر قائلًا: "ها نحن قد زرنا منزل أمك، وغدًا ستذهبين معي لزيارة منزل أمي

تلك الأيدي العطوفة حملت يدي، وسرنا من جديد تاركين وراءنا منزل نوريستا وعائلتها شاهدًا على جرائم صنّاع الحروب. عبرنا (جيفرسكا)، (كرايينا)، (توزلا) (زينيتسا) وغيرها. لقد قُتل الكثير من الطرفين، ومازال هناك ثلاثة عشر ألف مفقود. عددُ الأبرياء الذين قُتلوا لا يقلُّ عن الأربعين ألف ضحية، مليونُ نازح ومليونُ لاجئ مازالوا يواجهون صعوبة في العودة بسبب الأوضاع الاقتصادية وإيجاد فرص للعمل، وبسبب العنصرية أيضًا، والتي لا تزال قائمةً، رغم تخفي الوجوه خلف أقنعَتِها من جديد. سبعمائة ضحية قُتلوا من قبل فِرق الإعدام في غضون يومين.. لقد أقفَلت محكمة العدل الدولية ملف المحاكمات ومازال العديد من المجرمين فارّين دون محاكمة. وما همنا أن سمَّت المحكمة الدولية ما حدث إبادةً أو جرائمَ حرب، وأن صنّفت الاغتصاب جرائمَ حرب أم لا، المهم أنَّ هؤلاء قد قُتلوا واغتصبوا ولم تؤخذ حتى الآن حقوقهم من صنّاع الحروب ومن تجار الأسلحة ومن الحكومة الخفية التي تقود العالم. والمهم، أنَّ تلك النسوة اللاتي عدنَ من معتقلات الاغتصاب مازلن يعانينَ بصمتٍ، فنظرة المجتمع

لهـنَّ تحاكمهنَّ وتقاضيهـنَّ دون رحمة وكأنهنَّ فعلن ذلك بمـلء إرادتهنَّ. لقد تحرَّرن جسـديًّا من الأسر، إنما أرواحهن لا تزال هناك، ومازال الأولاد المولودون في تلك المعتقلات يعاملون كلقطاء، وكأنَّ أمهاتهم ولدنهم من بذور الشياطين؛ وليس للطفولة ذنبٌ ولا للنساء ذنبٌ أيضًا.

أمسـكت يـد أوليفر الصغيرة ويـد ألبرت التي حضنَت جرحي، ومشـينا هناك في أحياء (موسـتار). اجتزنا جسـر (ستاري موست)، حاولنا أن نغضَّ النظـر عـن عيون الناس فـي بلادي، تلـك العيون التي لا تـزال تحمل صور الحرب. تنشّقنا نسيم الصباح المنعش، والذي إلى الآن يحمل شيئًا من وجع تلك الأرواح التي تطوف هناك، ودّعنا بلادي.. ودعت البوسنة الحبيبة بآخر غـروبٍ لنـا هناك، وعُدنا لنكمل حياتنا حيث بدأناها.. وعلى أمل أن تغسـل أمطار الشتاء القادم وثلوجه البيضاء سوادَ القلوب والحرب ومآسيها.

❋❋❋

"أظن أني قد أدمنت شرب الخمر كما إيفان، والسجائر التي كانت رائحتها تقتلني بدأت أنفق ما أملك كي أشتريها. لقد أغرقتني تفاحة حواء بين الدين والخطيئة، وتفاحة نيوتن، بين الفلسفة والعلم، بين الخطيئة وترويض النفس وقمعها.. ها أنا أختبرُ تفاحتي الثالثة لتختصر كل ما كان، وبعد كل هذا الكبت والتزمت وتهميش الجسد وإنكاره في دائرة الثالوث المقدس، أنجرف إلى آخر أيقونة كان محرمًا عليّ أن أفكر فيها: "الجسد".. الجسد الذي هو مسرح العقل، الروح والنفس".

فارق كبير بين علمك أن حربا أهلية قد اشتعلت في مكان ما، وأن تصاحب التفاصيل الدقيقة لتلك الأحداث: كيف بدأت وإلام آلت، عبر شخصيتين محددتين: جلاد وضحية. لا يكتفي السرد بذلك وحسب، لكنه يغوص عميقا في أدق خلجات كل من الشخصيتين عبر سرد متبادل لاهث لكنه دقيق، بين الداخل والخارج، بين الذات التي تقسو وتجلد وتنتهك، والذات الأخرى التي تتفتح للحياة والوعي والمعرفة وهي ترزح تحت نير الاختطاف والاغتصاب والسجن المقبض. وعلى الرغم من كل ما عرفه العالم عن مأساة البوسنة في تسعينيات القرن الماضي، فإن ما تقدمه الكاتبة هنا من دراما مروعة يظل جديدا وكاشفا ومتصلا إلى أبعد مدى بمشكلات العالم في اللحظة الراهنة. إنها تفاحة أخيرة بالفعل، إما أن نلتقطها ونتمسك بها، أو يصيبها ويصيبنا معها العطب والضياع.

كاتبة لبنانية مقيمة في النمسا، دبلوم تربية وتعليم، مؤسسة جمعية شرق غرب الدولية لدمج الحضارات، عضو في رابطة القلم النمساوية ونادي الصحافة النمساوي. تعمل مدرسة بيانو بجانب عملها في المجال الإنساني في مخيمات اللجوء، عضو ناشط في مجال حقوق الإنسان ومناهضة العنصرية. من أهم إصداراتها "لاجئة إلى الحرية" "الرصاصة الصديقة" باللغة الإنجليزية، ورواية كايا.

9 789772 937271

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

مكتبة الدار العربية للكتاب